

دار الكتب المصرية

---

القسم الأدبي

---

الجامع الأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

---

الجزء العاشر

---

المطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م

دار الكتب المصرية

---

القسم الأدبي

---

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

---

الجزء العاشر

---

المطبعة  
مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م





## فهرس الجزء الحادى عشر

### تفسير سورة الكهف

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ... » الآيات ، الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع وسواهم ... .. ١
- تفسير قوله تعالى : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ... » الآيات . ٤
- تفسير قوله تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ... » الآية . فيه مسائل : الجمهور على أنه موسى بن عمران . سبب قصة موسى والخضر عليهما السلام . رحلة العالم فى طلب الأزدىاد من العلم . ندب الشريعة إلى تسمية الخادم بالفتى ... .. ٨
- تفسير قوله تعالى : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ... » الآيات . اتخاذ الزاد فى الأسفار لا ينافى التوكل . الخلاف فى أن الخضر نبى أو ولى ... .. ١٢
- تفسير قوله تعالى : « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ... » الآيات . بيان أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ... .. ١٦
- تفسير قوله تعالى : « فأنطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ... » الآيات . فيه مسألتان : قصة ركوب موسى والخضر السفينة وخرقها . للولى أن ينقص مال اليتيم للصلحة ١٨
- تفسير قوله تعالى : « فأنطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ... » الآيات ... .. ٢٠
- تفسير قوله تعالى : « فأنطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية أستطعا أهلها » الآيات . فيه مسائل : بيان اختلاف العلماء فى القرية . وجوب سؤال القوت للححتاج . النهى عن الجلوس تحت جدار مائل . ثبوت الكرامة للأولياء . هل يجوز أن يعلم الولى أنه ولى أم لا . لا ينكر أن يكون للولى مال وضيعة . صحة جواز الإجارة ٢٣
- تفسير قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين ... » الآيات . الرد على زنادقة الباطنية فى القول باستغنائهم عن نصوص الشريعة بما يقع فى قلوبهم . الكلام على حياة الخضر وموته والاختلاف فى اسمه ... .. ٣٣
- تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين ... » الآيات . خبر ذى القرنين . ذكر نبوة خالد بن سنان العبسى ... .. ٤٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ثم أتبع سبيا ... » الايات . الكلام على يأجوج ومأجوج .  
 ٥٥ ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ... » الايات . ما يجهط  
 ٦٤ ... .. العمل . ذم السمن بالأكل الزائد والترفع . الكلام على الرياء ... ..

### تفسير سورة مريم

- تفسير قوله تعالى : « كهيعص . ذكرا رحمة ربك عبده زكريا ... » الايات ...  
 ٧٣ ... .. الكلام على وراثة الأنبياء . حكم ارتفاع الإمام على المأمومين ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وأذكر في الكتاب مريم ... » الايات . قصة مريم وحملها  
 ٨٩ بعيسى وولادته . القول في كسب الرزق . فائدة الرطب للنفساء . نذر الصمت  
 ٩٩ ... .. تفسير قوله تعالى : « فأنت به قومها تحمله ... » الآيتين ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهسد صبيا ... »  
 ١٠١ ... .. الايات . حكم قذف الأنحرس ولعانه ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق ... » الايات . اختلاف فرق  
 النصارى في عيسى . سبب انتقال المسيح وأمه من بيت لحم إلى مصر .  
 ١٠٥ ... .. ذبح الموت يوم القيامة ... ..  
 ١١٠ ... .. تفسير قوله تعالى : « وأذكر في الكتاب إبراهيم ... » الايات . القول في تحية غير المسلم  
 ١١٣ ... .. تفسير قوله تعالى : « وأذكر في الكتاب موسى ... » الايات ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وأذكر في الكتاب إسماعيل ... » الآيتين . فيه مسائل : صدق  
 ١١٤ ... .. الوعد . الأقوال في العدة بالهبة ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وأذكر في الكتاب إدريس ... » الآيتين . ما قيل في سبب  
 ١١٧ ... .. رفع إدريس عليه السلام ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ... » الايات . القول  
 ١٢٠ ... .. في سجود التلاوة ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ... » الايات .  
 ١٢١ ... .. الكلام على إضاعة الصلاة . بعض أحوال أهل الجنة ... ..

صفحة

- ١٢٨ ... تفسير قوله تعالى : « وما ننزل إلا بأمر ربك ... » الايتين ...
- ... تفسير قوله تعالى : « ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ... » الآيات .
- ١٣١ ... موت الأطفال وقاية لأبائهم من النار . أطفال المسلمين في الجنة ...
- ١٤١ ... تفسير قوله تعالى : « وإذا نتلى عليهم آياتنا بينات ... » الآيات ...
- ١٤٤ ... تفسير قوله تعالى : « ويزيد الله الذين آهتدوا هدى ... » الآية ...
- ١٤٥ ... تفسير قوله تعالى : « أفرأيت الذي كفر بآياتنا ... » الآيات ...
- ١٤٨ ... تفسير قوله تعالى : « وآتخذوا من دون الله آلهة ... » الايتين ...
- ١٤٩ ... تفسير قوله تعالى : « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين ... » الآيات ...
- ١٥٥ ... تفسير قوله تعالى : « وقالوا آتخذ الرحمن ولدا ... » الآيات ...
- ١٦٠ ... تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » الآية ...
- ١٦١ ... تفسير قوله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشربه المتقين ... » الآية ...
- ١٦٢ ... تفسير قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ... » الآية ...

### تفسير سورة طه عليه السلام

- ١٦٥ ... تفسير قوله تعالى : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « وهل أتاك حديث موسى ... » الآيات . حكم الصلاة في النعل .
- ١٧١ ... ما يطهرها إذا تنجست . أقوال العلماء في من نام عن صلاة أو نسيها أو تركها عمدا
- ١٨٥ ... تفسير قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ... » الآيات . منافع العصا ...
- ١٩١ ... تفسير قوله تعالى : « أذهب إلى فرعون إنه طغى ... » الآيات ...
- ١٩٤ ... تفسير قوله تعالى : « قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ... » الآيات ...
- ١٩٩ ... تفسير قوله تعالى : « أذهب إلى فرعون إنه طغى ... » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « قال فما بال القرون الأولى ... » الايتين . الكلام على تدوين
- ٢٠٥ ... العلوم وكتبها ...
- ٢٠٩ ... تفسير قوله تعالى : « الذي جعل لكم الأرض مهذا ... » الآيات ...
- ٢١١ ... تفسير قوله تعالى : « ولقد أرينا آياتنا كلها فكذب وأبى ... » الآيات ...

صفحة

- ٢١٥ ... تفسير قوله تعالى : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ... » الآيات ...
- ٢٢١ ... تفسير قوله تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ... »
- ٢٢٥ ... الآيات ...
- ٢٢٧ ... تفسير قوله تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ... » الآيات ...
- ٢٢٩ ... تفسير قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ... » الآيات ...
- ٢٣٢ ... تفسير قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى ... » الآيات ...
- ٢٣٦ ... تفسير قوله تعالى : « ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتتم به ... » الآيات .
- ٢٣٦ ... الرد على الصوفية فى رقصهم وتواجدهم ...
- ٢٣٨ ... تفسير قوله تعالى : « قال يابن أتم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ... » الآيات .
- ٢٣٨ ... الكلام على نبي أهل البدع والمعاصى وعدم مخالطتهم ...
- ٢٤٣ ... تفسير قوله تعالى : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ... » الآيات ...
- ٢٤٥ ... تفسير قوله تعالى : « ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ... » الآيات
- ٢٤٨ ... تفسير قوله تعالى : « وعنت الوجوه للى القيوم ... » الآيتين ...
- ٢٥٠ ... تفسير قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ... » الآيتين ...
- ٢٥١ ... تفسير قوله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ... » الآية ...
- ٢٥٢ ... تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... » الآيات ...
- ٢٥٤ ... تفسير قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان ... » الآيات . القول فى ذنوب الأنبياء .
- ٢٥٤ ... حاجة آدم وموسى عليهما السلام ...
- ٢٥٧ ... تفسير قوله تعالى : « قال أهبطا منها جميعا ... » الآيات ...
- ٢٥٨ ... تفسير قوله تعالى : « قال رب لم حشرتنى أعشى وقد كنت بصيرا ... » الآيات ...
- ٢٦٠ ... تفسير قوله تعالى : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ... » الآيات ...
- ٢٦١ ... تفسير قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ... » الآيتين ...
- ٢٦٤ ... تفسير قوله تعالى : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ... » الآيات ...

## تفسير سورة الأنبياء

- تفسير قوله تعالى : « أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ... » الآيات ٢٦٦ .
- تفسير قوله تعالى : « قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ... » الآيات ٢٧٠ ...
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ... » الآيات ٢٧١ ...
- تفسير قوله تعالى : « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة ... » الآيات ٢٧٣ ...
- تفسير قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ... » الآيات ٢٧٥ ...
- تفسير قوله تعالى : « وله من فى السموات والأرض ... » الآيات ٢٧٧ ...
- تفسير قوله تعالى : « لو كان فىهما آلهة إلا الله لفسدتا ... » الآيات ٢٧٨ ...
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه ... » الآية ٢٨٠ .
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا آتخذ الرحمن ولدا سبحانه ... » الآيات ٢٨١ ...
- تفسير قوله تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ... » الآيات ٢٨٢ ...
- تفسير قوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ... » الآيات ٢٨٧ ...
- تفسير قوله تعالى : « خلق الإنسان من عجل ... » الآيات ٢٨٨ ...
- تفسير قوله تعالى : « قل من يكأؤكم بالليل والنهار من الرحمن ... » الآيات ٢٩٠ ...
- تفسير قوله تعالى : « قل إنما أنذركم بالوحي ... » الآيات ٢٩٢ ...
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ... » الآيات ٢٩٥ ...
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ... » الآيات ٢٩٥ ...
- تفسير قوله تعالى : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ... » الآيتين ٣٠٦ ...
- تفسير قوله تعالى : « ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ... » الآيتين ٣٠٦ ...
- تفسير قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ... » الآيات فيه مسائل :
- أختلاف العلماء فى جواز الاجتهاد على الأنبياء . الكلام على المجتهدين فى الفروع إذا اختلفوا . القول فى رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده الى اجتهاد آخر .
- حكم ما أفسدت المشية فى شرعنا ... ٣٠٧

- تفسير قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم ... » الآية . فيه مسائل : الآية أصل
- ٣٢٠ ... في اتخاذ الصنائع والأسباب ...
- ٣٢١ ... تفسير قوله تعالى : « ولسميان الريح عاصفة تجرى بأمره ... الآيتين ...
- ٣٢٢ ... تفسير قوله تعالى : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ... الآيتين ...
- ٣٢٧ ... تفسير قوله تعالى : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » الآيتين
- ٣٢٩ ... تفسير قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا ... الآيتين ...
- ... تفسير قوله تعالى : « وزكريا إذ نادى ربه ربى لا تذرنى فردا ... الآيتين .
- ٣٣٥ ... كيفية الدعاء ...
- ٣٣٧ ... تفسير قوله تعالى : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » الآية ...
- ٣٣٨ ... تفسير قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ... » الآية ...
- ٣٣٩ ... تفسير قوله تعالى : « وتقطعوا أمرهم بينهم ... » الآيتين ...
- ٣٤٠ ... تفسير قوله تعالى : « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... » الآية .
- ٣٤٣ ... بيان أن الآية أصل فى القول بالعموم ...
- ٣٤٤ ... تفسير قوله تعالى : « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ... » الآية ...
- ... تفسير قوله تعالى : « إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ... »
- ٣٤٥ ... الآيات ...
- ٣٤٦ ... تفسير قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ... » الآية ...
- ... تفسير قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى
- ٣٤٩ ... الصالحون ... » الآيتين ...
- ٣٥٠ ... تفسير قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ... » الآيات ...

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ  
 أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا  
 شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾  
 وَرَعَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾  
 قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ قيل :  
 الضمير عائد على إبليس وذريته ؛ أى لم أشاورهم فى خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ،  
 بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض  
 « ولا خلق أنفسهم » أى أنفس المشركين فكيف آتخذوهم أولياء من دوني ؟ . وقيل : الكناية  
 فى قوله : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ » ترجع إلى المشركين ، وإلى الناس بالجملة ، فتتضمن الآية الرد على  
 طوائف من المنتجمين وأهل الطوائع والمتحكيين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط فى هذه  
 الأشياء . وقال ابن عطية : سمعت أبى رضى الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله  
 محمد بن معاذ المهدى بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا القول ، ويتأول  
 هذا التأويل فى هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين .  
 قال ابن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته ؛ وبهذا الوجه  
 يتجه الرد على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان والعرب والمعتزليين للجن ؛ حين يقولون : أعوذ  
 بعزير هذا الوادى ؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع ، فهم  
 المراد الأول بالمضللين ؛ وتدرج هذه الطوائف فى معنائهم . قال الثعلبي : وقال بعض أهل  
 العلم « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » رد على المنتجمين أن قالوا : إن الأفلاك تُحدث  
 فى الأرض وفى بعضها فى بعض ، وقوله : « والأرض » رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا :



إن الأرض كرية والأفلاك تجرى تحتها ، والناس ملصقون عليها وتحتها ، وقوله : « ولا خلق أنفسهم » رد على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هى الفاعلة فى النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقيون بالتاء بدليل قوله : « وما كنت متخذ » يعنى ما آستعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . ﴿ عَصُدًا ﴾ أى أعوانا . يقال : أعتضدتُ بفلان إذا آستعنت به وتقويت . والأصل فيه عضد اليد ، ثم يوضع موضع العون ؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال : عضده وعاضده على كذا إذا أعانه وأعزه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثل ، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخص المضللين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر بالتجذر « وَمَا كُنْتُ » بفتح التاء ؛ أى وما كنت يا محمد متخذ المضللين عضدا . وفى عضد ثمانية أوجه : « عَصُدًا » بفتح العين وضم الضاد وهى قراءة الجمهور ، وهى أفصحها . و « عَصُدًا » بفتح العين وإسكان الضاد ، وهى لغة بنى تميم . و « عَصُدًا » بضم العين والضاد ، وهى قراءة أبى عمرو والحسن . و « عَصُدًا » بضم العين وإسكان الضاد ، وهى قراءة عكرمة . و « عَصُدًا » بكسر العين وفتح الضاد ، وهى قراءة الضحاك . و « عَصُدًا » بفتح العين والضاد وهى قراءة عيسى بن عمر . وحكى هرون القارئ « عَصُدًا » . واللغة الثامنة « عَصُدًا » على لغة من قال : كتف وفخذ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى آذكروا يوم يقول الله : أين شركائى ؟ أى أدعوا الذين أشركتموهم بى فليمنعوكم من عذابى . وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « نقول » بنون . الباقيون بالياء ؛ لقوله : « شركائى » ولم يقل : شركائنا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى فعلوا ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم إلى نصرهم ، ولم يكفوا عنهم شيئا . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ قال أنس ابن مالك : هو واد فى جهنم من قيح ودم . وقال ابن عباس : أى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيل : بين الأوثان وعبدتها ، نحو قوله : « فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِقٌ . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْبِقًا » قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِقٌ . وكذلك قال نَوْفُ الْبِكَالِيِّ إلا أنه قال : يحجز بينهم وبين المؤمنين . عكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافتيه حيات مثل البغال الذمهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا منها بالافتحام في النار . وروى (١) زيد بن درهم عن أنس بن مالك قال : « مَوْبِقًا » وادٍ من قيح ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مهلكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إيباقا . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهري : وَبِقٌ يَبِقُ وَبَوْقًا هَلَكٌ ، والمَوْبِقُ مثل الموعد مَفْعِلٌ من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم موبقا » . وفيه لغة أخرى : وَبِقٌ يَوْبِقُ وَبَقًا . وفيه لغة ثالثة : وَبِقٌ يَبِقُ بالكسر فيهما ، وأوبقه أى أهلكه . وقال زهير :

ومن يشترى حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ \* يَصْنُ عِرْضَهُ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مَوْبِقٍ

قال الفراء : جعل تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ « رأى » أصله رَأَى ؛ قلبت الياء ألفا لأنفتاحها وأنفتاح ما قبلها ؛ ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فأما البصريون الخذاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف . قال النحاس : سمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات] (٢) الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء ، ثم يكتبون صَحًّا جمع صَحْوَةٍ ، وكُسًّا جمع كُسْوَةٍ ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل . (٣)

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ « فظنوا » هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال :

\* فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِاللَّغَى مَدْحَجٌ \*

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف ؛ والتصويب عن « التهذيب » . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) هو دريد بن الصمة ؛ تمام البيت : \* سراتهم في الفارسي المسرد \*

أى أيقنوا ، وقد تقدّم <sup>(١)</sup> . قال ابن عباس : أيقنوا أنهم واقعوها . وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم واقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم فى الحلال . وفى الخبر : " إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها واقعته من مسيرة أربعين سنة " . والمواقعة ملابسة الشئ بشدة . [ وعن علقمة أنه قرأ <sup>(٢)</sup> ] « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاقُوهَا » أى مجتمعون فيها ، واللفظ الجمع . « وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » أى مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب . وقال القتيبي : معذلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجئون إليه ، والمعنى واحد . وقيل : ولم تجد الأصنام مصيرفا للنار عن المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَّا وَلِيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٦﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٨﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَلَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُمْ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٦٠﴾

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من تفسير « البحر المحيط » .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما — ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية . الثاني — ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم<sup>(١)</sup> في «سبحان» ؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أى جدالا ومجادلة، والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن . وقيل: الآية في أبي بن خلف . وقال الزجاج: أى الكافر أكثر شىء جدلا ؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله: «وَيُحَادِّثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ» . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول رب آمنتُ بك وصدقتُ برسلك وعملتُ بكتّابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شىء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحافظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندى ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أتم الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تجزني من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدة على من نفسى فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذى يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخْلَى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإن بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكن الله فعنكن كنتُ أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكْتَمُ حديثا فذلك قوله تعالى «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا . وفي صحيح مسلم عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال: «ألا تصلّون» فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ؛ فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» .

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أى القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْآوَلِينَ﴾ أى سنتنا في إهلاكهم ؛

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة الأولين عادة الأولين فى عذاب الاستئصال . وقيل : المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيتهم سنة الأولين فحذف . وسنة الأولين معاناة العذاب ، فطاب المشركون ذلك ، وقالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . « أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا <sup>(١)</sup> » نصب على الحال ، ومعناه عيانا ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : هو السيف يوم بدر . وقال مقاتل : بغاة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمة ويحيى والكسائي « قُبُلًا » بضمين أرادوا به أصناف العذاب كله ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وَسُبُل . النحاس : ومذهب الفراء أن « قُبُلًا » جمع قَبِيل أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى عيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته « قُبُلًا » ومعناه عيانا .

قوله تعالى : « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » أى بالجنة لمن آمن . « وَمُنذِرِينَ » أى مخوفين بالعذاب من كفر . وقد تقدم . « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » قيل : نزلت فى المقتسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدم . ومعنى « يُدْحِضُوا » يزيلوا ويبطلوا . وأصل الدَّحْضُ الزَّلَقُ . يقال : دَحَضْتُ رِجْلَهُ أى زَلَقْتُ ، تَدَحَّضُ دَحَضًا ، ودَحَضَتِ الشَّمْسُ عن كبَد السماء زالت ، ودَحَضَتْ حُجَّتَهُ دُحُوضًا بَطَلَتْ ، وأدْحَضَهَا الله . والإدْحَاضُ الإزلاق . وفى وصف الصراط : « وَيُضْرَبُ الْحُسْرَى عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ <sup>(٢)</sup> فيقولون اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ » قيل : يا رسول الله وما الحسرة ؟ قال : « دَحَضُ مَرَلَقَةٍ » أى تَزَلَقُ فيه القدم . قال طرفة :

أَبَا مُنْذِرٍ رُمْتَ الْوَفَاءَ فَهَيْبَتُهُ \* وَحَدَّثَ كَمَا حَدَّ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ

(١) هذه قراءة « نافع » التى كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تحل : تقع و يؤذن فيها ، وهو (يكسر الحاء) وقيل : (بضمها) . النوى .

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ بمعنى القرآن ﴿وَمَا أَنْذِرُوا﴾ من الوعيد ﴿هُنُوءًا﴾ . و «ما» بمعنى المصدر أى والإنذار . وقيل : بمعنى الذى ؛ أى اتخذوا القرآن والذى أنذروا به من الوعيد هنؤوا أى لعبا وباطلا ؛ وقد تقدم فى «البقرة» <sup>(١)</sup> بيانه . وقيل : هو قول أبى جهل فى الزبد والنمر هذا هو الزقوم . وقيل : هو قولهم فى القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأولين ، وقالوا للرسول : «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» ، «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» و «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه ، فتهان بها وأعرض عن قبولها . ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أى ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها ؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المعنى نسى ما قدم لنفسه وحصل من العذاب ؛ والمعنى متقارب . ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسبب كفرهم ؛ أى نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم . ﴿وَأِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أى إلى الإيمان ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ <sup>(٢)</sup> نزل فى قوم معينين ، وهو يرد على القدرية قولهم ؛ وقد تقدم معنى هذه الآية فى «سبحان» وغيرها .

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى للذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» . «ذو الرحمة» فيه أربع تأويلات : أحدها — ذو العفو . الثانى — ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين يختص بأهل الإيمان دون الكفر . الثالث — ذو النعمة . الرابع — ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان والكفر ، لأنه ينعم فى الدنيا على الكافر كما ينعم على المؤمن . وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن آهتدى به المؤمن دون الكافر . ومعنى قوله : ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى من الكفر والمعاصى ﴿لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ ولكنه يمهل . ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أى أجل مقدر يؤخرون إليه . نظيره «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ» ، «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ»

(١) راجع ج ٣ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . ( أَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ) أى  
 مأجاء ، قاله ابن عباس وابن زيد ، وحكاه الجوهريّ فى الصحاح . وقد وَّآلَ يَيْلٌ وَالْأَوْوَاءُ لَا  
 على فُعلٍ أى لجأ ، ووَّآلَ منه على فاعل أى طلب النجاة . وقال مجاهد : مَحْرَزَا ، قَتَادَةُ : وَلِيًّا .  
 وأبو عبيدة : مَنَجَّى . وقيل : مَحْيَصَا ، والمعنى واحد . والعرب تقول : لَا وَآلَتْ نَفْسُهُ أَى  
 لَا نَجَتْ ، ومنه قول الشاعر :

لَا وَآلَتْ نَفْسُكَ خَلِيَّتَهَا \* لِلْعَامِرِيِّينَ وَلَمْ تُكَلِّمْ

وقال الأعشى :

وقَدْ أَخَالِسُ رَبِّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ \* وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي شَمَّ مَا يَيْلُ

أى ما ينجو .

قوله تعالى : ( وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ ) « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . « القرى »  
 نعت أو بدل . و « أهلكناهم » فى موضع الخبر محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أهل القرى .  
 ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول] من قال : زيدا ضربته ؛ أى وتلك  
 القرى التى قصصنا عليك نبأهم ، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا  
 وكفروا . ( وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ) أى وقتا معلوما لم تعدّه . و « مُهْلَكٌ » من أَهْلِكُوا . وقرأ  
 عاصم « مهلكهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَكَ . وأجاز الكسائى والفراء « لمهلكهم »  
 بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكسائى] وهو أحبّ إلى لأنه من هلك . الزجاج :  
 اسم للزمان والتقدير : لوقت مهلكهم ، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِهَا .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَسَّهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ  
 الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿١٠﴾

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٢) هذه قراءة الجمهور كما فى البحر وغيره .

(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها ،

وأنت الناقة على مضربها : أى على الزمن والوقت الذى ضربها الفحل فيه ؛ جعلوا الزمان كالملك .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره، وقالت فرقة منها نوف البكالي : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران، وقد ردّ هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره، وفتاه : هو يوشع بن نون، وقد مضى ذكره في «المائدة»<sup>(١)</sup> وآخر «يوسف»<sup>(٢)</sup> . ومن قال هو ابن منشا فليس الفتي يوشع بن نون . «لَا أَبْرَحُ» أي لا أزال أسير؛ قال الشاعر :

وَأَبْرَحُ مَا أَدَامَ اللَّهُ قَوْمِي \* بِحَمْدِ اللَّهِ مُنْتَظًا مُجِيدًا

وقيل : «لَا أَبْرَحُ» لا أفارقك . ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي ملتقاهما . قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ؛ وقاله مجاهد . قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان ، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين على هذا القول . وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ؛ قاله محمد بن كعب . وروى عن أبي بن كعب أنه بأفريقية . وقال السدي : الكر والرُسُّ<sup>(٤)</sup> بأرمينية . وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ؛ حكاه النقاش ؛ وهذا مما يذكر كثيرا . وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر ؛ وهذا قول ضعيف ؛ وحكى عن ابن عباس ، ولا يصح ؛ فإن الأمر بين من الأحاديث أنه إنما وسم له بحرماء . وسبب هذه القصة ما أخرجه الصحيحان عن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى عليه السلام قام خطيبا

(١) راجع ج ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها

طبعة أولى أو ثانية . (٣) هو خدش بن زهير، يقول : لا أزال أجنب فرسي جوادا، ويقال : إنه

أراد قولاً يستجاد في الثناء على قومي . وفي (اللسان) : «على الأعداء» بدل «بحمد الله» .

(٤) الكر والرُس : نهرا .



فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مِثْثَلٍ فخيثاً فقدت الحوت فهو ثم<sup>١</sup> و ذكر الحديث ، واللفظ للبخارى .

وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكرهم بأيام الله ، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، واستخلفهم فى الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاه لنفسه ، وألقى على<sup>٢</sup> محبة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، فجعلكم أفضل أهل الأرض ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً ؛ فقال له رجل من بنى إسرائيل : عرّفنا الذى تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : لا ؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه ، فبعث الله جبريل : أن ياموسى وما يدريك أين<sup>(١)</sup> [أضع] علمى ؟ بلى ! إن لى عبداً يجمع البحرين أعلم منك ؛ و ذكر الحديث . قال علماؤنا :

قوله فى الحديث ” هو أعلم منك “ أى بأحكام وقائع مفصلة ، وحكم نوازل معينة ، لا مطلقاً ، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علمك الله لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت ، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر ، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة ، وهمته العالية ، لتحصيل علم ما لم يعلم ، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك ؛ فعزم فسأل سؤال الدليل بكيف السبيل ، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له أحمل معك حوتاً مالخاً فى مِثْثَلٍ — وهو الزننيل — فخيث يحيا وتفقده فثم السبيل ، فانطلق مع فتاه لما واتاه ، مجتهداً طلباً قائلاً : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » . ( أَوْ أَمْضَى حُقْباً ) بضم الحاء والقاف وهو الدهر ، والجمع أحقاب . وقد تسكن قافه فيقال : حُقْب . وهو ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . والجمع حِقَاب . والحقبة بكسر الحاء واحدة الحَقْب وهى السنون .

(١) الزيادة من كتب التفسير .

الثانية — في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان في دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الرابع، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام . قال البخاري : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث .

الثالثة — قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » للعلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها — أنه كان معه يخدمه، والفتى في كلام العرب الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخدام فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاى وفتاى » فهذا ندب إلى التواضع؛ وقد تقدم هذا في « يوسف »<sup>(١)</sup> . والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم ابن يوسف عليه السلام . ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام . وقيل : إنما سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأول . وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى : « وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ آجَعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ » وقال : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » قال ابن العربي : فظاهر القرآن يقتضى أنه عبد، وفي الحديث : أنه كان يوشع بن نون . وفي « التفسير » أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم .

الرابعة — قوله تعالى : « أَوَّامٍ مِّثْرَى حَقْبًا » قال عبد الله بن عمر : والحُقْب ثمانون سنة . مجاهد : سبعون خريفا . قتادة : زمان . النحاس : الذي يعرفه أهل اللغة أن الحُقْب والحقبية زمان من الدهر مبهم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محدود : وجمعه أحقَاب .

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة أول أو ثمانية .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ  
 فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَدَّ آءَنَّا لَقَدْ لَقِينَا  
 مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي  
 نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ  
 فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا  
 قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَنَّهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّيْنَهُ  
 مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ الضمير  
 في قوله : « بينهما » للبحرين ؛ قاله مجاهد . والسَّرب المسلك ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة :  
 جَمَدُ الْمَاءِ فَصَارَ كَالسَّرْبِ . وجمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكة فارغا ، وأن  
 موسى مشى عليه متبعا للحوت ، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر ، وفيها وجد الخضر .  
 وظاهر الروايات والكتّاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما »  
 وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقليل : المعنى ؛ نسي أن يعلم موسى بما رأى من حاله  
 فنسب النسيان إليهما للصحبة ، كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج  
 من الملح ، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » وإنما الرسل من الإنس  
 لا من الجن . وفي البخارى ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ،  
 قال : ما كُلفت كثيرا ؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذا قال موسى لفتاه » يوشع بن نون —  
 ليست عن سعيد — قال فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان<sup>(٢)</sup> إذ تضرب<sup>(٣)</sup> الحوت وموسى قائم

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير . (قسطلافى) .

(٢) ثريان : يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان في ترابهما بلل وندى . (٣) تضرب : اضطرب

وتحرك إذا حي في المكمل .

فقال فتاه : لا أوقفه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه حُرْيَةَ البحر حتى كَانَتْ أثره في حَجَرٍ ، قال لي عمرو <sup>(١)</sup> : هكذا كَانَتْ أثره في حَجَرٍ وَحَلَّقَ بين إِبْهَامِيهِ وَالتَّيْنِ تَلْيَانِيهِمَا . وفي رواية : وأمسك الله عن الحوت حُرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِالْحَوْتِ فَأَنْطَلَقَا بِقِيَةِ يَوْمِهِمَا وَلِيَّتَهُمَا ، حتى إذا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » ولم يجد موسى التَّصَبُّبَ حتى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نَسِيا » فنسب النسيان إليهما ، وذلك أن يبدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذي أمر به ، فإِذَا مضى كان فتاه هو الحامل له حتى أَوِيََا إِلَى الصَّخْرَةِ نَزَلَا ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعنى الحوت هناك منسيا - أى متروكا - فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة ، وإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ نَسْيَانَهُمَا عِنْدَ بُلُوغِ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَهُوَ الصَّخْرَةُ ، فَقَدْ كَانَ مُوسَى شَرِيكَاً فِي النِّسْيَانِ ، لِأَنَّ النِّسْيَانِ التَّأخِيرَ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الدَّعَاءِ : أَنَسَا اللَّهَ فِي أَجْلِكَ . فلما مضى من الصخرة أخر حوتيهما عن حملِه فلم يحمله واحد منهما ، فَخَازَ أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِمَا لِأَنَّهُمَا مَضَى وَتَرَكَ الْحَوْتَ .

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو آتخاذ الزاد في الأسفار ، وهو ردُّ عَلَى الصُّوفِيَةِ الْجَهْلَةِ الْأَغْمَارِ ، الَّذِينَ يَقْتَحِمُونَ الْمَهَامَةَ وَالْقِفَارَ ، زَعَمُوا مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، هَذَا مُوسَى نَبِي اللَّهِ وَكَلِيمُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ آتَّخَذَ الزَّادَ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ ، وَتَوَكَّلَهُ عَلَى رَبِّ الْعِبَادِ . وفي صحيح البخارى : إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحتاجون ولا يترؤدود ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأَنَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « وَتَزَوَّدُوا » . وقد مضى هذا في « البقرة » <sup>(٢)</sup> . واختلف في زاد موسى ما كان ، فقال ابن عباس : كان حوتا مملوحا في زنبيل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما آتتهما إلى

(١) أى قال ابن جريج قال لي عمرو... الخ . (٢) الطاق : عقد البناء . (٣) الأغمار جمع غمر (بالضم) : وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور . (٤) راجع ج ٢ ص ١١٤ وما بعدها طبعة ثانية .

الصخرة على ساحل البحر ، وضع فتاه المِكل ، فأصاب الحوت بحرى البحر فتجرك الحوت فى المِكل ، فقلب المِكل وانسرب الحوت ، ونسى الفقى أن يذكر قصة الحوت لموسى . وقيل : إنما كان الحوت دليلاً على موضع الخضر لقوله فى الحديث : أحمل معك حوتا فى مِكل فحيث فقدت الحوت فهو ثم ، على هذا فيكون تزودا شيئا آخر غير الحوت ، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وأختره . وقال ابن عطية : قال أبى رضى الله عنه ، سمعت أبا الفضل الجوهري يقول فى وعظه : مشى موسى إلى المناجاة فبقى أربعين يوما لم يحتاج إلى طعام ، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع فى بعض يوم . وقوله : « نَصَبًا » أى تعباً ، والنصب التعب والمشقة . وقيل : عنى به هنا الجوع ، وفى هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض ، وأن ذلك لا يقدح فى الرضا ، ولا فى التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط . وفى قوله : « وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أن مع الفعل بتأويل المصدر ، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير فى « أنسانيه » وهو بدل الظاهر من المضمرة ، أى وما أنساني ذكره إلا الشيطان ؛ وفى مصحف عبد الله « وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان » ، وهذا إنما ذكره يوشع فى معرض الاعتذار لقول موسى : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ؛ فقال : ما كلفت كثيراً ؛ فاعتذر بذلك القول .

قوله تعالى : « وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا » ) يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى ؛ أى اتخذ الحوت سبيله عجباً للناس . ويحتمل أن يكون قوله : « وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ » تمام الخبر ، ثم استأنف التعجب فقال من نفسه : « عجباً » لهذا الأمر . وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حى بعد ذلك . قال أبو شجاع فى كتاب « الطبرى » : رأيت - أتيت به - فإذا هو شق حوت وعين واحدة ، وشق آخر ليس فيه شيء . قال ابن عطية : وأنا رأيت والشق الذى ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة . ويحتمل أن يكون قوله : « وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » إخباراً من الله تعالى ، وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحسوت من البحر عجباً ، أى تعجب منه . وإما أن يخبر

عن الحوت أنه آتخذ سبيله عجبا للناس . ومن غريب ما روى في البخاري عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما حي لأنه مَّسَّه ماء عين هناك تدعى عين الحياة ، ما مست قط شيئا إلا حي . وفي « التفسير » : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت ؛ ف قيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحي . وقال الترمذي في حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة ، ولا يصيب مأوها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحي ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي ۚ ﴾<sup>(١)</sup> أي قال موسى لفتاه أمر الحوت وفقدته هو الذي كنا نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا له ثم بفرجما يقصان آثارهما لئلا يخطئنا طريقهما . وفي البخاري : فوجدا خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجله ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بن إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال جئت لتعلمني مما علمت رشدا ؛ الحديث . وقال الثعلبي في كتاب « العرائس » : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو مئسج بثوب أخضر فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنت بأرضنا السلام ؟ ! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبي بن إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بي ؟ ومن أخبرك أنني نبي بن إسرائيل ؟ قال : الذي أدراك بي وذلك على ؛<sup>(٢)</sup> ثم قال : يا موسى لقد كان لك في بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدثان ، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء ؛ وذكر الحديث على ما يأتي .

(١) في الأصل : « نبغي » بالياء وهي قراءة « نافع » . (٢) الذي في كتاب « العرائس » للثعلبي : « فقال أنا موسى ، فقال : موسى بن إسرائيل ؟ قال نعم ؛ قال : يا موسى لقد كان لك في بنى إسرائيل شغل ... الخ » ولعل ما هنا زيادة في بعض النسخ .

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام فى قول الجمهور ، وبمقتضى الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيري ، قال : وقال قوم هو عبد صالح ، والصحيح أنه كان الخضر ؛ بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى أخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تَهتر تحتَه خضراء " هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض ؛ قاله الخطابي وغيره . والخضر نبي عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته ؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتَّبَع إلا من فوقه ، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي . وقيل : كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن . والأول الصحيح ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة . وقيل : النعمة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى علم الغيب . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، لا تُعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظواهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك : تَبِعَ وَاتَّبَعَ، وَتَقَى وَاتَّقَى . وأدغم بعض القراء الذال في التاء ، ولم يدغمها بعضهم . وفي حديث أبي بن كعب : لو شئت لأوتيت أجرا . وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العَرَض لا الاعتراض ، فعند ذلك قال له الخضر : « هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ » بحكم ما شرطت على نفسك . وتكريره « بَنِي وَبَيْنِكَ » وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد . قال سيويوه : كما يقال أخرى الله الكاذب مني ومنك ؛ أى منّا . وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله ، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا ، فكان سبب الفراق . وقال وهب بن منبه : كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » تأويل الشيء مآله ؛ أى قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ . وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجَّة على موسى ، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكرك القبطى وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودى : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !

قوله تعالى : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَاحِبًا فَأَرَادَ أَن يُبْلِغَهُمَا أَثَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿٨٢﴾ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾



قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ استدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير ، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة « براءة »<sup>(١)</sup> .

وقد قيل : إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قلة في لجة بحر ، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عبر عنهم بمساكين ؛ إذ هم في حالة يُشْفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقول لرجل غني وقع في وهلة أو خطب : مسكين . وقال كعب وغيره : كانت عشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم ؛ خمسة زمني ، وخمسة يعملون في البحر . وقيل : كانوا سبعة لكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر . وقد ذكر النقاش أسماءهم ؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما ؛ والثاني أعور ، والثالث أعرج ، والرابع آدر ، والخامس محوما لا تنقطع عنه الحى الدهر كله وهو أصغرهم ؛ والخمسة الذين لا يطبقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيه ما بين فارس والروم ؛ ذكره الثعلبي . وقرأت فرقة : « لِمَسَاكِينَ » بتشديد السين ، واختلف في ذلك فقيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصاح لإمساكه فسمى الجميع مساكين . وقالت فرقة : أراد بالمساكين دبغة المسوك وهى الجلود واحدها مسك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين ، وأن معناها : إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّتْ أَنْ أَعْيَبَهَا ﴾ أى أجعلها ذات عيب ، يقال : عبت الشيء فعاب إذا صار ذا عيب ، فهو معيب وعائب . وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير « صحيحة » وقرأ أيضا ابن عباس وعثمان بن عفان « صالحة » . و« وراء » أصلها بمعنى خلف ؛ فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى « وراء » هنا أمام ؛ يعضده قراءة ابن عباس وابن جبير « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَضْبًا » . قال ابن عطية : « وراءهم » هو عنده على بابيه ؛ وذلك

(١) راجع ج ٨ ص ١٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحدث المتقدم الموجود هو الأمام ، والذي يأتي بعده هو الراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادی الرأي ، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجددها تطرد ، فهذه الآية معناها : إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك ؛ ومن قرأ «أمامهم» أراد في المكان ، أى كأنهم يسيرون إلى بلد ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الصلاة أمامك <sup>(١)</sup> » يريد في المكان ، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان ؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ، ووقع لقتادة في كتاب الطبرى «وكان وراءهم ملك» قال قتادة : أمامهم ألا تراه يقول : «من وراءهم جهنم» وهى بين أيديهم ؛ وهذا القول غير مستقيم ، وهذه هى العجمة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضح منها ؛ قاله الزجاج .

قلت : وما آختره هذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك ابن عرفة ؛ قال الهروى قال ابن عرفة : يقول القائل كيف قال «من وراءه» وهى أمامه ؟ فزعم أبو عبيد وأبو على قُطِرَب أن هذا من الأضداد ، وأن وراء فى معنى قدام ، وهذا غير محصل ؛ لأن أمام ضد وراء ، وإنما يصلح هذا فى الأوقات ، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال : ومن وراءك شعبان لحاز وإن كان أمامه ، لأنه يخلفه إلى وقت وعده ؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيري وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك ؛ قال الفراء : وجوزه غيره ؛ والقوم ما كانوا عالمين بنحبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيب السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال الماوردى : اختلف أهل العربية فى استعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز استعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : «وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» أى من أمامهم : وقال الشاعر :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ تَمَّيْعِي وَطَاعَتِي \* وَقَوْمِي تَمَّيْعِي وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالمدلفة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمامى . والثانى — أن وراء تستعمل فى موضع أمام فى المواقيت والأزمان لأن الإنسان يُجسوزها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثالث — أنه يجوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها ؛ وهذا قول على بن عيسى . واختلف فى اسم هذا الملك فقيل : هُدَد بن بُدَد . وقيل : الجَلَنْدَى ؛ وقاله السهيلي . وذكر البخارى اسم الملك الآخذ لكل سفينة غضبا فقال : هو [ هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول ] اسمه جيسور ، وهكذا قيدناه فى « الجامع » من رواية يزيد المروزي ، وفى غير هذه الرواية جيسور بالخاء وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حيسون . وكان يأخذ كل سفينة جيدة غضبا فلذلك عابها الخضر وخرقها ؛ ففى هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها ، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه ، وقد تقدم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة بحرق السفينة وذلك قوله : فإذا جاء الذى يستخرها وجدها منخرقة فتجاوزها ، فأصاحوها بخشبة ؛ الحديث . وتحصل من هذا الحظ على الصبر فى الشدائد ، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد ، وهذا معنى قوله : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قوله تعالى : ( وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ) جاء فى صحيح الحديث : « أنه طبع يوم طبع كافرا » وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغاً ، وقد تقدم .

قوله تعالى : ( نَخْشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا ) قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام ، وهو الذى يشهد له سياق الكلام ، وهو قول كثير من المفسرين ؛ أى خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، وكان الله قد أباح له الاجتهاد فى قتل النفوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبر الخضر ؛ قال الطبرى : معناه فعلمنا ؛ وكذا قال ابن عباس أى فعلمنا ، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أبا قرأ « فَعَلِمَ رَبُّكَ » . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة ؛ يقال : فزقت بينهما خشية أن يقتلأ ؛ أى كراهة

ذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة ، أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين . وقرأ ابن مسعود « نخاف ربك » وهذا بين فى الاستعارة ، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترج وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون . و « يرهقهما » يحشمهما ويكلفهما ، والمعنى أن يلقيهما حبة فى أتباعه فيضلًا ويتديننا بدينه .

قوله تعالى : ﴿ فَارْدَنَا أَنْ يَبَدِّلَ رَحْمَةً ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال . وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال ؛ أى أن يرزقهما الله ولدا . ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أى دينا وصلاحا ؛ يقال : بطل وأبدل مثل مهمل وأمهمل ونزل وأنزل . ﴿ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ قرأ ابن عباس « رُحْمًا » بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جارية \* ومنها اللين والرحم

الباقون بسكونها ؛ ومنه قول رؤبة بن العجاج :

يا مُنْزِلَ الرَّحْمِ عَلَى إِدْرِيسَ \* وَمُنْزِلَ اللَّعْنِ عَلَى إِبْلِيسَ

وآختلف عن أبي عمرو . و « رحما » معطوف على « زكاة » أى رحمة ؛ يقال : رحمة ورحما ؛ وألفه للتأنيث ، ومذكرة رُحْم . وقيل : الرحم هنا بمعنى الرحيم ؛ قرأها ابن عباس « وَأَوْصَلَ رُحْمًا » أى رَحْمًا ، وقرأ أيضا « أَرْحَمِي » . وعن ابن جبير وابن جريح أنها بدلًا جارية ؛ قال الكلبي فترجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيًا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . قتادة : ولدت اثني عشر نبيًا . وعن ابن جريح أيضا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وعن ابن عباس : فولدت جارية ولدت نبيًا ؛ وفى رواية : أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبيًا ؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه ؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن فيهم ؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعًا من الأجداد ، ومن سلم للقضاء

أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين ولد وحزننا عليه حين قُتل ، ولو بقى كان فيه هلاكهما ، فالواجب على كل أمرئ الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتيم ، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : ” لا يَتُّمُّ بعد البلوغ “ هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتيم بعد البلوغ إن كانا يتيمين ، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم أن اليتيم في الناس من قبل فقد الأب ؛ وفي غيرهم من الحيوان من قبل فقد الأم . ودل قوله : « في المدينة » على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث ” أُسْرَتْ بقرية تأكل القرى “ وفي حديث الهجرة ” لمن أنت “ فقال الرجل : من أهل المدينة ؛ يعنى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ اختلف الناس في الكنز؛ فقال عكرمة وقاتدة : كان مالا جسيما وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول فيه . وقال ابن عباس : كان عليهما في صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى غفرة ، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنية . وقيل : هو الأب السابع ؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : العاشر تحفيظا فيه وإن لم يُذكر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشحا ؛ قاله مقاتل . وأسم أمهما دنيا ؛ ذكره النقاش . ففيه ما يدل على أن الله تعالى

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية . (٢) القرية هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدي أهلها من المدن ، ويصيبون من غنائمها . (٣) راجع ج ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٤) دنية : لحا ، وهو الأب الأقرب . (٥) في روح المعاني : دهن .

يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه . وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته ؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : « إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » يقتضى أن الخضر نبى ؛ وقد تقدم الخلاف في ذلك . « ذَلِكَ تَأْوِيلُ » أى تفسير . « مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » قرأت فرقة « تَسْطِعْ » . وقرأ الجمهور « تَسْطِعْ » قال أبو حاتم : كذا تقرأ كما في خط المصحف . وهنا خمس مسائل : الأولى — إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر في أول الآية ولا في آخرها ، قيل له : اختلف في ذلك ؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلد ، وأخذته العالم فطبق عليه سفينة ثم أرسله في البحر ، وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه . قال القشيري : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون ؛ فإن يوشع بن نون قد عمر بعد موسى وكان خليفته ؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر . وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون آكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانية — إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال في حرق السفينة : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريد . وقيل : لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصابة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما

قال تعالى : «يَدُكَ الْخَيْرُ» واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه ، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع ، إذ هو على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء خير . ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى وأستطعمتك فلم تطعمنى وأستسقيتك فلم تسقنى » فإن ذلك تنزل في الخطاب ، وتلطّف في العتاب ، مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال ، وبمقادير ثواب هذه الأعمال . وقد تقدّم هذا المعنى . والله تعالى أعلم . والله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء ، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة ، والأفعال الشريفة . جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا . وقال في الغلام : « فأردنا » فكأنه أضاف القتل إلى نفسه ، والتبديل إلى الله تعالى . والأشدّ كمال الخلق والعقل . وقد مضى الكلام فيه في « الأنعام » والحمد لله .<sup>(١)</sup>

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية ، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم . وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، فتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما آتفق للخضر ، فإنه أستغنى بما تجلى له من العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وقد جاء فيما ينقلون : آستفت قلبك وإن أفثاك المفتون . قال شيوخنا رضى الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، فإن الله تعالى قد أجرى سنته ، وأنفذ حكمته ، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسوله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه ، المبينون شرائعه وأحكامه ، اختارهم لذلك ، وخصهم بما هنالك ، كما قال تعالى : « اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعه أرنى أو ثانية .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» وقال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ »<sup>(١)</sup> وقال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يُعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر ، يُقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبى بعده ولا رسول . وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه ، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفث في روعي » الحديث .

الرابعة — ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : حتى لأنه شرب من عين الحياة ، وأنه باق في الأرض ، وأنه يحج البيت . قال ابن عطية : وقد أطنب النقاش في هذا المعنى ، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره ، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور ؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره . ومما يقضى بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام : « أرأيتمكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » .

قلت : إلى هذا ذهب البخاري وأختره القاضي أبو بكر بن العربي ، والصحيح القول الثاني وهو أنه حتى على ما ذكره . والحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أرأيتمكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد »

(١) في الأصل : « رسالاته » وهي قراءة نافع التي كان يقرأ بها المفسر .



قال ابن عمر : فوهل الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام : ” لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد “ يريد بذلك أن يخترم ذلك القرن . ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : ” تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة “ وفى أخرى قال سالم : تذاكرنا أنها ” هى مخلوقة يومئذ “ . وفى أخرى : ” ما من نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ “ . وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال : نقص العمر . وعن أبى سعيد الخدرى نحو هذا الحديث . قال علماؤنا : وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بنى آدم موجودا فى ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : ” ما من نفس منفوسة “ وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك ، ولا الحيوان غير العاقل ؛ لقوله : ” ممن هو على ظهر الأرض أحد “ وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل ، فتعين أن المراد بنو آدم . وقد بين ابن عمر هذا المعنى ؛ فقال : يريد بذلك أن يخترم ذلك القرن . ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول : إن الخضر حى لعموم قوله : ” ما من نفس منفوسة “ لأن العموم وإن كان مؤكدا الاستغراق فليس نصا فيه ، بل هو قابل للتخصيص ، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام ، فإنه لم يميت ولم يقتل فهو حى بنص القرآن ومعناه ، ولا يتناول الدجال مع أنه حى بدليل حديث الجساسة ، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهدا للناس ، ولا ممن يخاطبهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضا ، فمثل هذا العموم لا يتناوله . وقد قيل : إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى الشيء كضرب ؛ أى غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب ، والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهم غلطوا وذهب بهمهم إلى خلاف الصواب فى تأويل مقالة النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول : تقوم الساعة عند انقضاء مائة سنة ؛ فبين ابن عمر مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : يريد بذلك أن يخترم ذلك القرن . ويجوز وهل كتب . (٢) منفوسة : مولودة . (٣) الجساسة : دابة الأرض التى تخرج آخر الزمان ، وسميت جساسة لتجسسها الأخبار للدجال .

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تقدّم . وكذلك فتي موسى في قول ابن عباس  
 كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبي في كتاب « العرائس » له : والصحيح أن الخضر نبيٌّ مُعَمَّرٌ  
 محبوب عن الأَبصار ؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ ضمرة بن ربيعة ] عن عبد الله بن  
 [ شاذب ] قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس ، وإلياس من بنى إسرائيل يلتقيان كل  
 عام في الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر وإلياس لا يزالان حين في الأرض  
 مادام القرآن على الأرض ، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطى بن  
 محمود بن عبد المعطى النخعي في شرح الرسالة له للقسيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين  
 والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه ، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره  
 النقاش والثعلبي وغيرهما . وقد جاء في صحيح مسلم : « أن الدجال ينتهي إلى بعض السباح  
 التي تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس — أو — من خير الناس » الحديث ؛  
 وفي آخره قال أبو إسحق : يعني أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب  
 « الهواتف » بسند يوقفه إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه لقي الخضر وعلمه  
 هذا الدعاء ، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله في أثر كل صلاة ، وهو : يا من  
 لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ويا من لا يتبرم من إلحاح الملحين ، أذقني  
 برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الدعاء  
 بعينه نحو ما ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في سماعه من الخضر . وذكر  
 أيضا اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي  
 صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر ، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت في كل حول ،  
 وأنهما يقولان عند اقتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله  
 ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله ، حسبنا الله  
 ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس فيأتى في « والصفات » إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر

(١) الزيادة والتصويب من « عقد الجمان » للعبسي نقلًا عن الثعلبي . وفي الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل  
 عن عبد الله بن سوار » . (٢) في تفسير قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » آية ١٢٣

آبن عبد البر فى كتاب « التمهيد » عن على رضى الله تعالى عنه قال : لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم وسُجى بثوب هتف هائف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السلام عليكم أهل البيت ، « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » — الآية — إن فى الله خلفاً من كل هالك ، وعوضاً من كل تالف ، وعزاء من كل مصيبة ، فبالله فمفقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِّم الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليه الصلاة والسلام . يعنى أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام . والألف واللام فى قوله : ” على الأرض “ للعهد لا للجنس وهى أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالباً دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقصى جزر الهند والهند مما لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلم علمه . ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلي : واختلف فى اسم الخضر اختلافاً متبايناً ؛ فعن آبن منبه أنه قال : أبليل بن مذكأن بن فالغ بن شالح بن أرغشذ بن سام بن نوح . وقيل : هو آبن عاميل بن سماخين آبن أريابن علفما بن عيصو بن إسحق ، وأن أباه كان ملكاً ، وأن أمه كانت بنت فارس وأسماها ألى ، وأنها ولدته فى مغارة ، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية ، فأخذه الرجل فرباه ، فلما شب وطالب الملك — أبوه — كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التى أنزلت على إبراهيم وشيث ، كان ممن أقدم عليه من الكتاب آبنه الخضر وهو لا يعرفه ، فلما استحسن خطه ومعرفة ، وبجث عن جليلة أمره عرف أنه ابنه ، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ، ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حى إلى أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذى يقتله الدجال ويقطعه ثم يحياه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى : إنه مات قبل أنقضاء المائة ، من قوله عليه الصلاة والسلام : ” إلى رأس مائة عام لا يبق على هذه الأرض ممن هو عليها أحد “ يعنى من كان حياً حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه ، وبيننا حياة الخضر إلى الآن ، والله أعلم .  
الخامسة - قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني ؛ قال :  
كن بسّاماً ولا تكن صخّاكاً ، ودع اللّجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطّائين  
خطاياهم ، وآبك على خطيئتك يا ابن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ  
ذِكْرًا ﴿٨٦﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٧﴾  
فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ  
حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ  
وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٩﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ  
إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ  
جَزَاءٌ أَحْسَنُ وَسَنَنقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾  
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ  
مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٣﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : (( وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا )) قال ابن إسحق :  
وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره ، فهدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد  
إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يبطأ أرضاً إلا سلّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق  
والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدثني من يسوق الأحاديث  
عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان  
ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندر ،

وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليه . قال ابن إسحق : وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلابي — وكان خالد رجلا قد أدرك الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : ” ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب “ . وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا أما رضيتم أن تُسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال علي : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عبد ملك ( بكسر اللام ) صالح نصيح الله فأيدته . وقيل : هو نبي مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الدارقطني في كتاب الأخبار أن ملكا يقال له ربا قيل كان ينزل على ذى القرنين ، وذلك الملك هو الذى يطوى الأرض يوم القيامة ، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة<sup>(٢)</sup> ؛ فيما ذكر بعض أهل العلم . وقال السهيلي : وهذا مشا كل بتوكيله بذى القرنين الذى قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان في تسخير النار له مشا كلمة بحال الملك الموكل بها ، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبي خيثمة في كتاب البدء له خالد بن سنان العبسي وذكر نبوته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوته أن نارا يقال لها نار الحدنان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . واختلف في اسم ذى القرنين وفي السبب الذى سمي به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني ، وقد تشدد قافه فيقال : المقدوني . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب

(١) كذا في الأصل ، وفي قصص الأنبياء للعلبي « رافيل » وفي الدر المنثور « زرافيل » .

(٢) الساهرة : أرض يجتدها الله يوم القيامة .

ابن ذى القرنين الحيرى من ولد وائل بن حمير وقد تقدم قول ابن إسحق . وقال وهب بن منبه : هو رومى . وذكر الطبرى حديثا عن النبى عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم . وهو حديث واهى السند ؛ قاله ابن عطية . قال السهيلي : والظاهر من علم الأخبار أنهما آثنان : أحدهما — كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال : إنه الذى قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام . والآخر — أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام . وقيل : إنه أفريدون الذى قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغى على عهد إبراهيم عليه السلام ، أو قبله بزمان . وأما الاختلاف فى السبب الذى سُمى به ، فقيل : إنه كان ذا صفتين من شعر فسمى بهما ؛ ذكره الثعلبى وغيره . والصفائى قرون الرأس ؛ ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup> :

فَلْتَمِثْ فَاهَا أَخَذًا بِقُرُونِهَا \* شَرِبَ التَّرِيفَ يَبْرُدُ مَاءَ الْحَشْرِجِ

وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس ، فقص ذلك ، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس ، فسمى بذلك ذا القرنين . وقيل : إنما سُمى بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرنى الدنيا . وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمى بذلك ذا القرنين ؛ أو قرنى الشيطان بها . وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته . وسأل ابن الكواء عليا رضى الله تعالى عنه عن ذى القرنين أنيا كان أم ملكا ؟ فقال : لا إذا ولا إذا ، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنه ، ثم دعاهم فشجّوه على قرنه الآخر ، فسمى ذا القرنين . وأختلفوا أيضا فى وقت زمانه ، فقال قوم : كان بعد موسى . وقال قوم : كان فى الفترة بعد عيسى . وقيل : كان فى وقت إبراهيم وإسماعيل . وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم ؛ وقد ذكرناه فى « البقرة »<sup>(٢)</sup> . وبالجملة فإن الله تعالى مكنه وملكه ودانت له الملوك ، فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ؛ والزيف : المحموم الذى منع من الماء ، والسكران . والحشرج : النقرة فى الجبل

يجمع فيها الماء فيصفو ، والكوز الصغير اللطيف أيضا . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٨٩ طبعة أولى أورثانية .

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر ، والكافران نمرود وبختنصر ، وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهدي .  
وقد قيل : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه آنقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال علي رضي الله عنه : سخر له السحاب ، ومُدَّتْ له الأسباب ، وبُسِطَ له في النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفي حديث عقبة ابن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذى القرنين فقال : « إن أول أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فصار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه ملك فخرج به فقال له أنظر ما تحتك قال أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذي تراه محيطا بها هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فسر في الأرض فعلم الجاهل وثبت العالم » الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال ابن عباس : من كل شيء علمها يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء . ﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي « فَاتَّبَعَ سَبَبًا » مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « فَاتَّبَعَ سَبَبًا » بوصلها ؛ أي أتبع سببا من الأسباب التي أوتيتها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى ؛ مثل ردفته وأردفته ، ومنه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ » ومنه الإتياع في الكلام مثل حسن حسن وقبيح شقيح . قال النحاس : وأختار أبو عبيد قراءة

أهل الكوفة قال : لأنها من السير، وحكى هو والأصمعي أنه يقال : تبعه وأتبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد : ومثله « فأتبعوهم مشيرين » . قال النحاس : وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعسلة أو دليل . وقوله عن وجعل : « فأتبعوهم مشيرين » ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه أنطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع وأتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهى بمعنى السير، فقد يجوز أن يكون معه لحاق وألا يكون . « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » قرأ ابن عاصم وعامر وحمة والكسائي « حامية » أى حارة . الباقون « حمئة » أى كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء، تقول : حمأت البر حمأً (بالسكين) إذا نزلت حماتها . وحمئت البر حمأً (بالتحريك) كثرت حماتها . ويجوز أن تكون « حامية » من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة . وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : « نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض » . وقال ابن عباس : أقرأنيها أبي كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى عين حمئة » ؛ وقال معاوية : هى « حامية » فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين ؛ فجعلوا كعبا بينهم حكما وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا فى التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب فى عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تبع اليماني :  
قد كان ذو القرنين قبلى مساماً \* ملكاً تدين له الملوك وتسجد  
بلغ المغارب والمشارق يتنى \* أسباب أمر من حكيم مرشد  
فراى مغيب الشمس عند غروبها \* فى عين ذى خلب وثأط حرمد<sup>(١)</sup>

الخلب : الطين . والثأط : الحمأة . والخرمد : الأسود . وقال الثعلبى قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسمها ؛ لأنها تدور

(١) حرمد (بالفتح والكسر) بكسر ز و زجج .



مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض ، بل هي أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العماره من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدتها في رأى العين تغرب في عين حثة ، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ؛ ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم . وقال القتيبي : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها ، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ؛ والله أعلم . ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جابرئس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ، يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ؛ ذكره السهيلي . وقال وهب ابن منبه : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : يا ذا القرنين ! إني باعتك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف : أمتان بينهما طول الأرض كله ، وأمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ؛ وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فقال ذو القرنين : إلهي ! قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ؛ فأخبرني عن هذه الأمم بأى قوة أكثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم ؟ وبأى لسان أناطقهم ؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك ؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شيء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شيء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك ؛ فلما قيل له ذلك سار بمن آتبعه ، فأنطلق إلى الأمة التي عند مغرب الشمس ؛ لأنها

كانت أقرب الأمم منه وهى ناسك ، فوجد جموعا لا يخصصها إلا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله ، وألسنة مختلفة ، وأهواء متشتتة ، فكأثرهم بالظلمة ، فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان ، حتى جمعهم فى مكان واحد ، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصده عنه ، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان ، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كل مكان ، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا ، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنّا ، فكشفها عنهم ، وأخذهم عنوة ، ودخلوا فى دعوته ، فخذ من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جنودا واحدا ، ثم أنطلق بهم يقودهم ، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه ، والنور أمامهم يقوده ويدله ، وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التى فى قطر الأرض الأيمن وهى هاويل ، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا ، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها فى ساعة ، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم ، فإذا قطع البطار والأنهار فتّقها ودفّع إلى كل رجل لوحا فلا يكثر بجمله ، فأنتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فأمنوا ، ففرغ منهم ، وأخذ جيوشهم وأنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس ، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله فى الأولى ، ثم كرّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل ، وهى الأمة التى تقابل هاويل بينهما عرض الأرض ، ففعل فيها كفعله فيما قبلها ، ثم عطف إلى الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ، فلما كانت فى بعض الطريق ممّا إلى منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحسة من الإنس : يا ذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد ، وليس فيهم مشابة من الإنس ، وهم أشباه البهائم ، يأكلون العشب ، ويفترسون الدواب والوحش كما تفرسها السباع ، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذى روح ممّا خلق الله تعالى فى الأرض ، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم فى العام الواحد ، فإن طالت المسدة

فسيمائون الأرض ، ويجلون أهلها ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟  
وذكر الحديث ؛ وسيأتى من صفة أجوج وأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ ﴾ قال القشيري أبو نصر : إن كان نبيا فهو وحى ،  
وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى : ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾  
قال إبراهيم بن السمرى : خيره بين هذين كما خير محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فإن جاءوك  
فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزجاج : المعنى أن الله تعالى خيره  
بين هذين الحكيمين ؛ قال النحاس : ورد على بن سليمان عليه قوله ؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين  
نبي فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل : « ثم يرد إلى ربه » ؟ وكيف يقول : « فسوف  
نعذبه » فيخاطب بالنون ؟ قال : التقدير ؛ قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين . قال أبو جعفر  
النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء . أما قوله : « قلنا يا ذا القرنين »  
فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته ، ويجوز أن يكون قال له هذا  
كما قال لنبيه : « فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ » ، وأما إشكال « فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه »  
فإن تقديره أن الله تعالى لما خيره بين القتل فى قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ » وبين الاستبقاء  
فى قوله جل وعز : « وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » قال لأولئك القوم : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى أقام  
على الكفر منكم : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى بالقتل : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ أى يوم القيامة :  
﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴾ أى شديدا فى جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى تاب من الكفر : ﴿ وَعَمِلَ  
صَالِحًا ﴾ قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إما أن تعذب وإما أن تتخذ  
فيهم حسنا » قال : ولو رفعت كان صوابا بمعنى فلما هو ، كما قال :

فسيرا فلما حاجة تفضيها \* وإما مقيلا صالحا وصديق

﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » بالرفع على  
الابتداء أو بالاستقرار . و « الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة ؛  
أى له جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة ، كقوله :

« حَقُّ اليقين » ، « ولدأر الاخرة » ؛ قاله الفراء . ويحتمل أن يريد بـ « الحسنى » الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذى القرنين ؛ أى أعطيه وأفضل عليه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون « الحسنى » فى موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبى إسحق « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » منصوبا منونا ؛ أى فله الحسنى جزاءً . قال الفراء : « جزاءً » منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ؛ أى مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » منصوبا غير منون . وهى عند أبى حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » فى أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاء الحسنى .

قوله تعالى : « ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا » تقدم معناه أن أتبع وأتبع بمعنى ، أى سلك طريقا ومنازل . « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ » وقرأ مجاهد وآبن محيصن بفتح الميم واللام ؛ يقال : طَلَعَتِ الشَّمْسُ والكواكب طُلُوعًا ومَطْلَعًا . والمَطْلَعُ والمَطْلِعُ أيضا موضع طلوعها ؛ قاله الجوهري . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ، فهذا معنى قوله تعالى : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ » . وقد اختلف فيهم ؛ فعن وهب بن منبه ما تقدم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهى مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاويل ومنسك ؛ حفاة عرارة عمارة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، ويتهارجون تهارج الحجر . وقيل : هم أهل جَابَلْق ، وهم من نسل مؤمنى عاد الذين آمنوا بهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ . ووراء جَابَلْق أحم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يجاورون ياجوج وماجوج . وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ؛ مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه ،

ودعا الأعم الآخرين فلم يجيبوه؛ ذكره السهيلي وقال : أختصرت هذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه الطبري مسندا إلى مقاتل يرفعه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَمْ تَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس سترة؛ كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء، وهم يكونون فى أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معائشهم وحروشهم؛ يعنى لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . وقال أمية : وجدت رجالا بسمرقند يحدثون الناس، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقل لى : إن يلىك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبه يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس ؛ فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى على ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة القسطاط ، فلما ارتفعت أدخلونى سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم خرجوا يصطادون السمك ، فيطرحونه فى الشمس فينضج . وقال ابن جريج : جاءهم جيش مرة ، فقال لهم أهلها : لا تطلع الشمس وأنتم بها ، فقالوا : ما نبرح حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال : فولوا هاربين فى الأرض . وقال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، وكانت لا تجل البناء ، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا ، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من يدخل فى النهر ، ومنهم من يدخل فى السرب فلا تناقض بين قول الحسن و قتادة .

قوله تعالى : ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْنَدا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان . روى عطاء الخراساني عن ابن عباس : « بين السدين » الجبلين أرمينية وأذربيجان . ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أى من وراءهما : ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ . وقرأ حمزة والكسائي « يَفْقَهُونَ » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أى لا يفقهون غيرهم كلاما . الباقون بفتح الياء والقاف ، أى يعلمون . والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَبْنَدا الْقَرْنَيْنِ﴾ أى قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ . قال الأخفش : من همز « يَأْجُوج » بجعل الألفين من الأصل يقول : يَأْجُوجُ يَفْعُولُ وَمَأْجُوجُ مَفْعُولُ كأنه من أجيح النار . قال : ومن لا يهمز ويجعل الألفين زائدين يقول : « يَأْجُوج » من يَجِجَت وَمَأْجُوجُ من مَجِجَت وهما غير مصروفين ، قال رغبة : لو أن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مَعَا \* وَعَادَ عَادَ وَاسْتَجَاشَا تَبَعَا

ذكرة الجوهري . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما اسمان أعجميان ، مثل طالوت وجالوت  
غير مشتقين ؛ عليهما في منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب  
من **أَجَّ** و**أَجَّجَ** عليهما في منع الصرف التعريف والتأنيث . وقال أبو علي : يجوز أن يكونا  
عربيين ؛ فن همز « **يأجوج** » فهو على وزن يفعل مثل يربوع ، من قولك **أَجَّجَتِ النارُ** رأى  
ضوئها ، ومنه **الأجيج** ، ومنه ما ج **أجاج** ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلها  
ألها مثل **راس** ، وأما « **مأجوج** » فهو مفعول من **أَجَّ** ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق  
ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة ، ويجوز أن يكون فاعولا من **أَجَّ** ، وترك الصرف  
فيهما للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة . وأختلف في إفسادهم ؛ سعيد بن عبد العزيز :  
إفسادهم **أكل بنى آدم** . وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقعا ، أى سيفسدون ، فطلبوا  
وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والعنم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم  
من البشر ، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفاتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبوهريرة  
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس  
والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط  
والبربر والسودان** » . وقال كعب الأحبار : أحتمل آدم عليه السلام فاخطأ مأؤه بالتراب  
فأسف فخلقوا من ذلك المساء ، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم . وهذا  
فيه نظر ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، وكذلك قال  
مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يموت  
رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل** » . يعنى يأجوج ومأجوج . وقال أبو سعيد : هم  
خمسة وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج  
ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ، ذكره القشيري . وقال عبد الله بن مسعود :  
سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **يأجوج  
ومأجوج أمتان كل أمة أربع مائة ألف [أمة<sup>(١)</sup>] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل**

(١) الزيادة من الدر المنثور .

منهم حتى يولده ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح“ قيل : يا رسول الله صفهم لنا . قال : ” هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز <sup>(١)</sup> — شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحووا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يملكون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقصدتهم بالشام وساقطهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس “ . وقال على رضى الله تعالى عنه : وصنف منهم فى طول شبر ، لهم مخالب وأنياب السباع ، وتداعى الحمام ، وتسافد البهائم ، وعواء الذئاب ، وشعور تقيهم الحر والبرد ، وأذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها ، والأخرى جلدة يصيفون فيها ، يحفرون السد حتى كادوا يتقبونه فيه يسده الله كما كان ، فيقولون : نتقبه غدا إن شاء الله تعالى فيتقبونه ويخرجون ، ويتحصن الناس بالحصون ، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ما طخوا بالدم ، ثم يهلكهم الله تعالى بالنفخ في رقابهم . ذكره الغزنوى . وقال على عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده “ .

قلت : وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة ، أخرجه ابن ماجه فى السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيد الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال أرجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم — الذى أحفظ <sup>(٢)</sup> — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نفخاً فى أفقائهم فيقتلهم بها “ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم “ قال الجوهري

(١) الأرز: شجر الصنوبر . (٢) النفخ (بالتحريك) : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم واحداً نفقة .

(٣) ينشقون الماء : أى ينزحونه . (٤) هذا من كلام الراوى . (هاشمى ابن ماجه ) .



شَكَرَتِ النَّاقَةُ تَشْكُرُ شَكْرًا فَهِيَ شَكْرَةٌ ، وَأَشْكُرُ الضَّرْعَ أَمْتًا لَبَنًا . وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مَنْبِهٍ : رَأَيْتُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ ، وَطُولَ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مِثْلَ نِصْفِ الرَّجُلِ الْمَرْبُوعِ مَنًا ، لَهُمْ مَخَالِبٌ فِي مَوَاضِعِ الْأُظْفَارِ وَأَضْرَاسِ وَأَنْيَابِ كَالسَّبَاعِ ، وَأُحْنَاكَ كَأُحْنَاكَ الْإِبِلِ ، وَهُمْ هُلْبٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّعْرِ مَا يُوَارِيهِمْ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أُذُنَانِ عَظِيمَتَانِ ، يَلْتَحِفُ إِحْدَاهُمَا وَيَفْتَرِشُ الْأُخْرَى ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ عَرَفَ أَجْلَهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُخْرَجَ لَهُ مِنْ صَالِبِهِ أَلْفُ رَجُلٍ إِنْ كَانَ ذَكَرًا ، وَمِنْ رَحِمِهَا أَلْفُ أُنْثَى إِنْ كَانَتْ أُنْثَى . وَقَالَ السُّدَى وَالضَّحَّاكُ : التَّرْكُ شُرْذِمَةٌ مِنْ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ خَرَجَتْ تَغِيرُ ، بَغَاءُ ذُو الْقَرْنَيْنِ فَضَرَبَ السَّدَّ بَقِيَّتِ فِي هَذَا الْجَانِبِ . قَالَ السُّدَى : بَنَى السَّدَّ عَلَى إِحْدَى وَعِشْرِينَ قَبِيلَةً ، وَبَقِيَّتِ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ السَّدِّ فَهَمُّ التَّرْكِ . وَقَالَ قَتَادَةُ .

قُلْتُ : وَإِذَا كَانَ هَذَا ، فَقَدْ نَعِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّرْكُ كَمَا نَعِمَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ” لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التَّرْكَ قَوْمًا وَجُوهَهُمْ كَالْحِجَانِّ الْمُطْرَقَةِ يَلْبَسُونَ الشَّعْرَ وَيَمِشُونَ فِي الشَّعْرِ ” فِي رِوَايَةٍ ” يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ ” نَحْرَجُهُ مُسْلِمًا وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا . وَمَا عَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَّةَهُمْ وَكَثَرَتُهُمْ وَحِدَّةَ شَوْكَتِهِمْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ” أَتَرَكُوا التَّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ ” . وَقَدْ خَرَجَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتُ أُمَمٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ أَوْ مُقَدِّمَتُهُمْ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” يَنْزِلُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي بَغَائِطُ يَسْمُونَهُ الْبَصْرَةَ عِنْدَ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ دَجَلَةٌ يَكُونُ عَلَيْهِ جَسَرٌ يَكْثُرُ أَهْلُهَا وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمُهَاجِرِينَ — قَالَ ابْنُ أَبِي حَتْمٍ قَالَ أَبُو مَعْمَرٍ — وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ جَاءَ بَنُو قَنْطُورَاءَ عَرَّاضُ الْوُجُوهِ صَغَارُ الْأَعْيُنِ حَتَّى يَنْزِلُوا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ فَيَنْفَرِقُ أَهْلُهَا ثَلَاثَ فِرْقٍ فِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَالْبَرِيَّةِ وَهَالِكُوا وَفِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ لَأَنفُسِهِمْ وَكَفَرُوا وَفِرْقَةٌ يَجْعَلُونَ ذُرَارِيَهُمْ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وَيَقَاتِلُونَهُمْ وَهُمْ الشُّهَدَاءُ ” . الْغَائِطُ الْمَطْمُئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ . وَالْبَصْرَةُ الْحِجَارَةُ الرَّخْوَةُ وَبِهَا سَمِيَتِ الْبَصْرَةُ . وَبَنُو قَنْطُورَاءَ هُمُ التَّرْكُ . يُقَالُ : إِنْ قَنْطُورَاءَ أَسْمٌ جَارِيَةٌ كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلِدَتْ لَهُ أَوْلَادًا جَاءَ مِنْ نَسْلِهِمُ التَّرْكُ .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسئلتان : الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب . « خَرْجًا » أى جملاً . وقرئ « خراجا » والخرج أخص من الخراج . يقال : أَدَّ خَرْجَ رأسك وخَرْجَ مدينتك . وقال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ، ويقع على مال الفئ ، ويقع على الجزية ، وعلى الغلة . والخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال . والخرج المصدر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى ردماً ، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أى مرقع ، قاله الهروي . يقال : ردمت الثلمة أرديتها بالكسر ردماً أى سدتها . والردم أيضاً الاسم وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد إذ السد كل ما يسد به ، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقعته برفاع متكاثفة بعضها فوق بعض . ومنه قول عنترة :  
 \* هل غادر الشعراء من متردم \*  
 قول عنترة :

أى من قول يركب بعضه على بعض . وقرئ « سَدًّا » بالفتح في السين ، فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر . وقال الكسائي : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد . وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلقه الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا « سَدًّا » بالفتح ، وقبله « بين السُّدَيْنِ » بالضم ، وهى قراءة حمزة والكسائي . وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة . وقال ابن أبي إسحق : ما رأته عينك فهو سُد بالضم ، وما لا ترى فهو سَد بالفتح .

الثانية — فى هذه الآية دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجهون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله تعالى لى من القدرة والملك خير من خراجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان ، أى برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التى أبى بها الردم وهو السد . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة ، فإن القوم لو جمعوا له خراجا لم يعنه أحد واوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجل به وأسرع فى انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ما ذكره له على الخرج . وقرأ ابن كثير وحده « مَا مَكَّنِّي » بنونين . وقرأ الباقون « مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي » .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم ، وسد فرجهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التى تنى عليهم ، وحقوقهم التى تجمعها خزائنتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفدتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ، وذلك بثلاثة شروط : الأول — ألا يستأثر عليهم بشئ . الثانى — أن ييسد بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث — أن يسوى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فئت بعد هذا وبقيت صفرا فاطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصرف بتدبير ، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ، قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى اخدموا بأنفسكم معى ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا للضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، ويرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أعطونى زبرا الحديد وناولونيها . أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التى بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للتأولة ،

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج ، فلم يبق إلا استدعاء المناولة ، وأعمال الأبدان . « وَزُبَرَ الْحَدِيدِ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع ، ومنه زُبْرَةُ الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . وزبرت الكتاب أى كتبت وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ردما آيتوني » من الإتيان الذى هو المحيى ؛ أى جيئوني بزبر الحديد ، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر :<sup>(١)</sup>

\* أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ ... \*

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زَبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها ؛ وكل ذلك جمع زُبْرَةٌ وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى ﴾ يعنى البناء لحذف لقوة الكلام عليه . ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبى الجبل ، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس ؛ كأنه يعرض عن الآخر ؛ من الصدوف ؛ قال الشاعر :

كَلَّا الصَّدَفَيْنِ يَنْصَدِفُهُ سَنَاها \* تَوَقَّدُ مِثْلَ مِصْبَاحِ الظَّلَامِ

ويقال للبناء المرتفع صدف تشبيهه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيدة : الصدف والحدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصدفان الجبلان المتناوحيان ولا يقال للواحد صدف ، وإنما يقال صدفان للاتين ؛ لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحزمة والكسائى « الصَّدَفَيْنِ » بفتح الصاد وشدها وفتح الدال ، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز ، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصَّدَفَيْنِ » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصَّدَفَيْنِ » بضم الصاد وسكون الدال ، نحو الجُرْف والجُرْف . فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ » بفتح الصاد وسكون الدال ، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحيان .

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى . والبيت تمامه :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ \* فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

(٢) التناوح : التقابل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ﴾ إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحترق، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو الرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض ببعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن آستوى العمل فصار جبلا صليداً . قال قتادة : هو كالبرد المحترق، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يا رسول الله ! إني رأيت سدة يأجوج ومأجوج، قال : " كيف رأيته " قال : رأيته كالبرد المحترق، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد رأيته " . ومعنى « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أى كالنار . ومعنى ﴿ آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ أى أعطوني قطرا أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « آتُونِي » فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا . والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطَر؛ لأنه إذا أذيب قطرا كما يقطر الماء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهم ابن الأنبارى : الرصاص المذاب . وهو مشتق من قَطَرَ يَقْطُرُ قَطْرًا . ومنه « وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَعْنُ الْقِطْرِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما أستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلموه ويصعدوا فيه ؛ لأنه أعلس مستو مع الجبل والجبل عال لا يرام . وأرتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ ، وفى عرضه خمسون فرسخا ؛ قاله وهب بن منبه . ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لبعده عرضه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " وعقد وهب بن منبه بيده تسعين — وفى رواية — وحاق بإصبعه الإبهام التى تليها ؛ وذكر الحديث . وذكر يحيى بن سلام عن سعد بن أبى عمرو عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج

يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهينته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدم .

قوله تعالى : « فَاَسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هي لغة بمعنى أستطاعوا . وقيل : بل أستطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : أستطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : أستاع يستيع بمعنى أستطاع يستطيع ، وهي لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده « فَاَسْطَاعُوا » بتشديد الطاء كأنه أراد أستطاعوا ، ثم أدغم التاء في الطاء فشددتها ، وهي قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو علي : هي غير جائزة . وقرأ الأعمش « فَاَسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا » بالتاء في الموضعين .

قوله تعالى : « قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » القائل ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوة عليه ، والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج . وقرأ ابن أبي عبلة « هَذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » .

قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » أي يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم . « جَعَلَهُ دَكًّا » أي مستويا بالأرض ، ومنه قوله تعالى : « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن عرفة : أي جعلت مستوية لا أكمة فيها ، ومنه قوله تعالى : « جَعَلَهُ دَكًّا » قال الزيدى : أي مستويا ، يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها . وقال القتيبي : أي جعله مذكوكا ملصقا بالأرض . وقال الكلبي : قطعاً متكسراً ، قال :

هل غير غادٍ دَكٌّ غارا فأنهدم \*

(١) وقال النحاس : لا يقدر أحد أن ينفق بها ، لأن السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة ، وقال سيوطي :

وقال الأزهرى : يقال دككته أى دققته . ومن قرأ « دكَّاء » أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهى الرابية التى لا تباغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات . قرأ حمزة وعاصم والكسائى « دكاء » بالمد على التشبيه بالناقاة الدكاء، وهى التى لا سنام لها، وفى الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاء؛ ولا بد من تقدير هذا الحذف . لأن السند مذكور فلا يوصف بدكاء . ومن قرأ « دكَّا » فهو مصدر دكَّ يدك إذا هدم ورَضَّ؛ ويحتمل أن يكون « جعل » بمعنى خالق . وينصب « دكَّا » على الحال . وكذلك النصب أيضا فى قراءة من مدّ يحتمل الوجهين .

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ جَمْعُهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ الْحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرْكَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ الضمير في « تركا » لله تعالى ؛ أى تركا الحسن والإنس يوم القيامة يَمُوجُ بعضهم في بعض . وقيل : تركا يأجوج ومأجوج « يَوْمَئِذٍ » أى وقت كمال السد يَمُوجُ بعضهم في بعض . واستعارة المَوْج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض ، كالمولجين من همَّ وخوف ؛ فشبههم بموج البحر الذى يضطرب بعضه في بعض . وقيل : تركا يأجوج ومأجوج يوم أنفتح السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأبعدها آخرها ، وحسن الأول ؛ لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .  
قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ تقدم في « الأنعام » . ﴿ بِفَحْمِنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ يعنى الجن والإنس في عرصات القيامة . ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أى أبرزناها لهم . ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ . ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في موضع خفض نعت « للكافرين » . ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أى هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى ظن . وقرأ على وعكرمة ومجاهد وابن محيصن « أَفَحَسِبُ » بإسكان السين وضم الباء ؛ أى كفأهم . ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يعنى عيسى والملائكة وعزيرا . ﴿ مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءٍ ﴾ ولا أعاقبهم ؛ ففى الكلام حذف . وقال الزجاج : المعنى ؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزُنًا ﴾ فيه مسثلتان : الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ — الآية — فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه ، والذي يوجب إحباط السعى إما فساد الاعتقاد أو المراءاة ، والمواد هنا الكفر . روى البخارى عن مصعب قال :

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .



سألت أبى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً » أهم الحرورية ؟ قال : لا ؛ هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ ؛ أى قل لطولاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ؛ فهم الأخسرون أعمالاً ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة . وقال على : هم الخوارج أهل حروراء . وقال مرة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية : ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور ، وإنما هذه صفة مشركى مكة عبدة الأوثان ؛ وعلى وسعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالاً » نصب على التمييز . و « حبطت » قراءة الجمهور بكسر الباء . وقرأ ابن عباس « حبطت » بفتحها .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ قراءة الجمهور « نقيم » بنون العظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب ؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلا يقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة رأى ، وقد ثبت معناه مرفوعاً فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة آقرءوا إن شئتم » فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا « . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

كجبال تهامة فلا تزن شيئاً . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة ؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ ؛ والله أعلم . وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه ، لما في ذلك من تكلف المطاعم والأشتغال بها عن المكارم ، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين " . ومن حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرني ثم الذين يلونهم — قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة — ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن " وهذا ذم . وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشرب ، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها ، فهو عبد نفسه لا عبد ربه ، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام ، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » فإذا كان المؤمن يتشبه بهم ، ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانيته ، فإين حقيقة الإيمان ، والقيام بوظائف الإسلام ؟ ! ومن كثرة أكله وشربه كثرتهمه وحرصه ، وزاد بالليل كسله ونومه ، فكان نهاره هائماً ، وليله نائماً . وقد مضى في « الأعراف » هذا المعنى ؛ وتقدم فيها ذكر الميزان ، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حش ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : " تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض " فدل هذا على أن الأشخاص توزن ؛ ذكره الغزوي .

قوله تعالى : « ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ » إشارة إلى ترك الوزن ، وهو في موضع رفع بالابتداء « جزاؤهم » خبره و « جَهَنَّمَ » بدل من المبتدأ الذي هو « ذلك » و « ما » في قوله : « بِمَا كَفَرُوا » مصدرية ، والهزة الاستخفاف والسخرية ؛ وقد تقدم .

(١) راجع ج ٧ ص ١٩١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة

أولى أو ثانية . (٣) حش الساق : دقيقها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها . وقال أبو أمامة الباهلي : الفردوس سررة الجنة . وقال كعب : ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ؛ فيها الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهداً فى سبيل الله أو جالس فى أرضه التى ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : " إن فى الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية . الفراء : هو عربى . والفردوس حديقة فى الجنة . وفردوس اسم روضة دون التمامة . والجمع فراديس ، قال أمية بن أبى الصلت الثقفى :

كانت منازلم إذ ذاك ظاهرة \* فيها الفراديس والفومان والبصل

والفراديس موضع بالشام . وكرم مفردس أى معرّش . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى داعمين . ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى لا يطالبون تحويلاً عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو على . وقال الزجاج : حال من مكانه حِوَلًا كما يقال : عَظُمَ عِظًا . ويجوز أن يكون من الخيلة ، أى لا يحتالون منزلاً غيرها . قال الجوهري : التحول التثقل من موضع إلى موضع ، والاسم الحول ، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفسد الشيء إذا تم وفرغ ؛ وقد تقدّم . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أى زيادة على البحر عدداً أو وزناً . وفى مصحف أبى « مِدَادًا » وكذلك قرأها مجاهد وآبن محيصن وحמיד . وأنتصب « مدداً » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيت التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّي » أى مواضع ربى . وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات ، ولأنه ينوب منابها ، فخازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما ، وقال الأعشى :

ووجه نقي اللون صافٍ يزِينُهُ \* مع الجيّد لبّات لها ومعاصمُ

فعبّر باللّبات عن اللبة . وفى التنزيل « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » و « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » و « إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه ناب مناب أمة . وقيل : أى ما نفدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى . وقال السدى : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . ونظير هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » . وقرأ حمزة والكسائي « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بالياء لتقدم الفعل .

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ » أى لا أعلم إلا ما يعلمنى الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ » أى يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه « فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » قال ابن عباس : نزلت فى جندب بن زهير العامرى ، قال : يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا أطلع عليه سرّنى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه » فنزلت الآية . وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله ! إني أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني فنزلت

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أتصدق وأصل الرِّحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منى وأحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً ، فأُنزل الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدم في سورة « هود » حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس . وقد تقدم في سورة « النساء » الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية . وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » إنه لا يرأى بعمله أحدا . وروى الترمذى الحكيم رحمه الله تعالى في « نواذر الأصول » قال : حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا مكى بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نسي قال : أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي ، فقلت : ما الذى أبكك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، إذ رأيت بوجهه أمراً ساءنى فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : « أمراً أخوفه على أمتى من بعدى » قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « الشرك والشهوة الخفية » قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمرًا ولا حجراً ولا وثناً ولكنهم يراءون بأعمالهم » قلت : والرياء شرك هو ؟ قال : « نعم » . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : « يصبح أحدهم صاماً فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر » قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرنى عن الرياء أشرك هو ؟ قال : نعم ؛ أما تقرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . وروى إسماعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبى بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن أيث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

ابن أوس جالسين ، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية ، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالوا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يراى بها فقد أشرك ومن صام صياما يراى به فقد أشرك " ثم تلا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا ، وقد ذكرناه في « النساء »<sup>(١)</sup> . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تُكتم حسناتك ولا تحب أن تُكتم سيئاتك ، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعل ولا من صنيعة ، وتذكر قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » الآية ؛ يؤتون الإخلاص ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا ؛ قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضى الله تعالى عنهم : وقد يفضى الرياء بصاحبه إلى استمراء الناس به ؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم ؛ فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين . وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال وإلى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى نخفف ، فقيل له إنك خففت ؛ فقال : إنه لم يخالطها رياء ؛ بخلاف من تنقصهم بنفى الرياء عن نفسه ، والتصنع من صلاته ؛ وقد تقدم في « النساء »<sup>(٢)</sup> دواء الرياء من قول لقمان ؛ وأنه كتمان العمل . وروى الترمذى الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الجمانى قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن معقل بن يسار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك ، قال : " هو فيكم أخفى من ديب النمل " قال : (١) راجع ج ٥ ص ١٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وسأذلك على شىء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وبقاره تقول اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات . وقال عمر بن قيس الكندى سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ » فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوحى إلى أنه من قرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فليعمل عملاً صالحاً » رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له " . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء " وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أى ساعة شئت من الليل فاقراً إذا أخذت مضجعتك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل ؛ ذكر هذه الفضائل الثعالبى رضى الله تعالى عنه . وفى مسند الدرهمى أبى محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن عبدة عن زر بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فخر بناه فوجدناه كذلك . قال ابن العربى : كان شيخنا الطرطوشى الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان فى مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحدًا » .

## تفسير سورة مريم عليها السلام

وهى مكة بإجماع . وهى تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن نأركم بأرض الحبشة ، فاهربوا إلى النجاشى ، وأبعثوا إليه رجلاين من ذوى رأيكم لعله يعطيك من عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة صريم «كهيعص» وقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْطِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». وقرأ إلى قوله: «الشاهدين». ذكره أبو داود. وفي السيرة، فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال له النجاشي: اقرأه علي. قال: فقرأ «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم، فقال النجاشي: هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، أنطلقا فوالله لا أسلمهم إليك أبدا، وذكر تمام الخبر.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَنِدَاءٌ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾



قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٢﴾ يَٰيُحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَهَيْعَصَ ﴾ تقدم الكلام في أوائل السور . وقال ابن عباس في « كهيعص » : إن الكاف من كاف ، والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ؛ ذكره ابن عزيز القشيري عن ابن عباس ؛ معناه كاف لخلقه ، هاد لعباده ، يده فوق أيديهم ، عالم بهم ، صادق في وعده ؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد والضحاك . وقال الكلبي أيضا : الكاف من كريم وكبير وكاف ، والهاء من هاد ، والياء من رحيم ، والعين من عليم وعظيم ، والصاد من صادق ؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى ؛ وعن علي رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص أغفر لي ؛ ذكره الغزنوي . السدي : هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عنه . وقيل : هو اسم للسورة ؛ وهو اختيار القشيري في أوائل الحروف ؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهيعص » كأنه لإعلام باسم السورة ، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع في المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء ، وأبن عامر وحمة بالعكس ، وأمالها جميعا الكسائي وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف ، وحكى غيره أنه كان يضم ها ، وحكى إسماعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والهاء والياء ؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة (١) راجع ج ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في ها ويا . وأما قراءة الحسن فأشككت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بينه هرون القارئ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع؛ فمعنى هذا أنه كان يومئ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئ إلى الواو، ولهذا كتبها في المصحف بالواو . وأظهر الدال من هجاء « ص » نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد؛ وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً . إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال الفراء : هو مرفوع بـ « كهيص »؛ قال الزجاج : هذا محال؛ لأن « كهيص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا، وقد خبر الله تعالى عنه وعن ما بشر به، وليس « كهيص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذي يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك . وقيل : « ذكر رحمة ربك » رفع بإضمار مبتدأ؛ أي هذا ذكر رحمة ربك؛ وقرأ الحسن « ذِكْرَ رَحْمَةِ رَبِّكَ » أي هذا المتلوم من القرآن ذِكْرُ رحمة ربك . وقرئ « ذِكْرُ » على الأمر . « ورحمة » تكتب ويوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها، لا اختلاف فيها بين النحويين، واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش : هو منصوب بـ « رحمة » . « زكريا » بدل منه؛ كما تقول : هذا ذكر ضرب زيد عمرا؛ فعمرا منصوب بالضرب، كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذكر ربك عبده زكريا برحمة؛ فـ « عبده » منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء . وقرأ بعضهم « عَبْدُهُ زَكْرِياً » بالرفع؛ وهي قراءة أبي العالسة . وقرأ يحيى بن يعمر « ذَكَرَ » بالنصب على معنى هذا القرآن ذكر رحمة عبده زكريا . وتقدمت اللغات والقراءة في « زكريا » في « آل عمران »<sup>(١)</sup> .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مثل قوله: «أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» وقد تقدّم<sup>(١)</sup> . والنداء الدعاء والرغبة؛ أى ناجى ربه بذلك فى محرابه . دليله قوله: «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ» فبين أنه استجاب له فى صلاته، كما نادى فى الصلاة . واختلف فى إخفائه هذا النداء؛ فقليل: أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أمر دنيوى، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل: مخلصا فيه لم يطاع عليه إلا الله تعالى . وقيل: لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل: «خَفِيًّا» سرا من قومه فى جوف الليل؛ والكل محتمل والأول أظهر؛ والله أعلم . وقد تقدّم أن المستحب من الدعاء الإخفاء فى سورة «الأعراف»<sup>(٢)</sup> وهذه الآية نص فى ذلك؛ لأنه سبحانه أشنى بذلك على زكريا . وروى إسماعيل قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ابن أبى كبشة عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى» وهذا عام . قال يونس بن عبيد: كان الحسن يرى أن يدعو الإمام فى القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» . قال ابن العربى: وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعى، والجهر به أفضل؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا .

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ» قرئ «وَهَنَ» بالحرركات الثلاث أى ضعف . يقال: وَهَنَ يَبْنُ وَهْنًا إذا ضعف فهو وَهَنٌ . وقال أبو زيد يقال: وَهَنَ يَبْنُ وَهْنًا وَهْنًا . وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

منه . و وحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجندية ، وقصده إلى أن هذا الجندس الذى هو العمود والقوام ، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أدغم السين فى الشين أبو عمرو . وهذا من أحسن الاستعارة فى كلام العرب . والاشتغال انتشار شعاع النار ، شبه به انتشار الشيب فى الرأس ، يقول : شخت وضعفت ، وأضاف الاشتغال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . ولم يضاف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيبا » فى نصبه وجهان : أحدهما — أنه مصدر لأن معنى اشتغل شاب ، وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثة — قال العلماء : يستحب للراء أن يذكر فى دعائه نعم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ، لأن قوله تعالى : « وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » إظهار للخضوع . وقوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » إظهار لعادات تفضله فى إجابته أدعيته ، أى لم أكن بدعائى إياك شقيا ، أى لم تكن تخيب دعائى إذا دعوتك ، أى إنك عودتنى الإجابة فيما مضى . يقال : شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن محتاجا سألوه وقال : أنا الذى أحسنت إليه فى وقت كذا ، فقال : مرحبا بمن توسل بنا إليك ، وقضى حاجته .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ » قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على وابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ويحيى بن يعمر « خَفَّتِ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من « الموالى » لأنه فى موضع رفع « بخفت » ومعناه انقطعت بالموت . وقرأ الباقر « خِفْتُ » بكسر الخاء وسكون الفاء وضم التاء ونصب الياء من « الْمَوَالِيَ » لأنه

فى موضع نصب بـ «خفت» . و «المولى» هنا الأقارب وبنو العم والعصبة الذين يلونه فى النسب . والعرب تسمى بنى العم المولى؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

مَهْلًا بَنَى عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا \* لَا تَنْهَشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلاله فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين نخاف بموته أن يضيع الدين ، فطاب وليا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يسئل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تُورث . وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" وفى كتاب أبى داود : "إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم" . وسيأتى فى هذا مزيد بيان عند قوله : «يرثنى» .

الثانية — هذا الحديث يدخل فى التفسير المسند؛ لقوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وعبرة عن قول زكريا : «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» وتخصيص للعموم فى ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالا خلافة داود بعده؛ وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلا ما روى عن الحسن أنه قال : «يرثنى» مالا «ويرث من آل يعقوب» النبوة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مہجور؛ قاله أبو عمر . قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال؛ ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم؛ فتأمل . والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة . ألا ترى أنه لما طلب وليا ولم يخص ولدا بلغه الله تعالى أمره على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة .

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لہب؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿مَنْ وَرَأَى﴾ قرأ ابن كثير بالمد والهمز وفتح الياء . وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصاى . الباقيون بالهمز والمد وسكون الياء . والقراء على قراءة «خفت» مثل نمت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهى قراءة شاذة بعيدة جدا ؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالى مِنْ بعدى أى من بعد موتى وهو حى ؟ ! . النحاس : والتأويل لها ألا يعنى بقوله : « من ورأى » أى من بعد موتى ، ولكن من ورأى فى ذلك الوقت ؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا فى ذلك الوقت وقلّوا ، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : « أيهم يكفل مريم » . ابن عطية : « من ورأى » من بعدى فى الزمن ، فهو الراء على ما تقدّم فى « الكهف »<sup>(١)</sup> .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَكَاَنَتِ آمْرًا لِّيَ عَاقِرًا﴾ أمرأته هى إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل ، وهى أخت حنة بنت فاقوذا ؛ قاله الطبرى . وحنة هى أم مريم حسب ما تقدم فى « آل عمران »<sup>(٢)</sup> بيانه . وقال القتبى : امرأة زكريا هى إيشاع بنت عمران ، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفى حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : « فلقيت آبنى الخالة يحيى وعيسى »<sup>(٣)</sup> شاهدا للقول الأول . والله أعلم . والعاقرة التى لا تلد لكبر سنها ، وقد مضى بيانه فى « آل عمران » . والعاقرة من النساء أيضا التى لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعالى : « وَيَجْعَلُ مِنْ يَتَاءٍ عَقِيًّا » . وكذلك العاقرة من الرجال ؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً \* جباناً فإِ عُدْرِي لَدَى كُلِّ مُحَضَّرٍ

الخامسة — قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء . ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة ؛ وهو أشبه ؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره ؛ ولذلك قال : « وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » . وقالت طائفة : بل طلب الولد ،

(١) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٤ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) المراد بالقول الأول هنا قول القتبى . (٤) راجع ج ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ثم طاب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه ، تحفظاً من أن تقع الإجابة في الولد ولكن يُحْتَرَم ، ولا يتحصل منه الغرض .

السادسة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام في الولد إنما كان لإظهار دينه ، وإحياء نبوته ، ومضاعفة لأجره لا الدنيا ، وكان ربه قد عوده الإجابة ، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » ، أى بدعائى إياك . وهذه وسيلة حسنة ؛ أن يتشفع إليه بنعمه ، يستدر فضله بفضله ؛ روى أن حاتم الجلود لقيه رجل فسأله ؛ فقال له حاتم : من أنت ؟ قال : أنا الذى أحسنت إليه عام أول ؛ فقال : مرحباً بمن تشفع إلينا بنا . فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسألة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجواب أن ذلك جائز في زمان الأنبياء . وفي القرآن ما يكشف عن هذا المعنى ؛ فإنه تعالى قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلما رأى خارق العادة استحکم طمعه في إجابة دعوته ؛ فقال تعالى : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد ، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد ، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك ؛ فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم في « آل عمران » بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة ، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة . وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : « اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ وَوَلَدُهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ » فدعا له بالبركة تحرزاً مما يؤدى إليه الإكثار من الهلكة . وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده ، ونجاته في أولاده وأخراه اقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء ؛ وقد تقدم في « آل عمران »<sup>(٢)</sup> بيانه .

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَآجَعَلَهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَرِثُنِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة « يَرِثُنِي وَيَرِثُ » بالرفع فيهما . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما ، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيبويه ، إنما تقديره إن تمبه يرثي ويرث ، والأول أصوب في المعنى لأنه طلب وارثا موصوفاً أى هب لي من لدنك الولي الذي هذه حاله وصفته ، لأن الأولياء منهم من لا يرث ، فقال : هب لي الذي يكون وارثي ، قاله أبو عبيد ، ورد قراءة الجزم ، قال : لأن معناه إن وهبت ورث ، وكيف ينجر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه ؟ ! النحاس : وهذه حجة متقصة ، لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطلع الله يدخلك الجنة ، أى إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانية — قال النحاس : فأما معنى « يرثني ويرث من آل يعقوب » فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة ، قيل : هي وراثه نبوة . وقيل : هي وراثه حكمة ، وقيل : هي وراثه مال . فأما قولهم وراثه نبوة فبحال ، لأن النبوة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبي مرسل . ووراثه العلم والحكمة مذهب حسن ، وفي الحديث « العلماء ورثة الأنبياء » . وأما وراثه المال فلا يمتنع ، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ما تركنا صدقة » فهذا لا حجة فيه ، لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يؤول هذا بمعنى : لا تورث الذي تركناه صدقة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخلف شيئا يورث عنه ، وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا ، فإن قيل : ففي بعض الروايات « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة » ففيه التأويلان جميعا ، أن يكون « ما » بمعنى الذي . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : « لا نورث ما تركنا صدقة » على قولين : أحدهما — وهو



الأكثر وعاليه الجمهور — أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة . والآخر — أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورث ؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته ، كما خُصَّ في النكاح بأشياء أباحها له وحرّمها على غيره ؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَيَّة ، وسائر علماء المسلمين على القول الأول .

الثالثة — قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » قيل : هو يعقوب إسرائيل ، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران ، ويرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب ، وزكريا من ولد هرون أخى موسى ، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب ، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحاق . وقيل : المعنى بـيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبى مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام ؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان ، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل ؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله ، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فيهم الملك ، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أخى موسى . وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يرحم الله — تعالى — زكريا ما كان عليه من ورثته » . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمي .

الرابعة — قوله تعالى : « وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيا في أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قوله تعالى : « يَا زَكَرِيَّا » في الكلام حذف ؛ أى فاستجاب الله دعاءه فقال : « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى » فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها — إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى — إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث — أن يفرد بتسميته ؛ وقد تقدم معنى تسميته في « آل عمران » . وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حيّ بين أب شيخ وأم عجوز ؛ وهذا فيه نظر ؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيلا لا تلد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أى لم نسمّ أحدا قبل يحيى بهذا الاسم ؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدى . ومنّ عليه تعالى بأن لم يكلّ تسميته إلى الأبوين . وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا ، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المساماة والسموّ ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى ؛ اللهم إلا أن يفضل في خاص كالسودد والحصر حسب ما تقدم بيانه « في آل عمران » . وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القبل ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسماء السنية جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى في التسمية لكونها أنبىه وأزله عن النبز حتى قال قائل :

سَنَّ الْأَسْمَاءُ مُسْبِلِيَّ أَرْزُ \* حُرِّ تَمَسُّ الْأَرْضَ بِالْهُدْبِ

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سألته عن نسبه : أنا ابن العجاج ؛ فقال : قَصَّرت وعَسَّفت .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ليس على الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقيل : غير هذا ما تقدم في « آل عمران » بيانه . ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يعنى النهاية في الكبر واليبس والجفاف ؛ ومثله العُسي ؛ قال الأصمعي : عَسَا الشَّيْءُ يَعْسُو عُسْوًا وَعَسَاءَ ممدود أى يابس وصلب ، وقد عسا الشيخ يَعْسُو عُسِيًّا وَلَّى وكبر مثل عتأ ؛ يقال : عَتَا الشيخُ يَعْتُو عَتِيًّا وَعَتِيًّا كبر وولَّى ، وعَتوت يا فلان تعتو عتوا وعَتِيًّا . والأصل عَتُو لأنه من ذوات الواو ، فأبدلوا من الواو ياء ؛ لأنها أختها وهى أخف منها ، والآيات على الياءات ، ومن قال : « عِتِيًّا » كره الضمة مع الكسرة والياء ؛ وقال الشاعر :

إِنَّمَا يُعَذِّرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُعِ \* نَذِرُ مَنْ كَانَ فِي الزَّمَانِ عِتِيًّا

وقرأ ابن عباس «عُسيًا» وهو كذلك في مصحف أبى . وقرأ يحيى بن وثاب وحزرة والكسائى وحفص «عَنيَا» بكسر العين وكذلك «يَحْشِيَا» و «صَلِيَا» حيث كن . وضم حفص «بُجَيَّا» خاصة ، وكذلك الباقيون في الجميع ، وهما لغتان . وقيل : «عَنيَا» قَسيًا ؛ يقال : ملك عات إذا كان قاسى القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أى قال له الملك « كذلك قال ربك » والكاف في موضع رفع ؛ أى الأمر كذلك ؛ أى كما قيل لك : « هو على هين » . قال الفراء : خلقه على هين . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل يحيى . وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « وَقَدْ خَلَقْنَاكَ » بنون وألف بالجمع على التعظيم . والقراءة الأولى أشبه بالسواد . ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئًا موجودًا ، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة لإياه ، وبعد قوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » زيادة طمأنينة ؛ أى تتم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى منه يحيى لا من الشيطان ؛ لأن إبليس أوهمه ذلك . قاله الضحاك وهو معنى قول السدى ؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدم فى « آل عمران » . ﴿ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدم فى « آل عمران »<sup>(١)</sup> بيانه فلا معنى للإعادة . قوله تعالى : ﴿ نَخْرِجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نَخْرِجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحَرَابِ » أى أشرف عليهم من المصلى . والمحراب أرفع المواضع ، وأشرف المجالس ، وكانوا يتخذون المحاريب فيما أرتفع من الأرض ؛ دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتى . وأختلف الناس فى اشتقاقه ؛ فقالت فرقة :

(١) راجع ج ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبة أولى أو ثانية .

هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات ، وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحرب ( بفتح الراء ) كأن ملازمه يلقي منه حربا وتعبا ونصبا .

الثانية — هذه الآية تدل على أن ارتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعا عندهم في صلاتهم . وقد اختلف في هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصة المنبر . ومنع مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير ، وعلل أصحابه المنع بخوف الكبر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر ، وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أم الناس بالمدائن على دكان ، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجذبته ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هذا — أو — ينهى عن ذلك ! قال : بلى ، قد ذكرت حين مددتى . وروى أيضا عن عدى بن ثابت الأنصاري قال : حدثني رجل أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدائن ، فأقيمت الصلاة فتقدم عمار بن ياسر ، وقام على دكان يصل والناس أسفل منه ، فتقدم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة ، فلما فرغ عمار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إذا أمَّ الرجلُ القوم فلا يقم في مكان أرفع من مقامهم “ أو نحو ذلك ، فقال عمار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدي .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك ، ولم يحتاج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . ومما يدل على نسخه أن فيه عملا زائدا في الصلاة ، وهو النزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما أعترض به أصحابنا من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوما من الكبر ، لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا كبر عندهم . ومنهم من علل بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا ، والله أعلم .

قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبي وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار . القتبي : أو ما . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب في كتاب . والوحى في كلام العرب الكتابة ، ومنه قول ذي الرمة :

سوى الأربع الدُّهُم اللواتى كأنها \* بَقِيَّةُ وَحْيٍ فِي بُطُونِ الصَّحَافِ

وقال عَنَتْرَة :

كُوْحِي صَحَافٍ مِنْ عَهْدِ كَسْرَى \* فَأَهْدَاهَا لِأَعْجَمِ طُمُطُمِي<sup>(١)</sup>

و « بكرة وعشيا » ظرفان . وزعم الفراء أن العشى يؤنث ويحوز تذكره إذا أبهمت ؛ قال :  
وقد يكون العشى جمع عشية .

الرابعة — قد تقدّم الحكم في الإشارة في « آل عمران » . واختلف علماءنا فيمن حلف ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا ، أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوى مشافهته ، ثم رجع فقال : لا ينوى في الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله . قال ابن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الخالف كتاب المحلوف عليه . وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الخالف ؛ وهذا يبين ؛ لأنه لم يكلمه ولا ابتدأه بكلام ، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليه يخرج قول ابن القاسم . فإن حلف ليكلمنه لم يبر إلا بمشافهته ؛ وقال ابن الماجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلمنّه أو ليُخبرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولا برّ ، ولو علماه جميعا لم يبر ، حتى يُعلميه لأن علمهما مختلف .

الخامسة — وأنفق مالك والشافعي والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه ؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أُصِيت أيا ما فكتب لم يحز من ذلك شيء . قال الطحاوى : الأخرس مخالف للصمت العارض ، كما أن العجيز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوما أو نحوه مخالف للعجز المأبوس منه الجماع ، نحو الجنون في باب خيار المرأة في الفرقة . قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ في الكلام حذف ؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . وهذا اختصار يدل الكلام عليه . و « الكتاب » التوراة بلا خلاف . « بقوة » أى بجهد واجتهاد ؛ قاله مجاهد . وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكف عن نواهيه ؛ قاله زيد بن أسلم ؛ وقد تقدّم

(١) الطمطمى : الأعجم الذى لا يفصح . (٢) راجع ج ٤ ص ٨١ طبعة أول أو ثانية .

(١) في « البقرة » . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قيل : الأحكام والمعرفة بها . وروى معمر أن الصبيان قالوا ليحيى : أذهب بنا نلعب ؟ فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال قتادة : كان ابن ستين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . و « صبيًا » نصب على الحال . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيًا . وروى في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » . وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ولا هم بامرأة . وقال مجاهد : وكان طعام يحيى عليه السلام العشب ، وكان للدمع في خديه مجار ثابتة . وقد مضى الكلام في معنى قوله : « وَسَيِّدًا وَحَصُورًا » في « آل عمران » .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا » « حنانا » عطف على « الحكم » . وروى عن ابن عباس أنه قال : والله ما أدري ما « الحنان » ؟ . وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة ؛ وهو فعل من أفعال النفس . النحاس : وفي معنى الحنان عن ابن عباس قولان : أحدهما — قال : تعطف الله عز وجل عليه بالرحمة . والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك . وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : حنانيك تشية الحنان . وقال أبو عبيدة : والعرب تقول :

حنانك يا رب وحنانيك يا رب بمعنى واحد ؛ تريد رحمتك . وقال امرؤ القيس :

(٣) وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمَّجَى بْنِ جَرِّمٍ \* مَعِيْزَهُمْ حَنَانُكَ ذَا الْحَنَانِ

وقال طرفة :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَأَسْتَبْقِي بَعْضَنَا \* حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَى مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشري : « حنانا » رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة ؛ وأنشد سيبويه :

فَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هَاهُنَا \* أَذْوَ تَسِيْبُ أُمَّ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفٌ

(١) راجع ج ١ ص ٣٧ طبعة أولى أو ثمانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثمانية .

(٣) (حنانك ذا الحنان) معناه : رحمتك يا رحمن .

قال ابن الأعرابي : الحنان من صفة الله تعالى مشدداً الرحيم . والحنان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور فى ذات الله تعالى ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نقييل فى حديث بلال : والله لئن قتلتهم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً ؛ وذكر هذا الخبر الهروى ؛ فقال : وفى حديث بلال ومروءة بن نوفل وهو يعذب فقال : والله لئن قتلتهم لأتخذنه حناناً ؛ أى لأتمسحن به . وقال الأزهري : معناه لأتعطفن عليه ولأترحن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف ، وكذا قال مجاهد . و « حنانا » أى تعطفنا منا عليه أو منه على الخلق ؛ قال الخطيب :

تَحَنَّنْ عَلَى هَذَاكَ الْمَلِيكَ \* فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

عكرمة : محبة . وحننة الرجل أمرأته لتوادهما ؛ قال الشاعر :

فَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هَاهُنَا \* أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاتٌ ﴾ « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر ؛ أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناؤه بحسن الشئاء عليه كما تركى اليهود إنسانا . وقيل : « زكاة » صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لله تعالى ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلْمَ بها .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البر . و ﴿ جَبَّارًا ﴾ متكبرا . وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبرى وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان ؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإئتما الشرف فى أن سلم الله عليه ، وحياءه فى المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن ، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة « سبحان »<sup>(١)</sup>  
عند قتل يحيى . وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى النقيان — وهما أبنا الخالة — فقال  
يحيى لعيسى : ادع الله لي فأنت خير مني ؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لي فأنت خير مني ؛  
سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي ؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسلم فضل عيسى ؛  
بأن قال : إيداله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي أقتضت ذلك حين قرر وحكى  
في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه . قال ابن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ۖ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝٢١ فَحَمَلَتْهُ فَاتَّيَبَتْ بِهِ ۖ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهَرَبِيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝٢٦**



قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ القصصة إلى آخرها . هذا ابتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا . ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ أى تحت وتباعدت . والنبد الطرح والرمى ؛ قال الله تعالى : «فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» . ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أى ممن كان معها . و «إذ» بدل من «مريم» بدل اشتغال ؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والانتباذ الاعتزال والانفراد . وأختلف الناس لم انتبذت ؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله ؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتمتحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرفيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام . فقلوه : ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى مكانا من جانب الشرق . والشرق يسكون الرء المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشرق بفتح الرء الشمس . وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبرى . وحكى عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله عز وجل : «إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا» فَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِبْلَةً ؛ وقالوا : لو كان شىء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه . وأختلف الناس فى نبوة مريم ؛ فقيل : كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة لذلك . وقيل : لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر ، ورؤيتها للملك كما رأى جبريل فى صفة دحية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى مستوفى فى «آل عمران» والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فركب الروح فى جسد عيسى عليه السلام الذى خلقه فى بطنها . وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

السلام ؛ لقوله : ﴿ قَتَمَثَلَهَا ﴾ أى تمثل الملك لها . ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال . ﴿ سَوِيًّا ﴾ أى مستوى الخلقة ؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل فى صورته . ولما رأت رجلاً حسن الصورة فى صورة البشر قد حرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء . ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أى من يتقى الله . البكالى : فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . الشعلي : كان رجلاً صالحاً فتعودت به تعجبا . وقيل : تقى فعيل بمعنى مفعول أى كنت ممن يتقى منه . فى البخارى قال أبو وائل : علمت مريم أن التقى ذو نهيية حين قالت : « إن كنت تقياً » . وقيل : تقى اسم فاجر معروف فى ذلك الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكى وغيره . ابن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص . فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « لِيَهَبَ لَكِ » على معنى أرساني الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالهمز محمول على المعنى ؛ أى قال : أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة . فلما سمعت مريم ذلك من قوله آستفهمت عن طريقه . ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أى بنكاح . ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى زانية . وذكرت هذا تأكيداً ؛ لأن قولها لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما آستبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج فى المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ وروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ فى جيب درعها وكماها ؛ قاله ابن جريج . ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدن قيصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . قال الطبرى : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وأن عيسى عاش إلى أن رفع آثنتين وثلاثين سنة وأياماً ، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين ، فكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة . وقوله : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّهَا » متعلق بمحذوف ؛ أى ونخلقه لنجعلها : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مقدراً فى اللوح مسطوراً .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْتَبَذْتُ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى تحت بالجمل إلى مكان بعيد ؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال ؛ وإنما بعدت فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباز عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ « أجاها » اضطربها ؛ وهو تعذية جاء بالهمز . يقال : جاء به وأجاها إلى موضع كذا ، كما يقال : ذهب به وأذهب . وقرأ شذيل ورويت عن عاصم « فاجأها » من المفاجأة . وفى مصحف أبى « فلمسا أجاها المخاض » . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ مَعْتَمِدًا إِلَيْنَا \* أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ

وقرأ الجمهور « المخاض » بفتح الميم . وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها . تَخَضَّتْ المرأة تَمَخَضَ تَخَاضًا وَخَاضًا . وناقاة ماخض أى دنا ولادها . « إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ » كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به ، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن ؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ تمنى مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثانى — لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحد يكون تمنى الموت جائزا ، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « يوسف »<sup>(١)</sup> عليه السلام . والحمد لله .

قلت : وقد سمعت أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : أخرج يا من يُعبد من دون الله فخرنت لذلك ، و﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ . الذى فى كلام العرب الشئ الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للسافر ونحوه .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : أحفظوا أنساءكم ؛ الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقير يغفل فينسى . ومنه قول الكميت رضى الله تعالى عنه :

أَتَجْعَلُنَا جِسْرًا لِكَلْبٍ قُضَاعَةٌ \* وَلَسْتُ بِنِسِيٍّ فِي مَعَدٍّ وَلَا دَخَلٍ

وقال الفراء : النسي ما تلقى به المرأة من نحرٍ أعتلها ؛ فقول مريم : « نسيا منسيا » أى حيضة ملقاة . وقرئ « نَسِيًّا » بفتح النون وهما لغتان مثل الحجر والحجر والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرطبي بالهمز « نَسْنًا » بكسر النون . وقرأ نوف البكالى « نَسْنًا » بفتح النون من نساء الله تعالى فى أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والدانى عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسًا » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبرى فى قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها يمي ، بخاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بمجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدى فذلك قوله : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحُصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بنى إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها فى المسجد وطول فى ذلك . قال الكلبي : قيل ليوسف — وكانت سميت له أنها حملت من الزنى — فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهم فى الطريق يقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضى أنها حملت ، واستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر . قاله عكرمة ؛ ولذلك قيل : لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى . وقيل : ولدته لتسعة . وقيل : لسته . وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَادَّأَهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قرئ بفتح الميم وكسر ها . قال ابن عباس : المراد بـ « من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله فيها مراد عظيم . وقوله :

﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ تفسير النداء ، « وَأَنْتَ » مفسرة بمعنى أى ؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك .  
 ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سِرِّيًّا ﴾ يعنى عيسى . والسرى من الرجال العظيم الخصال السيد . قال  
 الحسن : كان والله سرياً من الرجال . ويقال : سرى فلان على فلان أى تكرم . وفلان  
 سرى من قوم سرّاة . وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة .  
 قال ابن عباس : كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سرياً  
 لأن الماء يسرى فيه ؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَزْوَراً \* إِذَا يَعْْبُ فِي السَّرِيِّ هَرَهراً<sup>(١)</sup>

وقال ليبيد :

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعَا \* مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قَلَامَهَا<sup>(٢)</sup>

وقيل : ناداها عيسى ، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلباها ، والأول أظهر . وقرأ ابن عباس  
 « فناداهما ملك من تحتها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من  
 البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا . فَكُلْ وَاشْرَبْ  
 وَاقْرَأْ عَيْنًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَهَزَى » أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء  
 موات الجذع . والباء فى قوله : « يجذع » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزام ، وأعط بيدك ؛  
 قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سببا . وقيل : المعنى ؛ وهزى إليك  
 رطبا على جذع النخلة . « وَتَسَاقِطُ » أى تتساقط فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة « تَسَاقِطُ »  
 مخففا مخففا التى أدغمها غيره . وقرأ عاصم فى رواية حفص « تُسَاقِطُ » بضم التاء مخففا  
 وكسر القاف . وقرئ « تَتَسَاقِطُ » بإظهار التاءين و « يُسَاقِطُ » بالياء وإدغام التاء « وَتُسْقِطُ »

(١) السلم : الدلو التى لها عروة واحدة كدلو السقائين . والدالى : المستقى بالدلو . والهرهرة : صوت الماء  
 إذا جرى . (٢) أى شق العبر والأتان الثبت الذى على الماء . ومسجورة : عين مملوءة . والمتجاوز المتقارب  
 والقلام : نبت ؛ وقيل : هو القصب . والبيت من ملقته .

و « يُسْقِط » و « تَسْقُط » و « يَسْقُط » بالتاء للنخلة وبالياء للجدع ؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الرخمشري رحمة الله تعالى عليه . « رطبا » نصب بالهز ؛ أى إذا هزرت الجدع هزرت بهزه « رطبا جنيا » . وعلى الجملة فـ « رطبا » يختلف نصبه بحسب معانى القراءات ؛ فمرة يستند الفعل إلى الجدع ، ومرة إلى الهز ، ومرة إلى النخلة . « وجنيا » معناه قد طابت وصايت للاجتماع ، وهى من جنيت الثمرة . ويروى عن ابن مسعود — ولا يصح — أنه قرأ « تساقط عليك رطبا جنيا <sup>(١)</sup> برنيا » . وقال مجاهد : « رطبا جنيا » قال : كانت عجوة . وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطبا جنيا » فقال : لم يذو . قال وتفسيره : لم يجف ولم يابس ولم يبعد عن يدي مجتنيه ؛ وهذا هو الصحيح . قال الفراء : الجنى والجنى واحد ؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القنيل والمقتول والجريح والمجروح . وقال غير الفراء : الجنى المقطوع من نخلة واحدة ، والمأخوذ من مكان نشأته ؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار في رياض أريضة \* وأغصان أشجار جناها على قُرب

يريد بالجنى ما يجنى منها أى يقطع ويؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعا نخرا فلما هزرت نظرت إلى أعلى الجدع فإذا السعف قد طلع ، ثم نظرت إلى الطلع قد نخرج من بين السعف ، ثم اخضر فصار باحا ثم أحمر فصار زهوا ، ثم رطبا ؛ كل ذلك فى طرفة عين ، فجعل الرطب يقع بين يديها لا يندخ منه شيء .

الثانية — استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما ؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعى ما فيه ؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية ، وكانت الآية تكون بالآلة .

الثالثة — الأمر بتكليف الكسب فى الرزق سنة الله تعالى فى عباده ، وأن ذلك لا يقدح فى التوكل ، خلافا لما تقوله جهال المترهدة ؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه . وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

(١) البرى : ضرب من التمر أصفر مدور ، وهو أجود التمر ؛ واحدة برنية .

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا » الآية . فلما ولدت أمرت بهزّ الجذع . قال علماؤنا : لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عبادته . وحكى الطبرى عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزنى ؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أى شئ عذرى عند الناس ؟ ! « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا مَنِيًّا » فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة — قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية ، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ؛ ذكره الزمخشري . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطباً جنيّاً » الجنى من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد . والنقش أن ينقش من أسفل البصرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشئ قبل وقته ، فلا ينبغي لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوزاً لبيعته ؛ ولا حُكماً بطيبه . وقد مضى هذا القول في الأنعام . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جنيّاً » بكسر الجيم للإتباع ؛ أى جعلنا لك في السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، الثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو [ معنى ] قوله تعالى : « فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا » أى فكلى من الجنى ، واشربى من السرى ، وقزى عينا برؤية الولد النبى . وقزى بفتح القاف وهى قراءة الجمهور . وحكى الطبرى قراءة « وَقَرِّي » بكسر القاف وهى لغة نجد . يقال : قرّ عينا يقرّ ويقرّ بضم القاف وكسرها ؛ وأقر الله عينه فقزّت . وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد . ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة . وضعف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فعنى أقر الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقرّ وتسكن ؛ وفلان قوة عيني ؛ أى

(١) راجع ج ٧ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من الكشف للزمخشري .

نفسى تسكن بقربه . وقال الشيباني : « وقضى عينا » معناه نامى ؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقضى الله عينه أى أنام عينه ، وأذهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز ؛ كقولك : طب نفسا . والفعل فى الحقيقة إنما هو للمعين فنقل ذلك إلى ذى العين ؛ وينصب الذى كان فاعلا فى الحقيقة على التفسير . ومثله طببت نفسا ، وتفطأت شحما ، وتصببت عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَإِمَّا تَرَيَنَّ » الأصل فى ترين <sup>(١)</sup> ترين فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتهما إلى الراء فصار « ترين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التانيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار ترين ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقى ترى ، ثم دخله نون التوكيد وهى مثقلة ، فكسرى ياء التانيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار ترين وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

\* إِمَّا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنِهِ <sup>(٢)</sup>

وقول الأفيوه : \* إِمَّا تَرَى رَأْسِي أَرَزَى بِهِ <sup>(٣)</sup>

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة « ما » كما يوطئ لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وفتح النون خفيفة ؛ قال أبو الفتح : وهى شاذة .  
الثانية — قوله تعالى : « فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار ؛ أى فسألك عن ولدك « فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا » أى صمتا ؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفى قراءة أبي بن كعب « إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا صَمْتًا » . وروى عن أنس .

(١) أى قبل التوكيد ودخول الجازم ، وهى بوزن تمنين .

(٢) تمامه : \* طرة صبح تحت أذبال الابهجى \*

(٣) تمامه : \* مأس زمان ذى انتكاس مئوس \*



وعنه أيضا « وصمتا » بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قرآناً؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذي تتابعتم به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت ؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس « وصمتا » بواو، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالنذر، كما أن من نذر من المشى إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالجم أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام — أو ابنها على الخلاف المتقدم — بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها نجاسها، وتتبين الآية فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيع لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى « قولى » بالإشارة لا بالكلام . الزمخشري : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة — من التزم بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال : ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضيق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا؛ وقد تقدم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث أبي إسرائيل، أخرجه البخاري عن ابن عباس<sup>(١)</sup> . وقال ابن زيد والسدي : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام : « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

(١) الحديث كما في البخاري عن ابن عباس قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مره فليتكلم وليقعد وليتم صومه » .

قوله تعالى : فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ <sup>قوله</sup> قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ روى أن مريم لما أطمأنت بما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها ، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه . قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، بخافتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار . وقال الكلبي : ولدت حيث لم يشعر بها قومها ، ومكثت أربعين يوما للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعها الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ، فقالوا منكبين : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى جئت بأمر عظيم كالآتي بالشئ يفترية . قال مجاهد : « فريا » عظيما . وقال سعيد بن مسعدة : أى مختلفا مفتعلا ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد . والولد من الزنى كالشئ المفترى . قال الله تعالى : « وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا ن يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ » أى بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منه . يقال : فلان يفري الفري أى يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفري العجيب النادر ، وقاله الأخفش . قال : فريا عجيبا . والفري القطع كأنه مما ينحرق العادة ، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا . وقال قطرب : الفري الحديد من الأسقية ، أى جئت بأمر جديد بديع لم تسبق إليه . وقرأ أبو حيوة : « شَيْئًا فَرِيًّا » بسكون الراء . وقال السدي ووهب بن منبه : لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل ، فاجتمع رجالهم ونسائهم ، فمادت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحملت كذلك . وقال آخر : ما أراها إلا زنت فأحرسه الله تعالى ، فتحامى الناس من أن يضربوها ، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون ، فقالوا : « يا مريم لقد جئت شيئا فريا » أى عظيما ، قال الواحز : <sup>(١)</sup>

(١) هو زارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية ، وكان قد خرج معها في سفر يمتارون من الإمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زارة بن صعب يأخذه بطنه ، فكان يخلف خلف القوم فقالت العامرية :

لقد رأيت رجلا دهريا \* يمشى وراء القوم سيبيا

\* كأنه مضطغن صبيا \*

تريد أنه امتلا بطنه ، فأجابها زارة بالآيات . و « جريا » مندوب إلى جري الإمامة وهو قصبتها .

قَدْ أَطْعَمْتَنِ دَقْلًا حَوْلِيًّا \* مُوسَىٰ مُدَوِّدًا حَجْرِيًّا  
\* قَدْ كُنْتَ تَفْرِينِ بِهِ الْفَرِيًّا \*

أى [تعظيمه] <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : (( يَا أُخْتَ هَارُونَ )) اختلف الناس فى معنى هذه الأخوة ، ومن هرون ؟  
ف قيل : هو هرون أخو موسى ، والمراد من كنا نظنها مثل هرون فى العبادة تأتى بمثل هذا .  
وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هرون أختى موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده ؛  
كما يقال للتميمى : يا أخت تميم ، وللعربى يا أخت العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه  
هرون ؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى إسرائيل تبركا باسم هرون أختى موسى ، وكان أمثل  
رجل فى بنى إسرائيل ؛ قاله الكلبي . وقيل : هرون هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع  
جنازته يوم مات أربعمائة ألفا كلهم اسمه هرون . وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان  
فى بنى إسرائيل عابد متقطع إلى الله عز وجل يسمى هرون فنسبوها إلى أخوته من حيث  
كانت على طريقته قبل ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع ؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت  
أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : إن مريم ليست  
بأخت هرون أختى موسى ؛ فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر ، وإلا فإنى أجدر بينهما من المدة ستمائة  
سنة . قال : فسكت . وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبه قال : لما قدمت نجران  
سألونى فقال إنكم تقرءون « يا أخت هرون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك ، فقال : « إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم  
والصالحين قبلهم » . وقد جاء فى بعض طرقه فى غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن  
صاحبك يزعم أن مريم هى أخت هرون وبينهما فى المدة ستمائة سنة ؟ قال المغيرة : فلم أدر  
ما أقول ؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم وافق اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية  
باسماء الأنبياء ؛ والله أعلم .

(١) فى الأصل : « تعظيمه » وهو تحريف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد .  
الزخشرى : كان بينهما وبينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى  
وهرون ؛ وإن صح فكما قال السدى لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة :  
يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : <sup>(١)</sup> « إن أخا ضياء قد أذن فن أذن فهو يُقيم »  
وهذا هو القول الأول . ابن عطية : وقالت فرقة بل كان في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه  
هرون فندسبوا إليه على جهة التعمير والتوبيخ ؛ ذكره الطبري ولم يسم قائله .

قلت : ذكره الغزنوى عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مثالا في الفجور فنسبت إليه .  
والمعنى : ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعل فكيف جئت أنت بها ؟ ! وهذا من التعريض  
الذى يقوم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحد وسيأتى في سورة « النور » القول فيه  
إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام  
لأحد معه ، ولا غبار عليه . والحمد لله . وقرأ عمر بن لُحَا التيمي « مَا كَانَ أَبَاكَ أَمْرًا سَوِيًّا » .

قوله تعالى : فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ  
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾  
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ  
حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ  
وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾  
الترمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت

(١) هو زياد بن الحرث الصدائي ، كان قد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال  
أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم : « إن أخا ضياء قد أذن ... » الحديث . (٢) قال في « البحر » :  
يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة .

بـ « إني نذرت للرحمن صوما » وإنما ورد بأنها أشارت ، فيقوى بهذا قول من قال : إن أمرها بـ « بقولى » إنما أريد به الإشارة . ويروى أنهم لما أشارت إلى العطفل قالوا : استخفافها بنا أشد عناينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : « كيف نكلم من كان في المهدي صبيا » و« كان » هنا ليس يراد بها الماضي ؛ لأن كل واحد قد كان في المهدي صبيا ، وإنما هي في معنى هو [ الآن <sup>(١)</sup> ] . وقال أبو عبيدة : « كان » هنا لغو ؛ كما قال <sup>(٢)</sup> :

« وجيران لنا كانوا كرام \* »

وقيل : هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » وقد تقدم . وقال ابن الأنباري : لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صبيا » ، ولا أن يقال « كان » بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر ، تقول : كان الحر وتكتفى به . والصحيح أن « من » في معنى الجزاء و« كان » بمعنى يكن ؛ التقدير : من يكن في المهدي فكيف نكلمه ؟ ! كما تقول : كيف أعطى من كان لا يقبل عطية ؛ أى من يكن لا يقبل . والماضى قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء ؛ كقوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى إن يشأ يجعل . وتقول : من كان إلى منه إحسان كان إليه منى مثله ، أى من يكن منه إلى إحسان يكن إليه منى مثله . « والمهد » قيل : كان سريرا كالمهد . وقيل : « المهدي » هاهنا حجر الأم . وقيل : المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوم في المهدي لصغره ، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده (( إني عبد الله )) وهى :

الثانية — فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه ، وآتكأ على يساره ، وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، و« قَالَ إني عبد الله » فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته ، ردا على من غلا من بعده في شأنه . والكتاب الإنجيل ؛ قيل : آناه في تلك الحالة الكتاب ، وفهمه وعلمه ، وآناه النبوة كما علم آدم

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) هو الفرزدق ؛ وصدر البيت :

« فكيف إذا رأيت ديار قوم \* »

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي . وهذا في غاية الضعف على ما بينه في المسئلة بعد هذا .  
وقيل : أى حكم لى بإيتاء الكتاب والنبوة فى الأزل ، وإن لم يكن الكتاب منزلا فى الحال ؛  
وهذا أصح . ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾ أى ذا بركات ومنافع فى الدين والدعاء إليه ومعلمًا له .  
التستري : وجعلنى أمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأرشد الضال ، وأنصر المظلوم ،  
وأغيث الملهوف . ﴿ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى لأؤديهما إذا أدركنى التكليف ، وأمكننى  
أداؤهما ، على القول الأخير الصحيح . ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام  
حياتى . ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْ ﴾ قال ابن عباس : لما قال « وَبِرًّا بِوَالِدَيْ » ولم يقل بوالدى  
علم أنه شئ من جهة الله تعالى . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا ﴾ أى متعظا متكبرا يقتل ويضرب على  
الغضب . وقيل : الجبار الذى لا يرى لأحد عليه حقًا قط . ﴿ شَقِيًّا ﴾ أى خائبًا من الخير .  
ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يجعلنى تاركًا لأمره فأشقى كما شقى إبليس  
لما ترك أمره .

الثالثة — قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى فى هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر !  
أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره ، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى  
فى قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا  
لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية ، ثم عاد إلى حالة  
الأطفال ، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براءة أمه  
لأنه كان ممن يعقل فى تلك الحالة ، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم يُقل  
أنه دام نطقه ، ولا أنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر ، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه  
وعظه وصلاته فى صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكمتم ، وهذا كله مما يدل على  
فساد القول الأول ، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم فى المهد خلافا لليهود  
والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحمد . وإنما صح براءتها من الزنى  
بكلامه فى المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأئمة

السافقة ، والقرون الخالية الماضية ، فهو مما يشبهت حكمه ، ولم ينسخ في شريعة أمره . وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع ؛ يأكل الشجر ، ويلبس الشعرة ، ويجلس على التراب ، ويأوى حيث جنة الليل ، لا مسكن له ، صلى الله عليه وسلم .

الرابعة — الإشارة بمنزلة الكلام ، وتفهم ما يفهم القول . كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال : « فأشارت إليه » وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا : « كيف نكلم » وقد مضى هذا في « آل عمران »<sup>(١)</sup> مستوفى .

الخامسة — قال الكوفيون : لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه . وروى مثله عن الشعبي ، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق ، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه ، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة ، فلم يكن قاذفاً ، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة . قالوا : واللعان عندنا شهادات ، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع . قال ابن القصار : قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ماعدا العربية ، فكذلك إشارة الأخرس . وما ذكره من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط . وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته ، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة ، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ . قال ابن المنذر : والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام ، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك . قال المهلب : وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت أنا والساعة كهاتين » نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة . وفي إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام . « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ » أى السلامة على من الله تعالى . قال الزجاج : ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام . وقوله : « يَوْمَ وُلِدْتُ » يعنى في الدنيا . وقيل : من همز الشيطان كما تقدم في « آل عمران »<sup>(٢)</sup> . « وَيَوْمَ أَمُوتُ » يعنى

(١) راجع ج ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

في القبر . (( وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا )) يعني في الآخرة ؛ لأن له أحوالا ثلاثة : في الدنيا حيا ، وفي القبر ميتا ، وفي الآخرة مبعوثا ؛ فسلم في أحواله كلها ؛ وهو معنى قول الكلبي . ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان . وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رآته امرأة يُحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص في سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذي حملك ، والبدن الذي أرضعك ؛ فقال لها عيسى عليه السلام : طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى وأتبع ما فيه وعمل به .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٥٦﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥٧﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَدَاهَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٥٨﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٥٩﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٦٠﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦١﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٦٢﴾

قوله تعالى : (( ذَٰلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ )) أي ذلك الذي ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك أعتقدوه ، لا كما تقول اليهود إنه لغير وشدة ، وأنه ابن يوسف النجار ، ولا كما قالت النصارى : إنه الإله أو ابن الإله . (( قَوْلُ الْحَقِّ )) قال الكسائي : « قَوْلُ الْحَقِّ » نعت لعيسى ؛ أي ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق] . وسمى قول الحق كما سمي كلمة الله ؛ والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل ؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : « وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أي الوعد الصادق . وقال :



« وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى ولا الدار الآخرة . وقرأ عاصم وعبد الله بن عاصم « قَوْلَ الْحَقِّ » بالنصب على الحال ؛ أى أقول قولاً حقاً . والعامل معنى الإشارة فى « ذلك » . الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء . وقرأ عبد الله « قَالَ الْحَقُّ » . وقرأ الحسن « قَوْلُ الْحَقِّ » بضم القاف ، وكذلك فى « الأنعام » « قَوْلُهُ الْحَقُّ » . والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد ، كالرَّهْبِ والرَّهَبِ والرَّهْبِ . ( الَّذِى ) من نعت عيسى . ( فِيهِ يَمْتَرُونَ ) أى يشكون ؛ أى ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون القول الحق . وقيل : « يمترون » يختلفون . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : أجمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحياء وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، قال : هو ابن الله وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنى للآخر قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع — على ما قال — فاقتلوا فظهر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : « وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ » اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً فهذا معنى قوله : « الذى فيه يمترون » بالناء المعجمة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن السُّلَمِى وغيره . قال ابن عباس : فرمى بمریم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها اثنتى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا يخافونه ؛ ذكره المساورى .

قلت : ووقع فى تاريخ مصر فيما رأيت وجاء فى الإنجيل ؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد فى بيت لحم كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكاً ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

في الحلم وقال له : قم نخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس منزع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه : وامثل أمر ربه ، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفي حال بغيته إلى مصر نزل ببئر البلسان التي بظاهر القاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبلسان لا يطاع ولا ينبت إلا في تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذي يخاط الزيت الذي تعتمد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة في أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعا جليلا جدا ، وتكون أحب إليهم من كل هدية لها قدر . وفي تلك السفرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين وقسقام<sup>(٢)</sup> المعروفة الآن بالخرقة<sup>(٣)</sup> ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أى ما ينبغي له ولا يجوز ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام ؛ أى أن يتخذ ولدا . و « أن » في موضع رفع اسم « كان » أى ما كان لله أن يتخذ ولدا ؛ أى ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالاتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد . ﴿ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تقدم في «البقرة» مستوفى . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن » بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أبيّ « كُنْ فَيَكُونُ . إِنَّ اللَّهَ » بغير واو على العطف على « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » . وفي الفتح أقوال : فذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربي وربكم ، وكذا « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » فـ « أن » في موضع نصب عندهما . وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا في موضع

(١) الأشمونين : إحدى قرى مركز ملوى . (٢) قسقام : هي القوصية الآن إحدى قرى مركز منفوط .

(٣) الخرقة : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفوط . (٤) راجع ج ٢ ص ٨٧ وما بعدها

خفض بمعنى ؛ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبأن الله ربى وربكم . وأجاز الكسائي أن يكون فى موضع رفع بمعنى ؛ والأمر أن الله ربى وربكم . وفيها قول خامس : حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله ، وهو أن يكون المعنى : وقضى أن الله ربى وربكم ؛ فهى معطوفة على قوله : « أمرا » من قوله : « إِذَا قَضَى أَمْرًا » والمعنى إذا قضى أمرا وقضى أن الله . ولا يتبدأ بـ « أن » على هذا التقدير ، ولا على التقدير الثالث . ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية . ﴿ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى دين قويم لا أعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ « من » زائدة ؛ أى اختلف الأحزاب بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم : هو ابن الله . والملاكنية ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله ؛ فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت . وقد تقدم هذا فى « النساء » . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى من شهود يوم القيامة ، والمشهد بمعنى المصدر ، والشهود الحضور . ويجوز أن يكون الحضور لهم ، ويضاف إلى الظرف لوقوعه فيه ، كما يقال : ويل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أى من حضوره ذلك اليوم . وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلائق ، كالمحشر للموضع الذى يحشر إليه الخلق . وقيل : فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور ، فأجمعوا على الكفر بالله ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ؛ فتقول : أسمع يزيد وأبصر يزيد أى ما أسمعه وأبصره . قال : فعناه أنه عجب نبيه منهم . قال الكلبي : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر ، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » . وقيل : « أسمع »

بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم الله فى ذلك اليوم . ﴿ لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ يعنى فى الدنيا . ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وأى ضلال أبين من أن يعتقد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج أنه إله ؟ ! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر .  
و يسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى فرغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح <sup>(١)</sup> فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — فيؤمر به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فى غفلة وهم لا يؤمنون » ” أخرجه البخارى بمعناه عن أبى عمر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وبيننا هالك أن الكفار مخلدون بهذه الأحاديث والآى ردا على من قال : إن صفة الغضب تنقطع ، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباهم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى نمت سكانها فزمتها . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فيجازى كلاً بعمله ، وقد تقدم هذا فى « الحجر » وغيرها .

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النق البياض .

(٢) راجع ج ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ١٢١** إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِيكِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ١٢٢ يَأْتِيكِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ١٢٣ يَأْتِيكِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ١٢٤ يَأْتِيكِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ١٢٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُحَتِكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ١٢٦ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ١٢٧ وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ١٢٨ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ١٢٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ١٣٠

قوله تعالى : **﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾** المعنى : وإذ كرفى الكتاب الذى أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره . وقد تقدّم معنى الصديق فى « النساء »<sup>(١)</sup> واشتقاق الصديق فى « البقرة »<sup>(٢)</sup> فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : أقرأ عليهم يا محمد فى القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذوا الأنداد ؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾** وهو آزر وقد تقدّم . **﴿يَا أَبَتِ﴾** قد تقدّم القول فىه فى « يوسف »<sup>(٤)</sup> **﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾** أى لأى شىء تعبد : **﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ﴾**

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

شَيْئًا) يريد الأصنام . (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) أى من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت ، وأن من عبد غير الله عذب (فَاتَّبَعْنِي) إلى ما أدعوك إليه . (أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) أى أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) أى لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر ، ومن أطاع شيئاً في معصية فقد عبده . (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) « كان » صلة زائدة . وقيل : بمعنى صار . وقيل : بمعنى الحال ؛ أى هو للرحمن . وعصياً وعاصٍ بمعنى واحد ؛ قاله الكسائي . (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ) أى إن مت على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب . (فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أى قريناً في النار . (قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) أى أترغب عنها إلى غيرها . (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) قال الحسن : يعنى بالحجارة . الضحاك : بالقول ؛ أى لأشتمك . ابن عباس : لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك . (وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا) . قال ابن عباس : أى اعتزاني سالم العرض لا يصيبك منى معزة ؛ واختاره الطبري ، ف قوله : « مليا » على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن ومجاهد : « مليا » دهرًا طويلًا ؛ ومنه قول المهلهل :  
فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ \* وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرِمَلَاتُ مَلِيًّا

قال الكسائي : يقال هجرته مليًّا وملؤة وملؤة وملؤة وملؤة وملؤة ، فهو على هذا القول ظرف ، وهو بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ) لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية ؛ قال الطبري : معناه أمانة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حلیم خاطب سفيها ؛ كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم في معنى تسليمه : هو تحية مفارق ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عينة : هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال : نعم ؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ »

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المتقسطين . وقال : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الآية ؛ وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة ؛ وفي الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه " أخرجه البخارى ومسلم . وفي الصحيحين عن أسامة ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكبة ، وأردف وراءه أسامة بن زيد ؛ وهو يعود سعد بن عبادة في بنى الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول ، وفي المجلس عبد الله بن رباح ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، نهر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ، ثم قال : لا تُغبروا علينا ، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء ، لأن ذلك إكرام ، والكافر ليس أهله . والحديث الثانى يجوز ذلك . قال الطبرى : ولا يمارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة ، فإنه ليس فى أحدهما خلاف للآخر ؛ وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم ، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص . وقال النخعى : إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام ؛ فبان بهذا أن حديث أبي هريرة " لا تبدءوهم بالسلام " إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام ، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم ، أو حق صحبة أو جوار أو سفر . قال الطبرى : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه ؛ قال علقمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ ! قال : نعم ؛ ولكن حق الصحبة . وكان أبو أسامة إذا أنصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه ؛ فقليل له فى ذلك فقال : أمرنا أن نفشى السلام . وسئل الأوزاعى عن مسلم مر بكافر فسلم عليه ؛ فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسين البصرى أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذي معناه التحية إنما خص به هذه الأمة ؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثاً لم تعط أحداً قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة » الحديث ؛ ذكره الترمذي الحكيم ؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده . وقد مضى الكلام في معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي » .<sup>(١)</sup>  
وارتفع السلام بالابتداء ، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقرنت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ : الحفي المبالغ في البر والإلطف ؛ يقال : حَفِيَ به وتَحَفَّى إذا برّه . وقال الكسائي يقال : حَفِيَ بِي حَفَاوَةً وَحَفْوَةً . وقال الفراء : « إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » أي عالماً لطيفاً يحببني إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَرَلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدم في « الكهف » بيانها . وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَمْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي آتينا وحشته بولد ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « عسى » يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالهداية . فـ « عسى » شك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أي أثينا عليهم ثناء حسناً ؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث ؛ وقد تقدم .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَلَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٤﴾

(١) راجع ج ١ ص ١٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .



قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ أى وأقرأ عليهم من القرآن قصة موسى .  
 ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾<sup>(١)</sup> فى عبادته غير صرائى . وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى أخلصناه بخلصناه  
 مختاراً . ﴿ وَآدَيْنَاهُ ﴾ أى كلمناه ليللة الجمعة . ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى يمين موسى ،  
 وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر ؛ قاله الطبرى  
 وغيره ؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال ؛ أى كلمناه من  
 غير وحي . وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه . وذكرو كيع وقبيصة عن سفيان عن  
 عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا »  
 أى أدنى حتى سمع صرير الأفلام . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ وذلك حين  
 سأل فقال : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَجَى » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ  
 وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ  
 عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ اختلف فيه ؛ فقيل : هو إسماعيل  
 ابن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فغيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم ،  
 فاستغفاه ورضى بثوابه ، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسماعيل الذبيح  
 أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن الذبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم ويأتى  
 فى « والصفات »<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره  
 من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالنقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ؛ ولأنه المشهور  
 المتواصف من خصاله .

(١) بكسر اللام قراءة « نافع » . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ منه السعى ... الخ » . آية ١٠٢

الثانية — صدق الوعد محمود وهو من خالق النبيين والمرسلين ، وضدّه وهو الخلف مذموم ، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدّم بيّانه في « برائة<sup>(١)</sup> » . وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد ، واختلف في ذلك ؛ فقليل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى قُدى . هذا في قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا أن يلقاه في موضع بقاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه ولياته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء ، فقال له : مازلت هاهنا في انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه ؛ ذكره النقاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبد الله بن أبي الحُسّاء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعده أن آتية بها في مكانه فذهبت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فإذا هو في مكانه ؛ فقال : ” يافقني لقد شققت على ” أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك “ لفظ أبي داود . وقال يزيد الرقاشي : انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره الماوردي . وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة . وذكره الرّمحشمرى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة . وذكره القشيري قال : فلم يبرح من مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن الساجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسماعيل لم يعد شيئا إلا وثى به ، وهذا قول صحيح ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية ؛ والله أعلم .

الثالثة — من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : ” العِدَّة دَيْنٌ “ . وفي الأثر<sup>(٢)</sup> ” الوأى المؤمن واجب “ أى في أخلاق المؤمنين . وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء ؛ فذلك قلنا بإيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقلُّ حرُّ لصاحب حاجةٍ \* نعمَّ يقضيها والحرُّ للوأي ضامن

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الوأى : الوعد .

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بنذره؛ وكفى بهذا مدحا وثناء، وبما خالفه ذما .

الرابعة — قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم، وثم رجال يشهدون عليه فما أحرأه أن يلزمه إذا شهد عليه آثان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والشافعي وسائر الفقهاء : إن العدة لا يلزم منها شيء لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفي البخارى « وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » ؛ وقضى ابن أشوع بالوعد وذكر ذلك عن سمرة بن جندب . قال البخارى : ورأيت إسحق بن إبراهيم يحتاج بحديث ابن أشوع .

الخامسة — « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا » قيل : أرسل إسماعيل إلى جرهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشريفا له . والله أعلم .

السادسة — « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ » قال الحسن : يعنى أمته . وفي حرف ابن مسعود « وكان يأمر أهله جرهم وولده بالصلاة والزكاة » . « وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » أى رضا زاكيا صالحا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضى ببناء على رضيت ؛ قالوا . وأهل المجاز يقولون : مرضو . وقال الكسائى والفراء : من العرب من يقول رَضَوَانٌ وَرَضِيَانٌ فِرَضَوَانٌ على مرضو، ورضيان على مرضى ولا يجوز البصريون أن يقولوا إلا رَضَوَانٌ وَرَبَوَانٌ . قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون في الخط فيكتبون ربا بالياء ثم يخطئون فيما هو أشد من هذا فيقولون ربيان ولا يجوز إلا رِبَوَانٌ وَرِضَوَانٌ ؛ قال الله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَّا يَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » .

قوله تعالى : **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧**

قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** ﴾ إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها . وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . الزمخشري : وقيل سمي إدريس لكثرة درسه كتاب الله تعالى ، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا ، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلان كما يزعمون ؛ ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرا ل كما زعم ابن السكيت ؛ ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوى مشتقا من الدرس . قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما : وهو جد نوح وهو خطأ ؛ وقد تقدم في «الأعراف» بيانه . وكذا وقع في السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشاخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أول من أعطى النبوة من بنى آدم ، وخط بالقلم . ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وغيرهما : يعنى السماء الرابعة . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال ابن عباس والضحاك : يعنى السماء السادسة ؛ ذكره المهدوى .

قلت : ووقع في البخارى عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث ، وفيه : كل سماء فيها أنبياء — قد سماهم — منهم إدريس في الثانية . وهو وهم ، والصحيح أنه في السماء

الرابعة؛ كذلك رواه ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره مسلم في الصحيح، وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة"، نخرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يارب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفف عنه من ثقلها. يعني الملك الموكل بفلك الشمس؛ يقول إدريس: اللهم خفف عنه من ثقلها وأحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف، فقال: يارب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: «أما إن عبدى إدريس سألتني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته» فقال: يارب آجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أخبرتك أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى، فأزدد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها؛ فقال للملك: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى. قال نعم. ثم حمّله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لى صديق من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك لى ولكن إن أحببت عامته أعامتته متى يموت. قال: «نعم» ثم نظر فى ديوانه، فقال: إنك تسألنى عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال «وكيف»؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإنى أتيتك وتركته هناك؛ قال: أنطق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء. فرجع الملك فوجده ميتا. وقال السدى: إنه نام ذات يوم، وأشتد عليه حر الشمس، فقام وهو منها فى كرب؛ فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها، فإنه يارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه؛ فقال ملك الشمس: يارب من أين لى هذا؟ قال: «دعا لك رجل من بنى آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أنى لو رأيت الجنة.

قال : فرفعه على جناحه ، ثم طار به ، فبينما هو في السماء الرابعة التقى بملك الموت ينظر في السماء ، ينظر يمينا وشمالا ، فسلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ، فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأى معنى رفعته هنا ؟ قال : رفعته لأريه الجنة . قال : فإن الله تعالى أمرني أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة ، فنزلت فإذا هو معك ؛ فقبض روحه فرفعها إلى الجنة ، ودفنت الملائكة جسده في السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه ، فعجب منه الملائكة وأشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له ، فأتاه في صورة آدمي ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار ؛ فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل . ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ؛ وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت ؛ استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي ؛ فقال : إن لي إليك حاجة . قال : وما هي ؟ قال : أن تقبض روحي . فأوحى الله تعالى إليه أن أقبض روحه ؛ فقبضه وردّه إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة في قبض روحك ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشد استعدادا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لي إليك حاجة أخرى . قال : وما هي ؟ قال : أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ؛ فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرني الجنة ؛ فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : أخرج لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما ، فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذقته ، وقال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها ؛ وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ » فكيف أخرج ؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « بإذني دخل الجنة وبأمرى يخرج » . فهو حي هنالك فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ » يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : لإدريس تارة يرتع في الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ  
 آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا  
 وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ يريد  
 لإدريس وحده . ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم وحده . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد  
 إسماعيل وإسحق ويعقوب . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ ﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى .  
 فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسماعيل  
 وإسحق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم . ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أى إلى الاسلام : ﴿ وَاجْتَبَيْنَا ﴾  
 بالإيمان . ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ ﴾ . وقرأ شبلى بن عباد المكي « يتلى » بالتذكير لأن التائيد  
 غير حقيقى مع وجود الفاصل . ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء . وقد مضى  
 فى « سبحان » . يقال بكى يبكى بكاءً وبُكى وبُكيًا ، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء  
 فهو مثل الحزن ؛ أى ليس معه صوت كما قال الشاعر :  
 بكى عني وحق لها بكاءها \* وما يغني البكاء ولا العويل<sup>(٢)</sup>

« وسجدا » نصب على الحال « وبكيا » عطف عليه .

الثانية - فى هذه الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثيرا فى القلوب . قال الحسن  
 « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » فى الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات  
 الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويبكون عند  
 ذكرها . والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون ويبكون

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة أول أو ثانية .

(٢) هو عبد الله بن راحة يبكى حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك فى أبيات .

عند تلاوته ؛ قال الحكيم : وفي هذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء ، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه .

الثالثة - احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارئ . قال الحكيم : وهذا بعيد ، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى . وضم السجود إلى البكاء ، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته ، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعة - قال العلماء : ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة « الم تنزيل » قال : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك ، المسيحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة « سبحان » قال : اللهم اجعلني من الباكين إليك ، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم أجعلني من عبادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك .

قوله تعالى : نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يُلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٩٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿١٠٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٠٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٠٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ) أى أولاد سوء . قال أبو عبيدة : حدثنا حجاج عن ابن جريح عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحى هذه الأمة



أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض فى الأريكة زنى . وقد تقدّم القول فى «خلف» فى «الأعراف»<sup>(١)</sup> فلا معنى للإعادة .

الثانية — قوله تعالى : «أَصَاؤُوا الصَّلَاةَ» وقرأ عبد الله والحسن «أَصَاؤُوا الصَّلَوَاتِ» على الجمع . وهو ذم ونص فى أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يوبق بها صاحبها ولا خلاف فى ذلك . وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع . واختلفوا فىمن المراد بهذه الآية ؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود . وقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد أيضا وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان ؛ أى يكون فى هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهذه الآية . واختلفوا أيضا فى معنى إضاعتها ؛ فقال القرظى : هى إضاعة كفر ومحمد بها . وقال القاسم بن مخيمرة ، وعبد الله بن مسعود : هى إضاعة أوقاتها ، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح ، وأنها إذا صليت مخلى بها لا تصح ولا تجزئ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى صلى وجاء فسلم عليه " أرجع فصل فإنك لم تصل " ثلاث مرات أخرجه مسلم ، وقال حذيفة لرجل يصلى فطفف<sup>(٢)</sup> : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين عاما . قال : ما صليت ، ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قال : إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن . أخرجه البخارى واللفظ للنسائى ، وفى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل " يعنى صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال : حديث حسن صحيح ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال الشافعى وأحمد وإسحق : من لم يقيم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاسدة ؛ قال صلى الله عليه وسلم " تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " . وهذا ذم لمن يفعل ذلك . وقال فروة بن خالد بن سنان : استبطأ

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى نقص ، والتطفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص .

أصحاب الضحك مرة أميرا في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقرأ الضحك هذه الآية ، ثم قال : والله لأن أدعها أحب إلى من أن أضيعها . وجملة القول في هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس يحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه ، ولا دين لمن لا صلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَاتَّبِعُوا الشُّهُوَاتِ » أى اللذات والمعاصي .

الثالثة — روى الترمذى وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبي أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له : يا فتى ألا أحدثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ، قلت : بلى . قال : ” إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال أكموا لعبدي فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك “ . قال يونس : وأحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لفظ أبي داود . وقال : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا داود بن أبي هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الدارى عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : ” ثم الزكاة مثل ذلك “ ” ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك “ . وأخرجه النسائى عن همام عن الحسن عن حريث بن قبيصة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر — قال همام : لأدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية — فإن انتقص من فريضته شيء قال انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك “ . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال انظروا هل تجدون له من

تطوع بكل ماضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجزى على حسب ذلك . قال  
النسائي : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن  
الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
” أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكلها وإلا قال الله عز وجل أنظروا  
لعبدى من تطوع فإن وجد له تطوع قال أكلوا به الفريضة “ . قال أبو عمر بن عبد البر  
فى كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون — والله أعلم — فىمن  
سها عن فريضة فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك ؛ وأما من  
تركها ، أو نسي ثم ذكرها ، فلم يأت بها عامدا ، وأشتغل بالتطوع عن أداء فرضها وهو ذا كر  
له ، فلا تكمل له فريضة من تطوعه ، والله أعلم . وقد روى من حديث الشاميين فى هذا  
الباب حديث منكرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السكونى عن عبد الله بن قُرط عن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من  
تسبيحاته حتى تتم “ . قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا  
الوجه ، وليس بالقوى ؛ وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه  
ولست فى الحكم بتامة .

قلت : فينبغى للإنسان أن يحسن فرضه ونقله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه  
يقتربه من ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه »  
الحديث . فاما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه فى المعنى حكم الفرض . ومن لا يحسن أن  
يصلى الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل ؛ لا جرم تنفل الناس فى أشد ما يكون من  
النقصان والخلل لحفته عندهم ، وتمامهم به ، حتى كأنه غير معتد به . ولعمرك الله لقد يشاهد  
فى الوجود من يشار إليه ، ويظن به العلم تنفله كذلك ؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم  
معرفة بالحديث ؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون . وقد قال العلماء : ولا يجزئ ركوع  
ولا سجود ، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدين ، حتى يعتدل راكعا وواقفا

وساجدا وجالسا . وهذا هو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر . وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »<sup>(١)</sup> . وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟ ! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول ؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى : « وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ » هو من بنى [المشيد]<sup>(٢)</sup> وركب المنظور، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلتزمه ولا يتقيه . وفي الصحيح : « حُقِّقَت الجنة بالمكاره وحُقِّقَت النار بالشهوات » . وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قال ابن زيد : شرا أو ضلالا أو خيبة، قال :

فمن يلق خيرا يحمده الناس أمره \* ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وقال عبد الله بن مسعود : هو وادٍ في جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هذا الغي ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن الغي اسم للوادي سمي به لأن الغاوين يصيرون إليه . قال كعب : يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سيطا كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى هلاكا وضلالا في جهنم . وعنه : غي وادٍ في جهنم أبعدا فقرا ؛ وأشدّها حرا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبث جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم . وقال ابن عباس : غي وادٍ في جهنم ، وأن أودية جهنم لتستعيز من حره، أعد الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه .

(١) راجع ج ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) في الأصل : « من بنى الشيد » .

(٣) البيت للرقش كما في اللسان .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أى من تضييع الصلاة واتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة ربه . ﴿وَأَمَّنَ﴾ به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر « يَدْخُلُونَ » بفتح الخاء . وفتح الياء الباقيون . ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء ، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعائة . ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ بدلا من الجنة فانتصبت . قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز « جَنَّاتٌ عَدْنٍ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةٌ عَدْنٍ » لأن قبله « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أى من عبده وحفظ عهده بالغيب . وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه ، تقول : أتت على ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل إلى من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتيبي : « مأتيا » بمعنى آت فهو مفعول بمعنى فاعل . و « مأتيا » مهموز لأنه من آتى يأتى . ومن خفف الهمزة جعلها ألفا . وقال الطبرى : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة ؛ أى يأتها أولياؤه . ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أى فى الجنة . واللغو معناه الباطل من الكلام والفتحش منه والفضول وما لا ينتفع به . ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " ويروى " لغيت " وهى لغة أبى هريرة ، كما قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

وَرَبُّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كُتِّمٌ \* عَنِ اللَّغَا وَرَفِثِ التَّكَلِّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى ؛ أى كلامهم فى الجنة حمد الله وتسبيحه . ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاستثناء المنقطع ، يعنى سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم ، قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير ؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون . قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ؛ أى فى قدر هذين الوقتين ؛ إذ لا بكرة ثم ولا عشيا ؛

(١) هو رؤبة ونسبه ابن برى للمعاج . «السان» .

كقوله تعالى : « غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ » أى قدر شهر؛ قال معناه ابن عباس وابن جرير وغيرهما . وقيل : عرفت فهم اعتدال أحوال أهل الجنة؛ وكان أهنا النعمة عند العرب التمكن من المطعم والمشرب بكرة وعشيا . قال يحيى بن أبى كثير وقتادة : كانت العرب فى زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم؛ فترأت . وقيل : أى رزقهم فيها غير منقطع، كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول : أنا أصبح وأمسى فى ذكرك . أى ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشى بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات أنتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأول . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبى أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين فى اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ثم قال : وعوض الله عز وجل المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [تختلف<sup>(١)</sup>] عن صفة العشاء وهيئته؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوكة . وكذلك يكون فى الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة . وخرج الترمذى الحكيم فى « نواذر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا قال رجل : يا رسول الله هل فى الجنة من ليل؟ قال : « وما هي بك على هذا » قال سمعت الله تعالى يذكر فى الكتاب « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقلت : الليل بين البكرة والعشى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يرد الغدق على الرواح والرواح على الغدق وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة » وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » . وقال العلماء : ليس فى الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم فى نور أبدا؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزى والمهدوى وغيرهما .

(١) زيادة يقتضها السياق .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُورِثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف ؛ لقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب » . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ قال ابن عباس : أى من اتقانى وعمل بطاعتي . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، تقديره : نورث من كان تقيا من عبادنا .

قوله تعالى : وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٢٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٢٦﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنزلت هذه الآية « وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » إلى آخر الآية . قال هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا عمر بن ذر قال سمعت أبى يحدث عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت « وما ننزل إلا بأمر ربك » » الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه ، فقال : « ما الذى أبطأك » قال : كيف نأتىكم وأنتم لاتقصون أظفاركم ، ولاتأخذون من شواربكم ، ولا تنقون رواجبكم<sup>(١)</sup> ، ولا تستأكون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي : احتبس جبريل عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوما . وقال مجاهد : آثنتى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما ؛ وقيل : ثلاثة عشر . وقيل : ثلاثة أيام . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبطأت على حتى

(١) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل ، واحدا راجبة .

ساء ظني واشتقت إليك“ فقال جبريل عليه السلام : إني كنت أشوق ، ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فنزلت الآية : « وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وأنزل « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما ننزل هذه الجنة إلا بأمر ربك . وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل . وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل : تكون غير متصلة بما قبلها ، والقرآن سور ، ثم السور تشتمل على جمل ، وقد تنفصل جملة عن جملة . « وَمَا نُنَزِّلُ » أى قال الله تعالى : قل يا جبريل « وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » . وهذا يحتمل وجهين : أحدهما — إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . الثانى — إذا أمرك ربك نزلنا عليك ، فيكون الأمر على الأول متوجها إلى النزول ، وعلى الوجه الثانى متوجها إلى التنزيل .

وقوله تعالى : « لَهُ » أى لله . « مَا بَيْنَ أَيْدِينَا » أى علم ما بين أيدينا « وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ » قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا ، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة « وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ » من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : « له ما بين أيدينا » من امر الآخرة « وما خلفنا » ما مضى من الدنيا « وما بين ذلك » ما بين النفيختين وبينهما أربعون سنة . الأخفش : « ما بين أيدينا » ما كان قبل أن نخلق « وما خلفنا » ما يكون بعد أن نموت « وما بين ذلك » ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : « ما بين أيدينا » من الثواب والعقاب وأمور الآخرة . « وما خلفنا » ما مضى من أعمالنا في الدنيا « وما بين ذلك » أى ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . ويحتمل خامسا : « ما بين أيدينا » السماء « وما خلفنا » الأرض « وما بين ذلك » أى ما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس فى رواية : « له ما بين أيدينا » يريد الدنيا إلى الأرض « وما خلفنا » يريد السموات — وهذا على عكس ما قبله — « وما بين ذلك » يريد الهواء ، ذكر الأول المأوردى والثانى القشيري . الزمخشري : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غير منها ، والحال التى نحن فيها . ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا ، كما قال : « لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرَعَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ »



أى بين ما ذكرنا . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي . وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ، ولا ينسى شيئا منها .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما ؛ فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . ﴿ فَأَعْبُدْهُ ﴾ أى وحده لذلك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى ؛ كما يقوله أهل الحق ، وهو القول الحق ؛ لأن الرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك ، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض ، دخل فى ذلك اكتساب الخلق ، ووجبت عبادته ؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . ﴿ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحي عنك ، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل أصطبر اصتبر ، فتقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما ، فأبدل من التاء طاء ؛ كما تقول من الصوم : أصطام . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولدا أى نظيرا ؛ أو مثلا ؛ أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المساماة . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمي الرحمن . قال النحاس : وهذا أجل إسناد علمته روى فى هذا الحرف ، وهو قول صحيح ؛ لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا مبينا فى البسملة<sup>(١)</sup> . والحمد لله . روى ابن أبى نجیح عن مجاهد « هل تعلم له سميّا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكلبى : هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله ، أو يقال له الله إلا الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْخَرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾  
 أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ  
 لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ  
 مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ  
 هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا  
 مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُخَيِّبُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْخَرَجُ حَيًّا ﴾ الإنسان هنا أبن  
 ابن خلف ، وجد عظاما بالية ففتتها بيده ، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت ؛ قاله الكلبي ؛  
 ذكره الواحدى والثعلبى والقشيرى . وقال المهدوى : نزلت فى الوليد بن المغيرة وأصحابه ،  
 وهو قول ابن عباس . واللام فى « لسوف أخرج حيا » للتأكيد . كأنه قيل له : إذا مات  
 لسوف تبعث حيا فقال : « أنذا مات لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا بخفاء  
 اللام فى الجواب كما كانت فى القول الأول ، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام ؛ لأنها للتأكيد  
 والإيجاب وهو منكر للبعث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مات » على الخبر . والباقون بالاستفهام  
 على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة « لَسَوْفَ أُنْخَرَجُ حَيًّا » ؛ قاله استهزاء لأنهم  
 لا يصدقون بالبعث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى أو لا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾  
 أى من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض . وقرأ  
 أهل الكوفة إلا عاصما ، وأهل مكة وأبو عمر وأبو جعفر « أَوَلَا يَذْكُرُ » . وقرأ شيبه ونافع وعاصم  
 « أَوَلَا يَذْكُرُ » بالتخفيف . والاختيار التشديد وأصله يتذكر ؛ لقوله تعالى : « إنا يتذكر  
 أولو الألباب » وأخواتها . وفى حرف أبى « أَوَلَا يَتَذَكَّرُ » وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة  
 لخط المصحف . ومعنى « يَتَذَكَّرُ » يتفكر ، ومعنى « يَذْكُرُ » يتذبه ويعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أى ولنحشرن الشياطين قرناء لهم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة ؛ كما قال : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . الزمخشري : والواو فى « وَالشَّيَاطِينَ » يجوز أن تكون للعطف و بمعنى مع ، وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووههم ؛ يقرنون كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين ؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم فى المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسرورا إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم ، وما يغضبهم من سعادة أولياء الله وشمايتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم <sup>(١)</sup> عتلا على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف ، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم . وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجنو ؛ قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةٍ » على الحالة المعهودة فى مواقف المقاولات والمنافلات ، من تجاثى أهلها على الركب . لما فى ذلك من الاستيفاز والقلق ، وإطلاق الحبا خلاف الطمأنينة ؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا . وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم . على أن « جثيا » حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين ؛ لأنه من توابع التواقف للحساب ، قبل التوصل إلى الثواب والعقاب . ويقال : إن معنى ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴾

(١) العتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . (٢) الاستيفاز : عدم الاطمئنان ؛ قال الجوهري : قد مسنوقا أى غير مطمئن .

أى جثيا على ركبهم ؛ عن مجاهد وقتادة ؛ أى أنهم لشدة ما هم فيه لا يقدرّون على القيام .  
« وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها ؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أى داخله  
مطيفين به ؛ فقوله : « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول . ويجوز  
أن يكون قبل الدخول . و « جثيا » جمع جاث . يقال : جثا على ركبتيه يَجْثُو وَيَجْثِي جُثْوًا  
وَجْثِيًا على فعول فيهما . وأجثاء غيره . وقوم جُثِّي أيضا ؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس ،  
وجثي أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر . وقال ابن عباس : « جثيا » جماعات . وقال  
مقاتل : جمعا جمعا ؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوَة وجُثْوَة وجُثْوَة ثلاث لغات ، وهى الحجارة  
المجموعة والتراب المجموع ؛ فأهل النجر على حدة ، وأهل الرنى على حدة ، وهكذا ؛ قال طرفة :  
تَرَى جُثُوتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا \* صَفَاحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍ

وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب . وهو على هذا التأويل جمع جاث على ما تقدم .  
وذلك لضيق المكان ؛ أى لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما . وقيل : جثيا على ركبهم  
للتخاضع ؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَضِعُونَ » . وقال الكيت :

هم تركوا سرّاتهم جثيا \* وهم دون السّراة مقرّنين

قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ » أى لنستخرجن من كل أمة وأهل دين  
« أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » النحاس : وهذه آية مشككة فى الإعراب ؛ لأن القراء كلهم  
يقرءون « أَيُّهُمْ » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه : « ثم لننزعن من كل  
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ » بالنصب أوقع على أيهم لننزعن . قال أبو إسحق فى رفع « أيهم » ثلاثة أقوال ؛  
قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية ؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل  
شِيعَة الذى يقال من أجل عتوه أيهم أشد على الرحمن عتيا ؛ وأنشد الخليل ، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلي \* فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له لا هو حرج ولا محروم . وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت  
أبا إسحق يختار هذا القول ويستحسنه ؛ قال : لأنه معنى قول أهل التفسير . وزعم أن معنى

« ثم لنزغن من كل شيعة » ثم لنزغن من كل فرقة الأعنى فالأعنى . كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدّهم عتيا ثم الذى يليه ، وهذا نص كلام أبى إسحق فى معنى الآية . وقال يونس : « لنزغن » بمنزلة الأفعال التى تلغى ورفع « أيهم » على الابتداء . المهدوى : والفعل الذى هو « لنزغن » عند يونس معلق ؛ قال أبو على : معنى ذلك أنه يعمل فى موضع « أيهم أشد » لا أنه ملغى . ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل « لنزغن » ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه . وقال سيبويه : « أيهم » مبنى على الضم لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل ومن أفضل كان قبيحا ، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف فى « أيهم » جائز . قال أبو جعفر : وما علمت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه فى هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ؛ قال : وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهى مفردة لأنها تضاف ، فكيف يبنيتها وهى مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال . أبو على : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه ؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه ، كما حذف فى « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه ؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصمه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التى ذكرها أبو إسحق ؛ قال الكسائى : « لنزغن » واقعة على المعنى ، كما تقول : لبست من الثياب ، وأكلت من الطعام ، ولم يقع « لنزغن » على « أيهم » فينصبها . زاد المهدوى : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شيعة » وقوله : « أيهم أشد » جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء ؛ ولا يرى سيبويه زيادة « من » فى الواجب . وقال القراء : المعنى ثم لنزغن بالنداء ، ومعنى « لنزغن » لننادين . المهدوى : ونادى فعل يعلق إذا كان بعده جملة ، كظننت فتعمل فى المعنى ولا تعمل فى اللفظ . قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول فى « أيهم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها ؛ والمعنى : ثم لنزغن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا ، كما تقول : ضربت القوم أيهم غضب ؛ والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهذه ستة

أقوال، وسمعت علي بن سليمان يحكي عن محمد بن يزيد قال : « أيهم » متعلق « بشيعة » فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى : ثم لننزع من الذين تشابهوا أيهم ؛ أي من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشد على الرحمن عتيا؛ وهذا قول حسن . وقد حكى الكسائي أن التشايع التعاون . و « عتيا » نصب على البيان . ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا ﴾ أي أحق بدخول النار . يقال : صَلَّى يَصَلِّي صُلِيًّا ، نحو مضى الشيء يمضي مُضِيًّا إذا ذهب ، وهوى يهوى هُويًّا . وقال الجوهري : ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ؛ فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصلَّيته تصليّة . وقرئ « وَيُصَلِّي سَعِيرًا » . ومن خفف فهو من قولهم : صَلَّى فلان بالنار ( بالكسر ) يصلي صُلِيًّا أحترق ؛ قال الله تعالى : « هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا » . قال العجاج :

\* والله لولا النار أن نصلاها \*

ويقال أيضا : صلي بالأمر إذا قاسى حره وشدته . قال الطهوي :

وَلَا تَبْلَىٰ بَسَالَتَهُمْ وَإِنْ هُمْ \* صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ

وأصطليت بالنار وتصلَّيت بها . قال أبو زيد :

وَقَدْ تَصَلَّيْتُ حَرَّ حَرِّهِمْ \* كَمَا تَصَلَّى الْمَقْرُورُ مِنْ قَرَسٍ

وفلان لا يصطلي بناره إذا كان شجاعا لا يطاق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ » هذا قسم ، والواو يتضمنه . ويفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتشمسه النار إلا تحلّة

(١) « صليا » بضم الصاد قراءة « نافع » وعليها التفسير .

(٢) ونسبه في اللسان مادة « قيه » إلى الزبيان ، وأورده في أبيات هي :

ما بال عين شوقها استبكاها \* في رسم دار لبست بلاها

تالله لولا النار أن نصلاها \* أو يدعوا الناس علينا الله

\* لما سمعنا لأمر قاهها \*

القسم<sup>(١)</sup> قال الزهرى : كأنه يريد هذه الآية : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » ذكره أبو داود الطيالسى ، فقوله : « إِلَّا تَحِلُّ الْقِسْمَ » يخرج فى التفسير المسند ؛ لأن القسم المذكور فى هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : « وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا » إلى قوله : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » والأقول أشهره والمعنى متقارب .

الثانية — وأختلف الناس فى الورود ؛ ف قيل : الورود الدخول ؛ روى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم » ثم نُجِّيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَزَّلُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أسنده أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريح وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » الورود الدخول ؛ على التفسير للورود ، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن . وفى مسند الدرامى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرد الناس النار ثم يصعدون منها بأعمالهم فمنهم كلهم البصر ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب المحيد فى رحله ثم كشذ الرجل فى مشيته » . وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجى : أما أنا وأنت فلا بد أن نردھا ، أما أنا فينجينى الله منها ، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر ؛ وقد بناه فى « التذكرة » . وقالت فرقة : الورود المر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى ، ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاله الحسن أيضا ؛ قال : ليس الورود الدخول ، إنما تقول : وردت البصرة ولم أدخلها . قال : فالورود أن يمزوا على الصراط . قال أبو بكر الأنبارى : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة ، واحتجوا بقول الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا » (١) « إِلَّا تَحِلُّ الْقِسْمَ » : أى لا يدخل النار ليعاقبه بها ، ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقدر ما يبر الله به قسمه . (٢) الحضر (بالضم) : العدو؛ وشذ الرجل : عدوه أيضا .

مُبعَدُونَ» قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثم » بفتح الثاء « تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : « أولئك عنها مبعدون » عن العذاب فيها ، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها ، ولا يحس منها وجعا ولا ألما ، فهو مبعدها في الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى : « ثم ننجي الذين اتَّقَوْا » بضم الثاء ، فد « ثم » تدل على نجاء بعد الدخول .

قلت : وفي صحيح مسلم « ثم يُضْرَبُ الجسرُ على جهنم وتُحَلُّ الشفاعة فيقولون اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : « دَحْضٌ مَزَلَةٌ فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيْبٌ وَحَسَكٌ تَكُونُ بَنَجْدٌ فِيهَا سُوءُيَكَّةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطُرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالتَّرْكَابِ فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ وَمُخْبَدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » الحديث . وبه احتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف وأطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتَّقَوْا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . « وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ » أي يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » أي أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ \* وَضَعَنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية » قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثُمَّ يُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا » . أخرجه مسلم من حديث أم مبشر ، قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة . الحديث . ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُقِرَّوْنَ » . وقال مجاهد :

(١) دحض مزلة : هما بمعنى ، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر . (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان صافيا . وجمام جمع جم وجمعة ، وهو الماء المجتمع . والحاضر : النازل على الماء . والمتخيم : المقيم ، وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . يصف زهير الظالمين بأنهم في أمن ومنعة ، فإذا نزل نزلن آمانات كنزول من هوى أهل ووطنه . والبيت من معلقته .



ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حفظ المؤمن من النار فلا يردّها . روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً من وعك به، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول « هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظّه من النار » “ أسنده أبو عمر قال : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن إسماعيل الصائغ قال حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله [عن أبي صالح<sup>(١)</sup>] الأشعري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً فذكره . وفى الحديث ” الحمى حظّ المؤمن من النار “ . وقالت فرقة : الورود النظر إليها فى القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو غيرها من رحمة الله تعالى . واحتجوا بحديث ابن عمر : ” إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي “ الحديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « وَإِنْ مِنْكُمْ » ردا على الآيات التى قبلها فى الكفار : قوله « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا . ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا . وَإِنْ مِنْهُمْ » وكذلك قرأ عكرمة وجماعة ، وعابها فلا شعب فى هذه القراءة . وقالت فرقة : المراد بـ « منكم » الكفرة ، والمعنى : قل لهم يا محمد . وهذا التأويل أيضا سهل التناول ، والكاف فى « منكم » راجعة إلى الهاء فى « لنحشرنهم والشياطين » . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا « فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء ، فقد عرف ذلك فى قوله عز وجل : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » معناه كان لهم ، فرجعت الكاف إلى الهاء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله ، ولا بد من ورود الجميع ، وعليه نشأ الخلاف فى الورود . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورود الدخول ؛ لقوله عليه الصلاة

(١) الزيادة من « تهذيب التهذيب » وتفسير الطبرى .

والسلام : ” فتمسسه النار “ لأن المسيس حقيقته في اللغة المماسه ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ؛ فإن من ورد لها ولم تؤذ به بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها . فجانا الله تعالى منها بفضلها وكرمها ، وجعلنا من ورد لها فدخلها سالماً ، وخرج منها غانماً . فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعاً يردونها كما دل عليه حديث جابر أقول الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فيبين الدخولين بون<sup>(١)</sup> . وقال ابن الأنباري محتجاً لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » فأبدل الكاف من الهاء . وقد تقدم هذا المعنى في « يونس »<sup>(١)</sup> .

الثالثة — الاستثناء في قوله عليه السلام : « إِنْ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ » يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً ؛ لكن تحلة القسم ؛ وهذا معروف في كلام العرب ؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلاً ؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ « إِنْ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ » أي انكن تحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يَمُوتُ لِأَحَدِكُمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ فَيَحْتَسِبُهُمْ إِلَّا كَانُوا لَهُ جَنَّةً مِنَ النَّارِ » والجنة الوقاية والستر ، ومن وقى النار وستر عنها فلن تمسه أصلاً ، ولو مسته لما كان موقى .

الرابعة — هذا الحديث يفسر الأول لأن فيه ذكر الحسبة ؛ ولذلك جعله مالك بأثره مفسراً له . ويقيد هذا الحديث الثاني أيضاً مارواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلَغُوا الْحِنْتَ كَانَ لَهُ حِجَابٌ مِنَ النَّارِ — أَوْ —

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) « كان » : بالإنفراد وأسمها ضمير يعود على الموت المفهوم مما سبق ؛ أي كان موتهم له حجاب . ولأبي ذر عن الكشميني كانوا له حجاباً . « قسطلاني » .

دخل الجنة“ فقله عليه السلام : ”لم يبلغوا الجنة“ — ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم جَنَّت — دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة — والله أعلم — لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحموا من أجل [من] <sup>(١)</sup> ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة ، ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية فجعلتهم في المشيئة ؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع المجرة الذين لا تجوز مخالفتهم ، ولا يجوز على مثلهم الغلط ، إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الأحاد الثقات العدول ؛ وأن قوله عليه الصلاة والسلام : ”الشقي“ من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه“ الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو من سعد في بطن أمه ولم يشق بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : ”يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم“ ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذى يرويه ضعيف لا يحتاج به . وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزنى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له ابن صغير فوجد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”أما يسرك ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يفتح لك“ فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : ”بل للمسلمين عامة“ قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح ؛ يعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ؛ وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندى في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، واجتنب الكبائر ، وصبر واحتسب في مصيئته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

(١) زيادة يقتضيا السياق .

مُبعَدُونَ» وهذا ضعيف ، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها . وفي الخبر : « تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لحي » .

الخامسة — قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا » الحتم لإيجاب القضاء ؛ أى كان ذلك حتما . « مقضيا » أى قضاه الله تعالى عليكم . وقال ابن مسعود : أى قسما واجبا . قوله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا » أى نخلصهم ﴿ وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا مما يدل على أن الورد الدخول ؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يدخل . وقد مضى بيان هذا في غير موضع . وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قررة « ثُمَّ نُنَجِّي » مخففة من أنجي . وهى قراءة حميد ويعقوب والكسائي . وثقل الباقون . وقرأ ابن أبى ليلى « ثَمَّة » بفتح الثاء أى هناك . و « ثُمَّ » ظرف إلا أنه مبنى لأنه غير محصل فبنى كما بنى ذاب ؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف فى الوصل ، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت فى الوصل تاء .

قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ »

قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ » أى على الكفار الذين سبق ذكركم فى قوله تعالى : « أَئِذَا مَا مِيتٌ لَّسَوْفَ تُخْرَجُ حَيًّا » . وقال فيهم : « ونذر الظالمين فيها جثيا » أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعزّزوا بالدنيا ، وقالوا : فما بالنار — إن كنا على باطل — أكثر أموالا وأعز نفرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

الحق في دينه ، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيرا ولا في المسلمين غنيا ، ولم يعلموا أن الله تعالى نَحَى أولياءه عن الاعتزاز بالدنيا ، وفرط الميل إليها . و « بَيِّنَاتٍ » معناه مرتلات الألفاظ ، ما خصه المعانى ، مبيِّنات المقاصد ؛ إما محكمات ، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو تبين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تُحدِى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا وبراهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة ؛ كقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَقُّ مَصَدَّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا . « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » يريد مشركى قريش النضر بن الحرث وأصحابه . « لِلَّذِينَ آمَنُوا » يعنى فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت فيهم قشافة ، وفي عيشهم خشونة ، وفي ثيابهم رثالة ؛ وكان المشركون يراجلون شعورهم ، ويدهنون رؤوسهم ، ويلبسون خير ثيابهم ، فقالوا للمؤمنين : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد وشبل بن عباد « مَقَامًا » بضم الميم وهو موضع الإقامة . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقيون « مَقَامًا » بالفتح ؛ أى منزلا ومسكنا . وقيل : المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمر الجليلة ؛ أى أى الفريقين أكثر جاها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجلسا ؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا المنظر وهو المجلس فى اللغة وهو النادى . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم . وناداه جالسه فى النادى . قال : \* أنادى به آل الوليد وجعفرًا \*

والندى على فعيل مجلس القوم ومتحدثهم ، وكذلك الندوة والنادى [ والمتندى <sup>(١)</sup> والمتندى ] ، فإن تفرق القوم فليس بندى ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ » أى من أمة وجماعة . « هُمْ أَحْسَنُ أَثَنًا » أى متاعا كثيرا ؛ قال <sup>(٢)</sup> :

وَقَرْنٌ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ \* أَثْنٌ كَقِنُو النَّخْلَةِ الْمُتَعَشِّكِلِ

(١) الزيادة من « الصحاح » للجوهرى . (٢) هو أمرؤ القيس . والقرن : الشعر التام . والمتن ماعن يمن الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم الشديد السواد . وأثْنٌ : كثير أصل النبات . والقنو : العذق وهو الشعراخ . والمتعشكِل الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرة . وقيل : المتدلى .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جدد من الفرش والخُرُثى ما لبس منها ، وأنشد الحسن ابن علي الطوسي فقال :

تقدم العهد من أم الوليد بنا \* دهرنا وصار أثاث البيت نُحْرِيَا

وقال ابن عباس : هيئة . مقاتل : ثيابا . « وَرِيَّا » أى منظرنا حسنا . وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة « وَرِيَّا » بغير همز . وقرأ أهل الكوفة « وَرِيَّا » بالهمز . وحكى يعقوب أن طلحة قرأ « وَرِيَّا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : « هُم أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِيَّا » بالزاي ، فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق : ويجوز « هُم أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِيَّا » بياء بعدها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة وفيها تقريران : أحدهما — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء ، وأدغمت الياء في الياء . وكان هذا حسنا لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى هذا قال ابن عباس : الرئي المنظر ، فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولباسا . والوجه الثانى — أن جلودهم مرتوية من النعمة ، فلا يجوز الهمز على هذا . وفي رواية ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر « وَرِيَّا » بالهمز تكون على الوجه الأول . وهى قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مُصَرِّف « وَرِيَّا » بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا . وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء ، ثم حذفت إحدى اليائين . المهدوى : ويجوز أن يكون « رِيَّا » فقلبت ياء فصارت رياء ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت . وقد قرأ بعضهم « وَرِيَّا » على القلب وهى القراءة الخامسة . وحكى سيبويه رآء بمعنى رأى . الجوهري : من همزه جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رآته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى فقال :

أشاققتك الظعائن يوم بانوا \* بذى الرئي الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رويت ألوانهم وجلودهم رِيَّا ، أى أمتلات وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبي ابن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكي

ويزيد البربرى « وزيا » بالزاي فهو الهيئة والحسن . ويجوز أن يكون من زويت أى جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « زويت لى الأرض » أى جمعت ؛ أى فلم يغن ذلك عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى ؛ فليعيش هؤلاء ما شاءوا فصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عمّروا ؛ أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به . قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى فى الكفر ﴿ فَلْيَهْدُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فليدعه فى طغيان جهله وكفره ؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ؛ أى من كان فى الضلالة مده الرحمن مداً حتى يطول آغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه . نظيره : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » وقوله : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ومثله كثير ؛ أى فليعيش ما شاء ، وليوسع لنفسه فى العمر ؛ فصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية فى التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالى فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمدد » خبراً .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و « إذا » مع الماضى بمعنى المستقبل ؛ أى حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى تنكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » .

قوله تعالى : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم فى النصرة ، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثا — أى « ويزيد الله الذين أهدوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة ؛ والمعنى متقارب . وقد تقدم القول فى معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى فى « آل عمران » وغيرها . « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » تقدم فى « الكهف » القول فيها . « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا » أى جزاء : « وَخَيْرٌ مُّرَدًّا » أى فى الآخرة مما افتخر به الكفار فى الدنيا . و « الْمُرَدُّ » مصدر كالرد ؛ أى وخير ردا على عاملها بالثواب ؛ يقال : هذا أرّدت عليك ، أى أنفع لك . وقيل : « خير مردا » أى مرجعا فكل أحد يرد إلى عمله الذى عمله .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا » روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن خباب قال كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لى : ان أقضيك حتى تكفر بعمد . قال : فقلت له ان أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال : ولى لمبعوث من بعد الموت ؟ ! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش ؛ فنزلت هذه الآية « أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . فى رواية قال : كنت قينا فى الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا ، فأتيته أتقاضاه . خرجه البخارى أيضا . وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته ؛ فقال العاص : ما عندى اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضيني ؛ فقال العاص يا خباب مالك ؟ ! ما كنت هكذا ، وأن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : إني كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك . قال : أو لستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟ قال خباب : بلى . قال : فأحرني حتى أقضيك

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) القين : الحداد والصائغ .



فى الجنة — استهزاء — فوالله لئن كان ما تقول حقاً لى لأقضىك فيها، فوالله لا تكون أنت يا خباب وأصحابك أولى بها منى، فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا » يعنى العاص ابن وائل، الآيات ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ قال ابن عباس : أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ ! . وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أى الجنة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمْ آتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال قتادة والثورى : أى عملاً صالحاً . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبي : عاهد الله تعالى أن يدخله الجنة . ﴿ كَلَّا ﴾ رد عليه ؛ أى لم يكن ذلك ؛ لم يطلع الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً ، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدون فى الصباح . وقرأ حمزة والكسائى « وَوُلَدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . واختلف فى الضم والفتح على وجهين : أحدهما — أنهما لغتان معناهما واحد، يقال ولد وولد كما يقال عَدَمَ وعُدِمَ . وقال الحرث بن حازم : ولقد رأيت معاشرًا قد تَمَرُّوا مَالًا وُودًا وقال آخر :

فليت فلانا كان فى بطن أمه \* وليت فلانا كان وُلدَ حِمَارٍ

والثانى — أن قيساً جعل الولد بالضم جمعاً والولد بالفتح واحداً . قال الماوردى : وفى قوله تعالى : « لَأَوْتِينَ مَالًا وَوُلَدًا » وجهان : أحدهما — أنه أراد فى الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته ؛ قاله الكلبي . الثانى — أنه أراد فى الدنيا، وهو قول الجمهور ؛ وفيه وجهان محتملان : أحدهما — إن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى لأوتين مالا وولدا . الثانى — ولو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبي أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق : سمعت خباب بن الأرت يقول : جئت العاصى بن وائل السهمى أتقاضاه حقاً لى عنده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإلى لميت ثم مبعوث ؟ ! . فقلت : نعم . فقال : إن لى هناك مالا وولدا فأقضىك ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطْلَعَ الْغَيْبَ » ألفه ألف استفهام مجبىء « أم » بعدها ، ومعناه التوبيخ ، وأصله أطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدة بعد الألف فقالوا : أطلع كما قالوا : « الله خير » « أَلَدَّ كَرَيْنَ حَرَمَ » قيل له : كان الأصل في هذا « الله » « أَلَدَّ كَرَيْنَ » فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الاستفهام والخبر ، وذلك أنهم لو قالوا : الله خير بلا مد لا لتبس الاستفهام بالخبر ، ولم يحتاجوا إلى هذه المدة في قوله : « أطلع » لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة ، وذلك أنك تقول في الاستفهام : أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفي ؟ استغفرت ؟ بفتح الألف ، وتقول في الخبر : اطلع ، افترى ، اصطفي ، استغفرت لهم بالكسر ، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعالى : « كَلَّا » ليس في النصف الأول ذكر « كَلَّا » وإنما جاء ذكره في النصف الثاني . وهو يكون بمعنىين : أحدهما بمعنى حقا . والثاني بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا جاز الوقف على ما قبله ، ثم تبدئ « كَلَّا » أى حقا . وإذا كانت بمعنى لا ، كان الوقف على « كَلَّا » جائزا ، كما في هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف على قوله : « عَهْدًا » وتبدئ « كَلَّا » أى حقا « سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » . وكذا قوله تعالى : « لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كَلَّا » وعلى « تركت » . وقوله : « وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » . قَالَ كَلَّا « الوقف على « كَلَّا » لأن المعنى ؛ لا — وليس الأمر كما تظن » فاذهبا . . فليس للحق في هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كَلَّا » بمنزلة سوف لأنها صلة ، وهى حرف رد فكأنها « نعم » و « لا » في الاكتفاء . قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها ؛ كقولك : كَلَّا وَرَبِّ الكعبة ؛ لا تقف على كَلَّا ؛ لأنه بمنزلة إى ورب الكعبة . قال الله تعالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ » فالوقف على « كَلَّا » قبيح لأنه صلة لليمين . وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في « كَلَّا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

(١) أى من القرآن ؛ قال الألوسى : « وهذا أول موضع رفع فيه من القرآن ، وقد تكرر في النصف الأخير فرفع

في ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الردع والزجر . وقال أبو بكر بن الأنبارى : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على « كلا » فى جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها . والقول الأول هو قول أهل التفسير .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أى سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة . ﴿ وَنُمَدُّهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى سنزيده عذابا فوق عذاب . ﴿ وَنَزِيلُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أى نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أى نزله المال والولد بعد إهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعالى : وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾  
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ يعنى مشركى قريش . و « عِزًّا » معناه أعوانا ومنعة ؛ يعنى أولادا ، والعِزُّ المطر الجود أيضا ؛ قاله الهروى . وظاهر الكلام أن « عِزًّا » راجع إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله . ووحيد لأنه بمعنى المصدر ؛ أى ليناوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أى ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها ؛ كما قال : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » . وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة . ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم . عن مجاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتسطق ، وتقول : يارب عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك . و « كلا » هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقا ؛ أى حقا « سيكفرون بعبادتهم » . وقرأ

أبو نهبك : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ » بالتنوين . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها . قال المهدي : « كَلَّا » ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم ، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ » فلا يوقف عليها على هذا ، ويوقف عليها في المعنى الأول ؛ فإن صالح فيها المعنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها . فمن نون « كَلَّا » من قوله : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ ؛ ونصبه بفعل مضمر ، والمعنى كَلَّ هذا الرأي والاعتقاد كَلَّا ، يعني اتخذهم الآلهة « لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » فيوقف على هذا على « عِزًّا » وعلى « كَلَّا » . وكذلك في قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ، والتحقيق لما بعدها . ومن روى ضم الكاف مع التنوين ، فهو منصوب أيضا بفعل مضمر ، كأنه قال : سَيَكْفُرُونَ « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » يعني الآلهة .

قلت : فتحصل في « كَلَّا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا ، والنفي ، والتنبيه ، وصلة للقسم ، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائي : « لا » تنفي فحسب ، و « كَلَّا » تنفي شيئا وتثبت شيئا ، فإذا قيل : أَكَلْتُ تَمْرًا ، قلت : كَلَّا إِنِّي أَكَلْتُ عَسَلًا لَا تَمْرًا ، ففي هذه الكلمة نفى ما قبلها ، وتحقيق ما بعدها . والضد يكون واحدا ويكون جمعا ، كالعدو والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر ؛ أي ويكونون عليهم عونا ؛ فلهذا لم يجمع ، وهذا في مقابلة قوله : « لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » والعز مصدر ، فكذلك ما وقع في مقابلته . ثم قيل : الآية في عبادة الأصنام ، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل ؛ جريا على توهم الكفرة . وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين ؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۖ ۞ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ۖ ۞ وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۖ ۞ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ۞

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى سلطانهم عليهم بالإغواء ، وذلك حين قال إبليس : « وَأَسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ » . وقيل : « أرسلنا » أى خليئنا ، يقال : أرسلت البعير أى خليته ، أى خليئنا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم . الزجاج : قَيِّضْنَا . ﴿ تَوَّضَعُوا أَرْأَى ﴾ قال ابن عباس : تزججهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : أمض أمض فى هذا الأمر ، حتى توقعهم فى النار . حكى الأول الثعلبى ، والثانى المسوردي ، والمعنى واحد . الضحاك : تغويهم إغواء . مجاهد : تشليهم إشلاء ، وأصله الحركة والقيان ، ومنه الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم " قام إلى الصلاة ولحوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء " . وائتت القدر اثنازا اشتد غلبانها . والأز التهييج والإغراء ، قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَّضَعُوا أَرْأَى » أى تغريهم على المعاصى . والأز الاختلاط . وقد أوزت الشئ أوزره أزا أى ضمت بعضه إلى بعض . قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تطلب العذاب لهم . ﴿ إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِدًّا ﴾ قال الكلبي : آجالهم ، يعنى الأيام والليالى والشمور والسنين إلى آتباء أجل العذاب . وقال الضحاك : الأنفاس . ابن عباس : أى نعد أنفاسهم فى الدنيا كما نعد سنينهم . وقيل : الخطوات . وقيل : اللذات . وقيل : اللحظات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعد أعمالهم عدا . وقيل : لا تعجل عليهم فإنما تؤخرهم ليزدادوا إثما . روى : أن المؤمن قرأ هذه السورة ، فتر هذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ماتنفد . وقيل فى هذا المعنى :

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فَكَلِّمْ \* مَضَى نَفْسٌ مِنْكَ أَنْتَقَصْتَ بِهِ جُزْأَ

يَمِينِكَ مَا يَحْيِيكَ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ \* وَيَحْدُوكَ حَادٍ مَا يُرِيدُ بِهِ الْهُزْأَ

ويقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : اثنا عشر ألف نفس فى اليوم ، واثنا عشر ألفا فى الليلة — والله أعلم — فهى تعد وتحصى إحصاء ، ولها عدد معلوم ، وليس لها مدد ، فما أسرع ماتنفد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ في الكلام حذف ، أى إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ » وكما في الخبر " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْمَ وَفْطَرُ وَزُورُ ؛ فهو جمع الوافد ، مثل رَكَبَ وَرَاكَبَ وَصَحَّبَ وَصَاحَبَ ، وهو من وفد يفد وفداً ووفوداً ووفادة ، إذا خرج إلى ملك في فتح أو أمر خطير . الجوهرى : يقال وفد فلان على الأمير ، أى ورد رسولا فهو وافد ، والجمع وفد مثل صاحب وصحَّب ، وجمع الوفد وفاد ووفود ، والاسم الوفادة وأوفدته أنا إلى الأمير ، أى أرسلته . وفي التفسير : « وفدا » أى ركبانا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوافد في الغالب يكون راكبا ، والوفد الركبان ووحيد ؛ لأنه مصدر . ابن جريح : وفدا على النجائب . وقال عمرو بن قيس المدائني : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك . فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عمك الصالح ، طالما ركبتك في الدنيا أركبني اليوم ، وتلا « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا » وإن الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأتّن ريح ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد قبح صورتك وأتّن ريحك . فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عمك السيئ طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قبل إسناده . قاله ابن العربي في « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري ، عن ابن عباس بالفظه ومعناه . وقال أيضا عن ابن عباس : من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا ترث ولا تبول ، لجمها من الياقوت الأحمر ، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض ، وسروجها من السندس والإستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تبعر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من ياقوت ، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال . وقال أيضا عن علي رضي الله عنه : ولما نزلت الآية قال علي رضي الله عنه : يا رسول الله !

إنى قد رأيت الملوك ووفودهم ، فلم أر وفدا إلا ركبانا فما وفد الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما إنهم لا يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلاق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة " . ولفظ الشعبي في هذا الخبر عن على "أبين" . وقال على " لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله ! إنى رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا . قال : "يا على" إذا كان المنصرف من بين يدى الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساوئها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم سراكبهم فتهمى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . " .

قلت : وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف ، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاة حفاة عراة غرلا إلى الموقف ؛ بدليل حديث ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : "يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله — تعالى — حفاة عراة غرلا" الحديث أخرجه البخارى ومسلم ، وسيأتى بكتابه فى سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى . وتقدم فى «آل عمران» من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى . ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء ، فيكون حديث ابن عباس مخصوصا ، والله أعلم . وقال أبو هريرة : « وفدا » على الإبل . ابن عباس : ركبانا يؤتون بنوق من الجنة ؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها . وقال على : « ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هموا بها سارت وإن حركوها طارت . وقيل : يقدون على ما يحبون من إبل أو خيل أو سفن ، على ما تقدم عن ابن عباس . والله أعلم . وقيل : إنما قال « وفدا » لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالإشارات ، وينتظرون الجوائز ، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب . ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴾ السوق الحث على السير . و « وردا » عطاشا ؛ قاله ابن عباس

وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن ، والأخفش والفراء وابن الأعرابي : حفاة مشاة .  
وقيل : أفواجا . وقال الأزهرى : أى مشاة عطاشا ، كالإبل ترد الماء ، فيقال : جاء ورد  
بنى فلان . القشيري : وقوله « وردا » يدل على العطش ، لأن الماء إنما يورد في الغالب  
للعطش . وفي « التفسير » : مشاة عطاشا لتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق  
المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة . وقيل : « وردا » أى الورود ، كقولك : جئتكم  
إكراما لك أى لإكرامك ، أى نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عطاشا حفاة مشاة أفواجا . قال  
ابن عرفة : الورد القوم يردون الماء ، فسمى العطاش وردا لطلبهم ورود الماء ، كما تقول :  
قوم صوم أى صيام ، وقوم زور أى زوار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحد هم وارد . والورد  
أيضا الجماعة التى ترد الماء من طير وإبل . والورد الماء الذى يورد . وهذا من باب الإيما  
بالشئ إلى الشئ . والورد الجزء <sup>(١)</sup> [ من القرآن ] يقال : قرأت وردى . والورد يوم الحمى إذا  
أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قليباً <sup>(٢)</sup> .  
\* يَطْمُو إذا الْوَرْدُ عَلَيْهِ التَّكَا <sup>(٣)</sup> \*

أى الورد الذين يريدون الماء .

قوله تعالى : (( لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ )) أى هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد  
(( إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا )) وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشئ من  
غير جنسه ، أى لكن « من اتخذ عند الرحمن عهدا » يشفع ، ف « بمن » فى موضع نصب  
على هذا . وقيل : هو فى موضع رفع على البدل من الواو فى « يملكون » ، أى لا يملك أحد  
عند الله الشفاعة « إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » فإنه يملك ، وعلى هذا يكون الاستثناء

(١) الزيادة من « اللسان » . (٢) القلب : البئر . (٣) صدره :

\* صبحن من وشى قليباً سكا \*

وشى : اسم بئر . والسك : الضيقة . وأنتك الورد : أزدحم وضرب بعضه بعضا . وطمت البئر تطمو طموا وطمى  
طميا : امتلأت .



متصلاً . و «المجرمين» فى قوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرُذًى» . يعم الكفيرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : “لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعى فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لى “ خرج مسلم بمعناه ، وقد تقدم . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون ، وعلى القول الأول يكون الكلام متصلاً بقوله : «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ، أى لا تنفعهم شفاعة ، كما قال : «فَكَأَنَّمُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» . وقيل : أى نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة «إلا من آتخذ عند الرحمن عهداً» أى إذا أذن له الله فى الشفاعة . كما قال : «من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» . وهذا العهد هو الذى قال «أَمَّ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التى يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضاً : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة [إلا] لله ، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : “أعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً” قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : “يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك فى هذه الحياة بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك [فلا تكلنى إلى نفسى] فإنك إن تكلنى إلى نفسى تباعدنى من الخير وتقربنى من الشر وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهداً توفينىه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعاً ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة “ .

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) الزيادة من رواية الترمذى .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ﴿٨٩﴾  
 تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾  
 أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾  
 إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾  
 لَقَدْ أَخَصَّكُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلَّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ومن زعم أن  
 الملائكة بنات الله . وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وناسم وخلف : « وَلَدًا » بضم  
 الواو وإسكان اللام ، في أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : « لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا »  
 وقد تقدم ، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا » . وفي سورة  
 نوح : « مَالَهُ وَوَلَدَهُ » . ووافقهم في « نوح » خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو  
 ويعقوب . والباقون في الكل بالفتح في الواو واللام ، وهما لغتان مثل العرب والعرب  
 والعجم والعجم . قال :

ولقد رأيت معاشرا \* قد تَمَرُّوا مالا وولدا

وقال آخر :

وليت فلانا كان في بطن أمه \* وليت فسلانا كان ولدا حمار

وقال في معنى ذلك النابغة :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم \* وما أثمر من مال ومن ولد

ففتح . وقيس يجعلون الولد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الجوهري : الولد قد  
 يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الولد بالضم . ومن أمثال بني أسد : وَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقَبِيكَ <sup>(١)</sup> .  
 وقد يكون الولد جمع الولد مثل أسد وأسد : والولد بالكسر لغة في الولد . النحاس : وفرق

(١) أي من نفست به فأدى النفاس عقبك فهو أبوك .

أبو عبيدة بينهما ؛ فزعم أن الولد يكون للأهل والولد جميعا . قال أبو جعفر : وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة ؛ ولا يكون الولد والولد إلا ولد الرجل ، وولد ولده ، إلا أن ولدا أكثر في كلام العرب ؛ كما قال :

مَهْلًا فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ \* وَمَا أَثْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون ولد جمع ولد ، كما يقال وثن ووثن وأسد وأسد ، ويجوز أن يكون ولد وولد بمعنى واحد ؛ كما يقال عجم وعجم وعرب وعرب كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى منكرا عظيما ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . قال الجوهري : الإِدُّ والإِدَّةُ الداهية والأمر الفظيع ؛ ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » وكذلك الآدُّ مثل فاعل . وجمع الإِدَّةِ إِدَدٌ . وَأَدَّتْ فُلَانًا دَاهِيَةً تُوْدُهُ أَدًّا ( بالفتح ) . والإِدُّ أيضا الشدة <sup>(١)</sup> . [ والآدُّ الغلبة والقوة ] قال الرازي :

نَضَوْنَ عَنِّي شِدَّةً وَأَدًّا \* مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ صَمَلًا جَلَدًا <sup>(٢)</sup>

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبد الله ، وأبو عبد الرحمن السلمي « أَدًّا » بفتح الهمزة . النحاس : يقال أد يؤد أَدًّا فهو آد والاسم الإِدُّ ؛ إذا جاء بشيء عظيم منكرو . وقال الرازي : قد أتى الأقران مِنِّي نُكْرًا \* دَاهِيَةً دَهِيَاءَ إِدًّا إِمْرًا

عن غير النحاس ؛ الثعلبي : وفيه ثلاث لغات « إِدًّا » بالكسر وهى قراءة العامة ، « وَأَدًّا » بالفتح وهى قراءة السُّمِّي ، و « آدُّ » مثل ماد ، وهى لغة لبعض العرب ؛ رويت عن ابن عباس وأبى العالية ؛ وكأنها مأخوذة من الثقل [ يقال ] : آدَه الحِمل يَسُوْدُه أَوْدًا أثقله . قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة هنا وفى « الشورى » بالناء . وقراءة نافع ويحيى والكسائى « يكاد » بالياء لتقدم الفعل . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى يتشققن . وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفى « الشورى » .

(١) فى الأصل : الأدُّ القُوَّةُ والشدة ؛ وصوابه كما فى اللسان : الإِدُّ بالكسر الشدة والآدُّ بالفتح الغلبة والقوة .

(٢) الصملى الشديد الصلب . وورد فى كتب اللغة : « صملا نهذا » والنهد : القوى الشديد .

ووافقهم حمزة وابن عامر في « الشورى » . وقرأ هنا « ينْفِطِرُونَ » من الانفطار : وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل في السورتين . وهي اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مَنفُطِرَةٌ » . وقوله : « وَتَنَشَّقُّ الْأَرْضُ » أي تنصدع . « وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَرًّا » قال ابن عباس : هدماً أي تسقط بصوت شديد . وفي الحديث « اللهم إني أعوذ بك من الهدء والهدءة » قال شمر قال أحمد بن غياث المروزي : الهدء الهدم والهدءة الخسوف . وقال الليث : هو الهدم الشديد؛ كخائط يهدء بمسرة؛ يقال : هدئني الأمر وهدء ركني أي كسرنى وبلغ منى؛ قاله الهروي . الجوهرى : وهدء البناء يهدءه هذا كسره وضعضعه، وهدءته المصيبة أي أوهنت ركنه، وانهء الجبل انكسر . الأصمعى : والهدء الرجل الضعيف؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إني لأغير هدء أي غير ضعيف . وقال ابن الأعرابي : الهدء من الرجال الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف فهو الهدء بالكسر؛ وأنشد :  
لَيْسُوا بِهَيْدِينَ فِي الْحُرُوبِ إِذَا \* تَعَقَّدُ فَوْقَ الْحَرَاقِفِ النَّطُّقُ

والهدءة صوت وقع الحائط ونحوه، تقول منه : هدء يهدء (بالكسر) هديداً . والهدء صوت يسمعه أهل الساحل ، يأتيهم من قبل البحر له دوى في الأرض، وربما كانت منه الزلزلة ، ودويته هديده . النحاس : « هدءاً » مصدر؛ لأن معنى « تَحَرُّ » هُدء . وقال غيره : حال أي مهدودة : « أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » « أن » في موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا، فموضع « أن » نصب بسقوط الخافض . وزعم الفراء أن الكسائي قال : هي في موضع خفض بتقدير الخافض . وذكر ابن المبارك : حدثنا مسعر، عن واصل، عن عون بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يا فلان هل مر بك اليوم ذا كر لله؟ فإن قال نعم سر به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » الآية؛ قال :  
(٢١) أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير؟! . قال : وحدثني عوف عن غالب بن عجرد قال :

(١) البيت للعباس بن عبد المطالب رضى الله عنه . والحراقف (جمع حرفة) : مجتمع رأس الفخذ . والنطق

(جمع نطق) : ما تشد به الأوساط . (٢) أي قال عون كما في « الدر المنثور » وغيره .

(٣) كذا في الأصل ؛ ولعله « غالب بن حجرة » وما هنا تحريف .

حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى ، قال : إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر ، لم تك في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة ، وكان لهم منها منفعة ، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم بخرقة بنى آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : آتخذ الرحمن ولداً ، فلما قالوها أقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : أقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار ، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من ذلك الشوك في الحيتان ، وفي الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضاً وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميع المخلوقات إلا الثقلين ، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشجر ، وأكفهرت الأرض وجذبت حين قالوا : آتخذ الله ولداً . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة ، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » قال ابن العربي : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر ، ولولا أن البارئ تبارك وتعالى لا يضعه كافر الكافر ، ولا يرفعه إيمان المؤمن ، ولا يزيد هذا في ملكه ، كما لا ينقص ذلك من ملكه ، لما جرى شيء من هذا على الألسنة ، ولكنه القدوس الحكيم الحليم ، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد ؛ لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث على ما بيناه في « البقرة »<sup>(١)</sup> أى لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز في حقه ؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه وتعالى عن ذلك ويتقدس . قال :<sup>(٢)</sup>

في رأس خَلْقَاءَ مِنْ عَفَقَاءَ مُشْرِفَةٍ \* ما يَنْبَغِي دُونَهَا سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ

(١) راجع ج ٢ ص ٨٥ طبع ثانياً أو ثالثاً . (٢) هو ابن أحرر الباهلي يصف جبلاً . والخلقاء :

الصخرة ليس فيها وصم ولا كسر أى النساء . والعفقاء : أكمة جبل مشرف .

﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ «إن» نافية بمعنى ما؛ أى ما كل من فى السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقترنا له بالعبودية ، خاضعا ذليلا كما قال : «وَكُلُّ أَوْتَوْه دَاخِرِينَ» أى صاغرين أذلاء؛ أى الخلق كلهم عبيده ، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عز وجل ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . و «آتى» بالياء فى الخط ، والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد ، خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه . وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والمملك ، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل ؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر ، ولو اجتماعهما لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها . وفى الحديث الصحيح "لا يجزى ولد والدا إلا أن يحده مملوكا فيشتريه فيعتقه" أخرجه مسلم . فإذا لم يملك الأب أبنه مع مرتبته عليه ، فالأبن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثة — ذهب إسحق بن راهويه فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : "من أعتق شركا له فى عبد" أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكفل على من أعتق شركا فى أنثى ، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم ، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى ؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس ، كما قال تعالى : «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا» فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى عبدة فى المؤنث .

الرابعة — روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقول له ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياي فقول له اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفوا أحد" وقد تقدم فى «البقرة»<sup>(١)</sup> وغيرها وإعادته فى مثل هذا الموضع حسن جدا .

(١) تقدم الحديث فى ج ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أى علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ تأكيد ؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ؛ خرجہ الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإسفرائىنى : ومنها المحصى ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، وأشداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى واحدا لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ما قدم من عمل ، وقال : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيري : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا ، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنيات ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبته — قال — فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وَدًّا» وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريلُ إني أبغضت فلانا فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض « قال هذا حديث حسن صحيح . وخرجه البخاري ومسلم بمعناه ، ومالك في الموطأ ، وفي نوادر الأصول . وحدَّثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال حدثنا أبو مالك الجنبی عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة في صدور الصالحين والملائكة المقربين — ثم تلا — « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدًّا » . واختلف فيمن نزلت به فقيل في علي رضي الله تعالى عنه ؛ روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : ” قل يا علي اللهم اجعل لي عندك عهدا واجعل لي في قلوب المؤمنين مودة “ فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبي . وقال ابن عباس : نزلت في عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظمه . وكان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودة في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوبا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا ، ولا يرضى إلا خالصا تقيا ؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل عليه السلام فقال إني أحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام وقال إني أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض “ .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِّلَّذِينَ هُمْ بِهٖ مُّتَّقِينَ وَتُزَيَّرُ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾



قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى القرآن ؛ يعنى يبناه بلسانك العربى وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . ﴿ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ اللد جمع الألد وهو الشديد الحصومة ، ومنه قوله تعالى : « أَلَدَّ الْخِصَامِ » وقال الشاعر :

أَبَيْتُ نَجِيًّا لِلْهَمِيمِ كَأَنِّي \* أَخَاصِمُ أَقْوَامًا ذَوِي جَدَلٍ لَّدَا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدعى الباطل . الحسن : اللد الصم عن الحق . قال الربيع : صم آذان القلوب . مجاهد : بخارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل . ابن عباس : شدادا فى الحصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم ؛ والمعنى واحد . وخصوا بالإنذار ؛ لأن الذى لا عناد عنده يسهل انقياده .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس ؛ يخوف أهل مكة . ﴿ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى هل ترى منهم أحدا وتجد . « أو تسمع لهم ركزا » أى صوتا ؛ عن ابن عباس وغيره ؛ أى قد ماتوا وحصلوا أعمالهم . وقيل : حسا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : الركز مالا يفهم من صوت أو حركة ؛ قاله اليزيدى وأبو عبيدة ؛ كركز المكتوبة ؛ وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وَتَوَجَّسْتُ رِكْزَ الْأَيْسِ فَوَاعَهَا \* عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأَيْسِ سَقَامَهَا <sup>(١)</sup>

وقيل : الصوت الخفى . ومنه رَكَزَ الرِّيحَ إِذَا غَيَّبَ طَرَفَهُ فى الأرض . وقال طرفة :

وَصَادِقَتَا سَمِعِ التَّوَجَّسِ لِلشَّرَى \* لِرِكْزِ خَفِيِّ أَوْ لَصَوْتِ مُنَدِّدٍ <sup>(٢)</sup>

(١) توجست : سمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس . والأيس سقامها معناه : والأيس هلاكها ؛

أى يصيدها . (٢) يصف طرفة فى هذا البيت أذنى ناقته ؛ يعنى أذنها لا تكذبها النبأ . والمندد صفة للصوت ؛ والصوت المندد المبالغ فى النداء . ويروى : « لصوت مندد » بالإضافة وكسر الدال ، والأولى هى الرواية الجيدة .

وقال ذو الرمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجس ركزاً مقفراً ندس \* بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

أى ما فى استماعه كذب ؛ أى هو صادق الاستماع . والنَّدس الحاذق ؛ يقال : نَدَسَ ونَدَسَ ؛ كما يقال : حَذَرُ وحَذَرٌ وَيَقْطُ وَيَقْطُ . والنبأة الصوت الخفى ، وكذلك الزكْر ، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة طه عليه السلام

سورة طه عليه السلام مكية فى قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه . روى الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف ؛ فقبل له : <sup>(١)</sup> إن خَتَنَكَ قد صَبُوا فَأَتَاهُمَا عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبَّاب ، وكانوا يقرءون « طه » . فقال : أعطوني الكتاب الذى عندكم فأقرؤه — وكان عمر رضى الله عنه يقرأ الكتب — فقالت له أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضى الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ « طه » . وذكره ابن إسحق مطولا : فإن عمر نزع متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله ، فلقيه نعيم ابن عبد الله ؛ فقال : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابى ، الذى فرق أمر قريش ، وسقاه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم ؟ ! . فقال : وأى أهل بيتي ؟ . قال : خَتَنَكَ وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلموا وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنه ، وعندهما خَبَّاب بن الأَرْتّ معه صحيفة فيها

(١) صبا الرجل : خرج من دين إلى دين آخر .

« طه » يقرئها إياها، فلما سمعوا حسن عمر تنفب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت نفذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة التي سمعت؟ قال له: ما سمعت شيئا. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضر بها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فأرعى، وقال لأخته: أعطنى هذه الصحيفة التي سمعتم تقرءونها أنظروا هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال لها: لا تخافى وحلف لها بألمته ليردنها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخى إنك نجس على شركك، وأنه لا يسمها إلا الطاهر. فقام عمر وأغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: « اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فآله الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم، وذكر الحديث.

مسئلة — أسند الدارمى أبو محمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا » قال ابن فورك معنى قوله: « إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » » أى أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة فى ذلك الوقت؛ والعرب تقول: قرأت الشيء إذا تتبعته، وتقول: ما قرأت هذه

النافقة في رحمها سلاً قطب أي ما ظهر فيها ولد؛ فعلى هذا يكون الكلام سائغاً، وقرأته أسماعه وأفهامه بعبارات يخالفها وكتابة يحدثها . وهي معنى قولنا : قرأنا كلام الله ، ومعنى قوله : «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» ، «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . ومن أصحابنا من قال معنى قوله : «قرأ» أي تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذواقاً بمعنى آخبرته . ومنه قوله : «فَإِذَا قَهَّ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أي ابتلاهم الله تعالى به ، فسمى ذلك ذوقاً ، والخوف لا يذاق على الحقيقة ؛ لأن الذوق في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح . قال ابن فورك : وما قلناه أولاً أصح في تأويل هذا الخبر ؛ لأن كلام الله تعالى أزل قديم سابق لجملة الحوادث ، وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة ؛ لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

قوله تعالى : طه ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ﴿١﴾  
إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ  
الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ  
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ اختلف العلماء في معناه ؛ فقال الصديق رضي الله تعالى عنه : هو من الأسرار ؛ ذكره الغزنوي . ابن عباس : معناه يا رجل ؛ ذكره البيهقي . وقيل : إنها لغة معروفة في عكلي . وقيل : في عك ؛ قال الكلبي : لو قلت في عك لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه . وأنشد الطبري في ذلك فقال :<sup>(١)</sup>

دعوت بطه في القتال فلم يجب \* نختف عليه أن يكون مؤثلاً

(١) هو متم بن نويرة ، روائل : طلب النجاة .

ويروى : مُزايلا . وقال عبد الله بن عمرو : يا حبيبي بلغة عكّ ؛ ذكره الغزنوى . وقال قطرب : هو بلغة طيء ؛ وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ شَمَائِلِكُمْ \* لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَّاعِينَ

وكذلك قال الحسن : معنى « طه » يا رجل . وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريرية كذلك ؛ ذكره المهدي ، وحكاها الماوردى عن ابن عباس أيضا ومجاهد . وحكى الطبرى : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبيرة ابن عباس أيضا ؛ قال :

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ خَلَائِكُمْ \* لَا قَدَسَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمَلَّاعِينَ

وقال عكرمة أيضا : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبي . والصحيح أنها وإن وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية في عكّ وطيء وعُكل أيضا . وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقسم أقسم به . وهذا أيضا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لى عند ربى عشرة أسماء » فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها . وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه . وقيل : إنها حروف مقطعة ، يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف في ذلك ؛ فقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشيء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقال سعيد بن جبيرة : الطاء آفتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء آفتاح اسمه هادى . وقيل : « طاء » ياطامع الشفاعة للامة ، « هاء » يا هادى الخلق إلى الله . وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : يا طاهرا من الذنوب ، يا هادى الخلق إلى علام الغيوب . وقيل : الطاء طبول الغزاة ، والهاء هيبتهم في قلوب الكافرين . بيانه قوله تعالى : « سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » وقوله : « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقيل : الطاء طرب أهل الجنة في الجنة ، والهاء هو أهل النار في النار . وقول سادس : إن معنى « طه » طوبى لمن آهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى « طه » طَلِي الأرض ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تُتورم ، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه ، فقبل له : طَلِي الأرض ؛ أى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح ؛ حكاه ابن الأنباري . وذكر القاضي عياض في « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى « طه » يعني طَلِي الأرض يا محمد « مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » . الزمخشري : وعن الحسن « طَهْ » وفُسر بأنه أمر بالوطء ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجدته على إحدى رجليه ، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا ، وأن الأصل طَأً فقلبت همزته هاء كما قلبت [ ألفا ]<sup>(١)</sup> في « يطأ » فيمن قال :  
 \* ... لا هنالك المرتع<sup>(٢)</sup> \*

ثم بنى عليه هذا الأمر ، والهاء للسكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ، ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآية . وقال الكلابي : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة ، وأشدت عبادته ، فجعل يصلي الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية ، فأمره الله تعالى أن يُخفف عن نفسه فيصلي وينام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل ؛ فكان بعد هذه الآية يصلي وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا ، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ؛ فأنزل الله تعالى « طه » يقول : يا رجل « مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » أى لتتعب ؛ على ما يأتى . وعلى هذا القول : إن « طه » [ طاها أى ]<sup>(٣)</sup> طَلِي الأرض ؛ فتكون الهاء والألف ضمير الأرض ، أى طَلِي الأرض برجليك في صلواتك ، وخُففت الهمزة فصارت ألفا ساكنة . وقرأت طائفة « طَهْ » وأصله طَأً بمعنى

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري . (٢) الشعر للفرزدق وتمام البيت :

راحت بمسلة البغال عشية \* فارعى فزارة لا هنالك المرتع

قال هذا حين عزل مسلة بن عبد الملك عن العراق ، ولها عمر بن هبيرة الفزارى ، فهجاء الفرزدق ، ودعا لقومه ألا يهشوا النعمة بولايته . وأراد بغال البريد التي قدمت بمسلة عند عزله . « شواهد سيبويه » .

(٣) الزيادة من كتب التفسير .

طام الأرض لحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت . وقال زر بن حبیش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود « طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » فقال له عبد الله : « طه » فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطا الأرض برجله أو بقدميه . فقال : « طه » كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الهاء وفتحها الطاء . وأمالها جميعا أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين ، واختاره أبو عبيد . الباقر بن النخعي . قال الثعلبي : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعائين : إحداهما أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة ، والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة ، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : « مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » وقرأ « مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لِيَشْقَى » . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفى ، وبعضهم يقول لام الجحود . وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمسد ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتعب . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله \* وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فمعنى تشقى « لتتعب » بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، كقوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ » أى ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفترط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وروى أن أبا جهل — لعنه الله تعالى — والنضر بن الحرث قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد رد ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب فى ذلك سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه ، فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من «تسقى» أى ما أنزلناه إلا تذكرة . النحاس : وهذا وجه بعيد؛ وأنكره أبو عليّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أى أنزلناه لتذكّر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتسقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة. وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير، مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، وإثلاً تسقى . ﴿تَنْزِيلًا﴾ مصدر ؛ أى تنزيله تنزيلاً . وقيل : بدل من قوله : «تذكرة» . وقرأ أبو حيوة الشامي «تنزيل» بالرفع على معنى هذا تنزيل . ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا﴾ أى العالمة الرفيعة، وهى جمع العُلَا ؛ كقوله : كُبْرَى وَصُغْرَى وَكُبَرٌ وَصُغَرٌ ؛ أخبر عن عظمتها وجبروتها وجلاله ثم قال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحق : الخفض على البدل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . النحاس : يجوز الرفع بالابتداء، والخبر «لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» فلا يوقف على «استوى» وعلى البدل من المضمر فى «خلق» فيجوز الوقف على «استوى» . وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف ؛ ولا يوقف على «الْعُلَا» . وقد تقدم القول فى معنى الاستواء «فى الأعراف» . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستو على عرشه بغير حدٍّ ولا كيف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يريد ما تحت الصخرة التى لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعنى الأرض السابعة . ابن عباس<sup>(٢)</sup> : الأرض على نون، والنون على البحر، وأن طرفى النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش ؛ والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهى التى قال الله تعالى فيها «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ» ؛ والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع،

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير نفقات وقد تكلم العلماء فى هذه الرواية وأماها .



بين كل أرضين بحر ، فالبحر الأسفل مطبق على سفير جهنم ، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الريح ، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، وذلك انحجاب على الثرى ، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال ابن عباس : السر ما حدث به الإنسان غيره فى خفاء ، وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدث به غيره . وعنه أيضا : السر حديث نفسك ، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ؛ أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم ، ولا تعلم ما تسر به غدا ، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسره غدا ؛ والمعنى : الله يعلم السر وأخفى من السر . وقال ابن عباس أيضا : « السر » ما أسر ابن آدم فى نفسه ، « وأخفى » ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعاله وهو لا يعلمه ، فأنه تعالى يعلم ذلك كله ، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد ، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة . وقال قتادة وغيره : « السر » ما أضمره الإنسان فى نفسه ، « وأخفى » منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال ابن زيد : « السر » من الخلائق ، « وأخفى » منه سره عز وجل ؛ وأنكر ذلك الطبرى ، وقال : إن الذى « أخفى » ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه كما قال ابن عباس . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ « الله » رفع بالابتداء ، أو على إضمار مبتدأ ، أو على البدل من الضمير فى « يعلم » . وحّد نفسه سبحانه ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فكبر ذلك عليهم ، فلم يسمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال الوليد بن المغيرة : عهد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » وهو واحد وأسماءه كثيرة ؛ ثم قال : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » وقد تقدم التنبيه عليها فى سورة « الأعراف » .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ  
 امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ  
 هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ  
 إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾  
 إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾  
 إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾  
 فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ قال أهل المعاني : هو استفهام وإثبات  
 وإيجاب معناه ؛ أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه وقد أتاك ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي :  
 لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي  
 آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل  
 وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه  
 السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيره منسه ، لئلا يروا أمراته ؛  
 فأخطأ الرفقة — لما سبق في علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة  
 الجمعة في الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شعبيا في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج  
 بأهله بغنمه ، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق  
 وتفرقت ماشيته ، فقدم موسى النار فلم تور المقدحة شيئا ، إذ بصر بنسار من بعيد على يسار  
 الطريق ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ أى أقيموا بمكانكم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرت . قال  
 ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عناب ، فوقف متعجبا من حسن ذلك  
 الضوء ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة ، ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضره تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوى : فرأى النار — فيأروى — وهى فى شجرة من العليق ، فقصدها فتأخرت عنه ، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردى : كانت عند موسى نارا ، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهِ أَمْكُثُوا » بضم الهاء ، وكذا فى « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : صررت به يارجل ؛ بخاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة . وقال : « أَمْكُثُوا » ولم يقل أقيموا ، لأن الإقامة تقتضى الدوام ، والمكث ليس كذلك . « وآنست » أبصرت ، قاله ابن الأعرابى . ومنه قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أى علمتم . وآنست الصوت سمعته ، والقبس شعلة من نار ، وكذلك المقباس . يقال : قَبَسْتُ مِنْهُ نَارًا أَقْبَسُ قَبْصًا فَأَقْبِسُنِيْ أَيْ أَعْطَانِيْ مِنْهُ قَبْصًا ، وكذلك اقْبَسْتُ مِنْهُ نَارًا ، واقْبَسْتُ مِنْهُ عِلْمًا أَيْ اسْتَفَدْتُهُ ، قال اليزيدى : أَقْبَسْتُ الرَّجُلَ عِلْمًا وَقَبَسْتُهُ نَارًا ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَبْتَهَا لَهُ قُلْتَ أَقْبَسْتُهُ . وقال الكسانى : أَقْبَسْتُهُ نَارًا أَوْ عِلْمًا سَوَاءً . وقال : وَقَبَسْتُهُ أَيْضًا فِيهِمَا . « هُدًى » أى هاديا .

قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنَاَهَا » يعنى النار ( نُودِىَ ) أى من الشجرة كما فى سورة « القصص » أى من جهتها وناحتها على ما يأتى ( يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ) .

قوله تعالى : « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طَوًى » فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ » روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : “ كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكمة صوف وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت ” قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حميد الأعرج [ حميد — هو ابن على الكوفى <sup>(١)</sup> — ] منكر الحديث ، وحميد ابن قيس الأعرج المكي صاحب مجاهد ثقة ؛ والكمة القلنسوة الصغيرة . وقرأ العامة « لَنِى » بالكسر ؛ أى نودى فقل له يا موسى لَنِى ، واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

وابن ميثم وحيد « أَيْ » بفتح الألف بإعمال النداء . واختلف العلماء في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين . والخلع النزع . والنعل ما جعلته وقاية لتقدمك من الأرض . فقيل : أمر بطرح النعلين ؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُدَكَّي ؛ قاله كعب وعكرمة وقتادة . وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادي ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريح . وقيل : أمر بخلع النعلين للنشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما لذلك الموضع كما أن الحرم لا يُدْخَلُ بنعلين إعظاما له . قال سعيد بن جبير : قيل له طي الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع ، فكان موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه ؛ ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة ، والجثة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخصاصية وهو يمشي بين القبور بنعليه : « إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك » قال : فخلعتهما . وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفرغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل . وكذلك هو في التعبير : من رأى أنه لا لبس نعلين فإنه يتروّج . وقيل : لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغي أن يطأ بساط رب العالمين بنعله . وقد يحتمل أن يكون موسى أمير بخلع نعليه ، وكان ذلك أول فرض عليه ؛ كما كان أول ما قيل لحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَانْهَهِ » والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانية — في الخبر أن موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي . وقال أبو الأحوص : زار عبد الله أبا موسى في داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى ؛ فقال أبو موسى لعبد الله : تقدم . فقال عبد الله : تقدم ؛ أنت في دارك . فتقدم وخلع نعليه ؛ فقال عبد الله : أبا الوادي المقدس أنت ؟ ! وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في نعلين؟ قال: نعم. ورواه النسائي عن عبد الله ابن السائب: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حملكم على إلقاءكم نعالكم" قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قدرا" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قدرا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما". صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة من ذك، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» على ما تقدم. وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة — فإن خلعتما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للقبري: أخلعهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموما في الصف فلا تؤذ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة — فإن تحقق فيهما نجاسة فجمع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بني آدم لم يطهرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأروائها الرطبة فهل يطهرها بالمسح بالتراب من النعل والخف أولا؟ قولان عندنا. وأطلق الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعي وأبو ثور. وقال

أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحك والفرك ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ماعدا البول ، فلا يجوز فيه عنده إلا الغسل . وقال الشافعي : لا يطهر شيئا من ذلك كله إلا الماء . والصحيح قول من قال : إن المسح يطهره من الخف والنعل ؛ لحديث أبي سعيد . فأما لو كانت النعل والخف من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليه الزهري والليث ، على ما تقدم بيانه في سورة « النحل »<sup>(١)</sup> . ومضى في سورة « براءة »<sup>(٢)</sup> القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ المقدس : المطهر . والقدس : الطهارة ، والأرض المقدسة أى المطهرة ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض ؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض ، وبعض الحيوان كذلك . والله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين ؛ فقد شاركه في ذلك غيره . و « طوى » اسم الوادى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى . وقرأ عكرمة « طوى » . الباقون « طوى » . قال الجوهرى : « طوى » اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة . وقال بعضهم : « طوى » مثل « طوى » وهو الشئ المثنى ، وقالوا في قوله « المقدس طوى » : طوى مرتين أى قدس . وقال الحسن : ثبت فيه البركة والتقديس مرتين . وذكر المهدوى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أعلى الوادى ؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه ، فكأنه قال : « إنك بالواد المقدس » الذى طويته طوى ؛ أى تجاوزته فطويته بسيرك . الحسن : معناه أنه قدس مرتين ؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضا .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ ﴾ أى أصطفيتك الرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائى « وَأَنَا آخَرْتُكَ » . وقرأ حمزة « وَأَنَا آخَرْنَاكَ » . والمعنى واحداً ، إلا أن « وَأَنَا آخَرْتُكَ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط ، والثانية أنها أولى بنسق الكلام ؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ » وعلى هذا النسق جرت المخاطبة ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ فيه مسألة واحدة — قال ابن عطية : وحدثنى أبى — رحمه الله — قال سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « أَسْمِعْ لِمَا يُوحَى » وقف على حجر ، واستند إلى حجر ، ووضع يمينه على شماله ، وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يستمع ، وكان كل لباسه صوفاً .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ » وذم على خلاف هذا الوصف فقال : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل ، وأمر عباده بذلك أدباً لهم ، فقال : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح وغلض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل ، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى ؛ وهو أن يكف العبد جوارحه ، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع ، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى ، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عيينة : أقول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له في قلبه نوراً .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ فيه سبع مسائل :  
 الأولى — اختلف في تأويل قوله : « لِذِكْرِي » فقيل : يحتمل أن يريد لتذكركني فيها ،  
 أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى  
 المفعول . وقيل : المعنى بأى حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة  
 إذ هي تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر . وقد سمي الله  
 تعالى الصلاة ذكرا في قوله : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت  
 فصل كما في الخبر " فليصلها إذا ذكرها " . أى لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانية — روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة  
 أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » " . وروى  
 أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج — وهو حجاج الأول الذى روى عنه  
 يزيد بن زريع — قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال : " كفارتها أن يصلها إذا ذكرها " تابعه  
 إبراهيم بن طهمان عن حجاج ، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الدارقطني عن  
 أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله :  
 " فليصلها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل ، كثرت الصلاة أو قلت ،  
 وهو مذهب عامة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن  
 بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ  
 لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية وغيرها من الآي . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس  
 لم يكن فعله مطابقا لما أمر به ، ولا ثواب له على فعله وهو عاص ، وعلى هذا الحد كان  
 لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة  
 أو نسيها فليصلها إذا ذكرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان  
 قضاء لا أداء ، لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول .



الثالثة — فأما من ترك الصلاة متعمداً ، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصياً إلا داود . ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعى ، حكاه عنه ابن القصار . والفرق بين المتعمد والناسى والنائم ، حط المأثم ، فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون . والحجة للجمهور قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها . وهو أمر يقتضى الوجوب . وأيضاً فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى ، مع أنهما غير مأثومين ، فالعائد أولى . وأيضاً قوله : « من نام عن صلاة أو نسيها » والنسيان الترك ، قال الله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا ينسى وإنما معناه تركهم و « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا » أى تركها . وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره . قال الله تعالى : « من ذكرنى فى نفسه ذكرتة فى نفسى » وهو تعالى لا ينسى وإنما معناه علمت . فكذلك يكون معنى قوله : « إذا ذكرها » أى علمها . وأيضاً فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه . وأيضاً فقد اتفقنا أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة . فإن قيل فقد روى عن مالك : من ترك الصلاة متعمداً لا يقضى أبداً . فالإشارة إلى أن ماضى لا يعود ، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ ، كما روى عن ابن مسعود وعلى : أن من أفطر فى رمضان عامداً لم يكفره صيام الدهر وإن صامه . ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، أو إتياعه بالتوبة ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء . وقد روى أبو المطوس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أفطر يوماً من رمضان متعمداً لم يجزه صيام الدهر وإن صامه » وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ ، وهو حديث ضعيف نرجه أبو داود . وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح ، وفى بعضها قضاء اليوم ، والحمد لله تعالى .

الرابعة — قوله عليه الصلاة والسلام : « من نام عن صلاة أو نسيها » الحديث ، يخص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : « رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ » والمراد بالرفع

هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه ، وليس هذا من باب قوله : ” وعن الصبي حتى يحتلم “ وإن كان ذلك جاء في أثر واحد ؛ فقف على هذا الأصل .

الخامسة - اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة ، أو ذكر صلاة وهو في صلاة ، بجملة مذهب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى ، بدأ بالتى نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى ، وإن فات وقت هذه . وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتى حضر وقتها ، وعلى نحو هذا مذهب أبى حنيفة والثورى والليث ؛ إلا أن أبى حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت . فإن خشي فوات الوقت بدأ بها ، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم . وقد روى عن الثورى وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير . وهو تحصيل مذهب الشافعى . قال الشافعى : الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه . وذكر الأثر أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر . وقال : لا ينبغي لأحد أن يصلى صلاة وهو ذا كرماً قبلها لأنها تفسد عليه . وروى الدارقطنى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام : ” إذا ذكر أحدكم صلاة في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صلى التى نسي “ وعمر بن أبى عمر مجهول<sup>(١)</sup> .

قلت : وهذا لو صح كانت حجة للشافعى في البداية بصلاة الوقت . والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” فوالله إن صليت<sup>(٢)</sup>ها “ فنزلنا البطحان فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها

(١) عمر بن أبى عمر : هو أحد رواة هذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس . ولفظ الحديث في الدارقطنى هكذا : ” إذا نسي أحدكم الصلاة فذكرها وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صلى التى نسي “ .  
(٢) إن نافية ؛ أى ما صليتها . (٣) بطحان ( بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء ) : موضع بالمدينة .

المغرب . وهذا نص في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق غير ممتد في الأشهر عندنا ، وعند الشافعى كما تقدم . وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالا فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء . وبهذا استدلل العلماء على أن من فائتته صلاة ، قضائها مرتبة كما فائتته إذا ذكرها في وقت واحد . واختلفوا إذا ذكر فائتة في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدمناه . الثانى — يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبى وابن وهب من أصحابنا . الثالث — يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القاضى عياض . واختلفوا في مقدار اليسير ؛ فعن مالك : الخمس فدون ، وقد قيل : الأربع فدون لحديث جابر ؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادسة — وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به ، يتأدى مع الإمام حتى يكمل صلاته . والأصل في هذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال : ” إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التى نسي ثم ليعد صلاته التى صلى مع الإمام “ لفظ الدارقطنى ؛ وقال موسى بن هرون : وحدثنا أبو إبراهيم الترمذى ، قال : حدثنا سعيد <sup>(١)</sup> [ به ] ورفعنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووهم في رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعه فقد وفق للصواب . ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصلى التى ذكرها ، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين . وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر الحارثى <sup>(٢)</sup> عن

(١) الزيادة من الدارقطنى . (٢) هذه النسبة إلى بيع الخرق والياب .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضى المذكورة ، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن خشي خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألا يعيدها ، وقد أجزأته ويقضى التي عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سلم من ركعتيه ، فإن كان إماما أنهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت . هذا هو الظاهر من مذهب مالك ، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك ؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلم . ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلم ، وصارت نافلة غير فاسدة ولو أنهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى ، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضيف إليها أخرى .

السابعة - روى مسلم عن أبي قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضاة بطوله ، وقال فيه ثم قال : ” أمّا لكم في أسوة “ ثم قال : ” أمّا إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها “ وأخرجه الدارقطني هكذا بلفظ مسلم سواء ، فظاهره يقتضي إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي ؛ ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين ، وذكر القصة وقال في آخرها : ” فمن أدرك منكم صلاة الغداة من غدٍ صالحا فليقض معها مثلها “ .

قلت : وهذا ليس على ظاهره ، ولا تعاد غير مرة واحدة ؛ لما رواه الدارقطني عن عمران بن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة - أو قال في سرية - فلما كان وقت السحر عرسنا ، فما استيقظنا حتى أيقظنا حر الشمس ، بفعل الرجل منا يئب فزعاً ديهشا ، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا ، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس ، فمضى القوم حواجهم ، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين ، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة ؛ فقلنا : يا نبي الله ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ” أينها كم الله عن الربا ويقبله منكم “ . وقال الخطابي : لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا ، ويشبه

أن يكون الأمر به استحباباً ليحترز فضيلة الوقت في القضاء . والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام : « أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم » ولأن الطرق الصحاح من حديث عمران بن حصين ليس فيها من تلك الزيادة شيء ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو محتمل كما بيناه . قلت : ذكر السكا الطبرى في « أحكام القرآن » له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ، فإذا فات الصبح فليصل من الغد . وهذا قول بعيد شاذ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُتَجَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ آية مشكلة ؛ فروى عن سعيد بن جبیر أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بفتح الهمزة ؛ قال : أظهرها . « لِيُتَجَزَى » أى الإظهار للجزاء ؛ رواه أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد ابن جبیر . وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد ؛ حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى ؛ ح — وحدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحمانى حدثنا محمد بن سهل . قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبیر : أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بضم الهمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبیر « أُخْفِيهَا » بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنبارى قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته . وأنشد الفراء لأمرئ القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِهِ \* وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدْ

أراد لا نظره ؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون « أُخْفِيهَا » بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته إذا أظهرته ؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . وقال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد . النحاس : وهذا حسن ؛ وقد

(١) حكاه عن أبي الخطاب وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأشد :

وَإِنْ تَكْتُمُوا الدَّاءَ لَا تُخْفِهِ \* وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدُ

كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون . وقال امرؤ القيس أيضا :

خَفَاهَنْ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَمَّا \* خَفَاهَنْ وَدَقَّ مِنْ عَشَى مَجْلَبٍ (٢)

أى أظهرهن . وروى : « من سحاب مرگب » بدل « من عَشَى مَجْلَب » . وقال أبو بكر

الأنباري : وتفسير للآية آخر : « إِنْ السَّاعَةُ آتِيَةٌ أَكَادَ » انقطع الكلام على « أَكَادَ » وبعده

مضمرا أكاد آتى بها ، والابتداء « أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ » . قال ضابئ البرجمي (٣) :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي \* تَرَكْتُ عَلَى عَثَمَانَ تَبْسِكِي حَلَالِيْلُهُ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه في القرآن .

قلت : هذا الذي اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خَفَى الشَّيْءُ

يُخْفِيهِ إِذَا أَظْهَرَهُ ، وقد حكى أنه يقال : أَخْفَاهُ أَيضًا إِذَا أَظْهَرَهُ ، وليس بالمعروف ؛ قال :

وقد رأيت على بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أَخْفِيهَا » عدل إلى هذا القول ، وقال :

معناه كمنى « أَخْفِيهَا » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و « أَخْفِيهَا » قراءة

شاذة ، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون

التقدير : إِنْ السَّاعَةُ آتِيَةٌ أَكَادَ آتَى بِهَا ؛ ودل « آتِيَةٌ » على آتى بها ؛ ثم قال : « أَخْفِيهَا » على

الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة ، والساعة

التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد . (٢) خفاهن : أظهرهن . والأنفاق (جمع نفق) :

وهو الحجر . والودق : المطر . والمجلب : الذي له جلب . وقوله :

ترى الغار في مستنقع القاع لاحبا \* على جدد الصحراء من شد ملهب

يقول : وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفار من حجرتها لأنه ظنه مطرا .

(٣) قاله وهو محبوب ؛ حبسه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لهجائه بعض بني جبرول بن نهشل ؛ ولم يزل

في حبسه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام فى « لَتَجْزَى » متعلقة بـ « أَخْفِيهَا » . وقال أبو على : هذا من باب الساب وليس من باب الأضداد ، ومعنى « أَخْفِيهَا » أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها تخفاء الأخفية [ وهى الأكسية ] والواحد خفاء بكسر الخاء [ ما تلف به ]<sup>(١)</sup> القربة ، وإذا زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيت ، أى ازلت شكواه ، وأعديته أى قبلت استعداءه ولم أحوجه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن « كاد » زائدة مؤكدة . قال : ومثله « إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْذِبْهَا » لأن الظلمات التى ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن جبير ، والتقدير : إن الساعة آتية أخفيا لتجزي كل نفس بما تسعى . وقال الشاعر<sup>(٢)</sup> :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سلاحه \* فما إن يكادُ قرنه يتنفسُ

أراد فما يتنفس . وقال آخر :

وَأَلَّا أَلُومَ النَّفْسَ فِيمَا أَصَابَنِي \* وَأَلَّا أَكَادَ بِالَّذِي نَلْتُ أَنْجَحُ

معناه : وألا أنجح بالذى نلت ، فأكد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أَخْفِيهَا » أى أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقوم . ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب : قاربت الفعل ولم أفعل ، وما كدت أفعل معناه : فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول الله عزت عظمته « فَذَبَّحُوا وَهَمَّ كَادُوا يَفْعَلُونَ » معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم . وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكد . وقيل : معنى « أَكَادُ أَخْفِيهَا » أريد أخفيا . قال الأنبارى : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر :

كَادَتْ وَكَدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ \* لَوْ عَادَ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عباس وأكثر المفسرين فيما ذكر الشعلبي : إن المعنى أكاد أخفيا من نفسى ، وكذلك هو فى مصحف أبى . وفى مصحف ابن مسعود : أكاد

(١) الزيادة من كتب اللغة . (٢) حوزيد الخليل .

أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق . وفى بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب فى كلامها ، من أن أحدهم إذا بالغ فى كتمان الشئ قال : كدت أخفيه من نفسى . والله تعالى لا يخفى عليه شئ ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

أَيَّامَ تَصْحَبَنِي هُنْدٌ وَأَخْبَرُهَا \* مَا أَكْتَمَ النَّفْسَ مِنْ حَاجِي وَأَسْرَارِي

فكيف يخبرها بما تكتُم نفسه . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : ” ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه “ الزمخشري وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ؛ ومحذوف لا دليل عليه مُطَّرَح ، والذى غرهم منه أن فى مصحف أبى : أكاد أخفيها من نفسى ؛ وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسى ؛ أى إن إخفاءها كان من قبلى ومن عندى لا من قبل غيرى . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسى ؛ ورواه طابحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاها . وهذا على أن كاد زائدة . أى إن الساعة آتية أخفيها ، والفائدة فى إخفائها التخويف والتهويل . وقيل : تعلق « لتجزى » بقوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى أقم الصلاة لتذكرنى « لتجزى كل نفس بما تسعى » أى يسعيها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا » . والله أعلم . وقيل : هى متعلقة بقوله : « آتية » أى إن الساعة آتية لتجزى . ( فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا ) أى لا يصرفك عن الإيمان بها والتصديق لها ( مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ) . ( فَتَرْدَى ) أى تهلك . وهو فى موضع نصب بجواب النهى .

قوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ

عَلَيْهَا وَاهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَعَارِبُ أُخْرَى (١٨)



فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ ﴾ قيل : كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا ؛ لأنه قال : « فَمَا سَمِعَ لِمَا يُوحَى » ولا بد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوة نفسه ، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آية كافية له في نفسه ، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد ، وبرهانا يلقى به قومه . واختلف في « ما » في قوله : « وَمَا تِلْكَ » فقال الزجاج والفراء : هي اسم ناقص وصلت بـ « يمينك » أى ما التى يمينك ؟ وقال أيضا : « تلك » بمعنى هذه ؛ ولو قال : ما ذلك لحاز ؛ أى ما ذلك الشيء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصا ؛ ليثبت الحجّة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل . وقال ابن الجوهري : وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن ؛ ف قيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك . وقرأ ابن أبي إسحق « عَصَى » على لغة هذيل ؛ ومثله « يَا بُشْرَى » و « نَحْيَى » وقد تقدّم . وقرأ الحسن « عَصَايَ » بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ » . وعن ابن أبي إسحق سكون الياء .

الثانية — في هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لما قال : « وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى » ذكر معانى أربعة : وهى : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ؛ والتوكؤ ، والهش ، والمأرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه عظمها وجمهورها وأجل سائر ذلك . وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال « نعم ولك أجر » . ومثله في الحديث كثير .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ أَنْوَكَّا عَلَيْهَا ﴾ أى أنحامل عليها في المشى والوقوف ؛ ومنه الاتكاء . « وَأَهْشُ بِهَا ﴾ « وَأَهْشُ » أيضا ؛ ذكره النحاس . وهى قراءة النخعي<sup>(١)</sup> ، أى أخبط بها

(١) ويروي عن النخعي أيضا أنه قرأ « وأهش » بضم الهمزة والشين من « أهش » رباعيا .

الورق، أى أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمى تناوله فتأكله .  
قال الراجز :

أَهْشُ بِالْعَصَا عَلَى أَغْنَامِي \* مِنْ نَاعِمِ الْأَرَاكِ وَالْبَشَامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهْشُ بهش يضم الهاء فى المستقبل . وهَشَّ إلى الرجل يَهْشُ بالفتح .  
وكذلك هَشَّ للعرُوف يَهْشُ وهَشَّشْتُ أنا : وفى حديث عمر : هَشَّشْتُ يوماً فقبَّات وأنا صائم .  
قال شمر : أى فرحت وأشتهيت . قال : ويجوز هَاشَ بمعنى هَشَّ . قال الراعى :

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَاشَ فَوَادُهُ \* وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلَ يَلُومَهَا

أى طرب . والأصل فى الكلمة الرخاوة . يقال : رجل هَشَّ وزوج هَشَّ . وقرأ  
عكرمة «وأهش» بالسين غير معجمة ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : معناها مختلف ؛  
فالهِشَّ بالإعجام خبط الشجر ، والهش بغير إعجام زجر الغنم ؛ ذكره الماوردى ؛ وكذلك ذكر  
الزخشمى . وعن عكرمة : «وأهش» بالسين أى أنحى عليها زاجراً لها والهش زجر الغنم .  
الرابعة - قوله تعالى : ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ أى حوايج . واحداً مَأْرِبَةً وَمَأْرِبَةٌ  
ومَأْرِبَةٌ . وقال : «أخرى» على صيغة الواحد ؛ لأن مَأْرِبَ فى معنى الجماعة ، لكن المهيَّج فى توابع  
جمع ما لا يعقل الأفراد والكناية عنه بذلك ؛ فإن ذلك يجرى مجرى الواحدة المؤنثة ؛ كقوله  
تعالى : «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» وكقوله : «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ» وقد تقدّم هذا  
فى «الأعراف»<sup>(٢)</sup> .

الخامسة - تعرض قوم لتعدد منافع العصا منهم ابن عباس ، قال : إذا انتهيت  
إلى رأس برّ فقَصُرَ الرِّشَا وصلته بالعَصَا ، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض  
وألقيت عليها ما يظلمنى ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقىتها  
على عاتق وعلقت عليها القوس والكمانه والمخلاة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

(١) المهيَّج : الطريق الواضح الواسع البين . (٢) ج ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وروى عنه ميمون بن مهران قال : إمساك العصا سنة للأنبياء ، وعلامة للمؤمن . وقال الحسن البصرى : فيها ست خصال ؛ سنة للأنبياء ، وزينة للصالحاء ، وسلاح على الأعداء ، وعون للضعفاء ، وغم المنافقين ، وزيادة فى الطاعات . ويقال : إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ، ويخشع منه المنافق والفاجر ، وتكون قبلته إذا صلى ، وقوة إذا أعيا . ولقى الحجاجُ أعرابيا فقال : من أين أقبلت يا أعرابى ؟ قال : من البادية . قال : وما فى يدك ؟ قال : عصاى أركزها لصلاتى ، وأعدّها لعدائى ، وأسوق بها دابجى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد بها فى مشيتى لتتسع خطوتى ، وأثب بها النهر ، وتؤمننى من العثر ، وألقى عليها كسائى فيقبنى الحتر ، ويدفئنى من القتر ، وتدنى إلى ما بعد منى ، وهى تحمل سُفرتى ، وعلاقة إداوتى ، أعصى بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتقى بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرح فى الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى ، وأورثها بعدى أبنى ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مأرب أخرى ، كثيرة لا تحصى .

قلت : منافع العصا كثيرة ، ولها مدخل فى مواضع من الشريعة : منها أنها تتخذ قبلة فى الصحراء ؛ وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عِزَّةٌ تُركز له فيصلى إليها ، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلى إليها ؛ وذلك ثابت فى الصحيح . والحربة والعزّة والنيزك والآلة اسم لمسمى واحد . وكان له محجّن وهو عصا معوجة الطرف يشير به إلى الحجر إذا لم يستطع أن يقبله ؛ ثابت فى الصحيح أيضا . وفى الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبى بن كعب وقيما الدارى أن يقوموا للناس بإحدى عشرة ركعة ، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصى من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغ الفجر . وفى الصحيحين : أنه عليه الصلاة والسلام كان له محصورة<sup>(٢)</sup> . والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئا على سيف أو عصا ، فالعصا مأخوذة من أصل كريم ، ومعدن شريف ، ولا ينكرها إلا جاهل . وقد جمع الله لموسى

(١) العزّة : مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح . (٢) المحصورة بانحاء المعجمة والصاد المهملة : ما يخنصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقربة أو قضيب وقد يتكى عليه . النهاية .

في عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون . وأتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته . وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعزته ، وكان يخطب بالقضيب — وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا — وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب . وأنكرت الشعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعاني . والشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم . قال مالك : كان عطاء بن السائب يمسك المخصرة يستعين بها . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفي مشيئة كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشي على رجلين معتمداً \* فصرتُ أمشي على أخرى من الخشب

قال مالك رحمه الله ورضي عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصى يتوكئون عليها، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم<sup>(١)</sup>، ويصلح حاله وحالهم معه . ومنه قوله عليه السلام : ” وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه “ في إحدى الروايات . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : ” لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم في الله “ رواه عبادة بن الصامت ، أخرجه النسائي . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : ” علق سوطك حيث يراه أهلك “ وقد تقدم هذا في « النساء » . ومن فوائد التنبيه على الانتقال من هذه الدار، كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إني أعلم أني مسافر، وأنها دار قلعة، وأن العصا من آلة السفر، فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملتُ العصا لا الضعف أوجب حملها \* على ولا أني تخنيتُ من كبر

ولكنني ألزمتُ نفسي حملها \* لأعلمها أن المقيم على سفر

(١) هذا من حديث فاطمة بنت قيس، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومارية بن أبي سفيان خطباها فقال : ” أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما مارية فصملوك لا مال له “ الترمذي . (٢) راجع ج ٥ ص ١٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدْرِبه في تلقى النبوة وتكاليفها أمره بالقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها ، وكانت عصا ذات شعبتين فصارت الشعبتان لها فمًا ، وصارت حية تسعى أى تنتقل ، وتمشى وتلتقم الحجارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة في « مولى مُدِيرًا وَلَمْ يَعْقِبْ » فقال الله له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » وذلك أنه « أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً » أى لحقه ما يلحق البشر . وروى أن موسى تناولها بكى جُبَّتَهُ فَنَهَى عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهى سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون . ويقال : إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله ، وتضئ له الشعبتان بالليل كالشمع ؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالداو ، وإذا اشتبهى ثمرة ركرها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة . وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : آناه جبريل بها . وقيل : ملك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوَقَعْتَ بيده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ النحاس : ويجوز « حَيَّةٌ » ؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالسا ، والوقف « حَيَّةٌ » بالهاء . والسعى المشى بسرعة وخفة . وعن ابن عباس : أنقلب ثعبانا ذكرا يتلعب الصخر والشجر ، فلما رآه يتلعب كل شيء خافه ونفر منه . وعن بعضهم : إنما خاف منه لأنه عرف ما لقي آدم منها . وقيل لما قال له ربه : « لَا تَخَفْ » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيتها . ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ سمعت على بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل « وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » قال : ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمُّهُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ يجوز في غير القرآن ضُمَّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل . ويجوز الضم على الإبتاع . ويد أصلها يَدَى على فَعَل ؛ يدل على ذلك أيده . وتصغيرها يَدِيَّة . والجناح العضد ؛ قاله مجاهد . وقال : « إلى » بمعنى تحت . قطرب : « إلى جَنَاحِكَ » إلى جيبك ؛ ومنه قول الراجز :  
 \* أَضْمُهُ لِلصَّدرِ وَالْجَنَاحِ \*

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل في محل الجناح . وقيل : إلى عندك . وقال مقاتل : « إلى » بمعنى مع أى مع جناحك . و ﴿ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير برص نورا ساطعا ، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا . عن ابن عباس وغيره : نخرجت نورا مخالفة لونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفى التانيث لا يزالانها فكان لزومهما علّة ثانية ، فلم ينصرف في النكرة ، وخالفنا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » « من » صلة « بَيْضَاءَ » كما تقول : ابيضت من غير سوء . ﴿ آيَةٌ أُخْرَى ﴾ سوى العصا . فأخرج يده من مدرعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشى البصر . و « آيَةٌ » منصوبة على البسمل من بَيْضَاءَ ؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آيتناك آية أخرى أو تؤتيك ؛ لأنه لما قال : « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . ﴿ لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ يريد العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة ، وإنما قال « الكبرى » لوافق رؤوس الآي . وقيل : فيه إضمار ؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى ؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعالى : أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَخْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَازِلُونَ أَتَى ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كُنْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذِيرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ لما آتسسه بالعصا واليد ، وأراه ما يدل على أنه رسول ، أمره بالذهاب إلى فرعون ، وأن يدعو . و « طغى » معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد . ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَـٰرُونَ أَخِي ﴾ طاب الإعانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرنى أن آتسسه وقد ربطت على قلبه ؛ فأناه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي » أى وسعه ونوره بالإيمان والنبوة . « وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي » أى سهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي » يعنى العجمة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رتّة . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمه ، وأخذ بلحيته فتفتقها فقال فرعون لآسية : هذا عدوى فهات الذبّاحين . فقالت آسية : على رسلك فإنه صبيّ لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطستين فجعلت فى أحدهما جمرًا وفى الآخر جوهرا ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه ، فكانت تلك الرتّة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ . ولما دعاه قال : إلى أى ربّ تدعونى؟ قال : إلى الذى أبرأ يدي وقد عجّزت عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لثلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتتعقد بينهما حرمة المؤاكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الرتّة ؛ فقيل : زالت بدليل قوله : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » . وقيل : لم تزل كلها ؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » . ولأنه لم يقل : أحلل كل لسانى ، فدل على أنه بقى فى لسانه شيء من الاستمساك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « أُوتِيتَ سُؤْلَكَ » وإنما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » لأنه عرف منه تلك العقدة فى التريبة ، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قالت : وهذا فيه نظري ؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ بَيْنَ » حين كلمه موسى بلسان ذلق فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . ( يَفْقَهُوا قَوْلِي ) أى يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه فى كلام العرب الفهم . قال أعرابي لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : فقه الرجل بالكسر . وفلان لا يفقه ولا يفقه . وأفقهتك الشيء . ثم خص به علم الشريعة ، والعالم به فقيه . وقد فقه بالضم فقاهاه وفقهه الله وتفقه إذا تعاطى ذلك . وفاقهته إذا باحثته فى العلم ؛ قاله الجوهري . والوزير المؤازر كالأكيل للمؤاكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أى ثقله . فى كتاب النسائي عن القاسم بن محمد : سمعت عمى تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه " . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله " رواه البخارى . فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى لا يكون شريكاً له فى النبوة ، ولولا ذلك لحاز أن يستوزره من غير مسئلة . وعين فقال : « هَرُونَ » . وانتصب على البديل من قوله : « وَزِيرًا » . ويكون منصوباً بـ « أاجعل » على التقديم والتأخير ، والتقدير : واجعل لى هرون أخى وزيراً . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث . ( أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ) أى ظهري . والأزر الظهر من موضع الحقوقين ، ومعناه تقوى به نفسه ؛ والأزر القوة ، وأزره قواه . ومنه قوله تعالى : « فَأَزَرَهُ فَأَسْخَطَ » . وقال أبو طالب :  
أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَهُ \* وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

وقيل : الأزر العون . أى يكون عوناً يستقيم به أمرى . قال الشاعر :  
شَدَدْتُ بِهِ أَزْرِي وَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ \* أخو الفقر من ضاقت عليه مذهبته

(١) معناه لا يعلم ولا يفهم . ونقبت الحديث أنفه إذا فهمته .

(٢) هذا البيت فى قصيدة له قالها فى أمر الشعب والصحيفة .



وكان هرون أكثر لحما من موسى ، وأتم طولا ، وأبيض جسما ، وأفصح لسانا . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان فى جبهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة ، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده ، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التى فى لسانه . والله أعلم . ﴿ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِى ﴾ أى فى النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر ، فأمر الله موسى أن يأتى هو هرون ، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى ، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه ، فقال له موسى : إن الله أمرنى أن آتى فرعون فسألت ربى أن يجعلك معى رسولا . وقرأ العامة « أنخى أشدُّ » بوصل الألف « وَأَشْرِكُهُ » بفتح الهمزة على الدعاء ، أى أشدد يارب أزرى ، وأشركه معى فى أمرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبي إسحق « أشدُّ » بقطع الألف « وَأَشْرِكُهُ » أى أنا يارب « فى أمرى » . قال التحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله : « أَجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وهذه القراءة شاذة بعيدة ، لأن جواب مثل هذا إنما يخرج بمعنى الشرط والمجازاة ، فيكون المعنى : إن تجعل لى وزيرا من أهلى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . وأمره النبوة والرسالة ، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه فى النبوة . وفتح الياء من « أنخى » ابن كثير وأبو عمرو . ﴿ كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معنى « نسبحك » نصلى لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أى نزهك عما لا يليق بحلالك . « وكثيراً » نعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نعتا لوقت . والإدغام حسن ، وكذا ﴿ وَنَذْكُرْكَ كَثِيرًا ﴾ . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ نَبًا بَصِيرًا ﴾ قال الخطابى : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى : أى عالمنا بنا ، ومدركنا لنا فى صغرنا فأجسنت إلينا ، فأحسن إلينا كذلك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي

وَعَدُو لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٤٩﴾ إِذْ تَمْشِي  
أَخْيُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ  
كَئِ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ  
فُتُونًا ۚ فَلَمِيتَ سِنِينَ ۚ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴿٥٠﴾  
وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٥١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنِيَا  
فِي ذِكْرِي ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر  
إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طلبته ومرغوبه . والسؤل الطلبة؛ فُعل بمعنى مفعول،  
كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى ما كول . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً  
أُخْرَى ﴾ أى قبل هذه، وهى حفظه سبحانه له من شر الأعداء فى الابتداء؛ وذلك حين الذبح .  
والله أعلم . والمن الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ قيل :  
« أوحينا » ألهمنا . وقيل : أوحى إليها فى النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى  
إلى النبيين . ﴿ إِنَّ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع  
التابوت ونجّره وكان اسمه حرقيل . وكان التابوت من جُمُيز . ﴿ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى أطرحه  
فى البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ » أمر وفيه معنى المجازاة .  
أى أقذفه يلقيه اليم . وكذا قوله : « أَتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي  
وَعَدُوُّهُ ﴾ يعنى فرعون ؛ فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا، ووضعت فيه موسى، وقيرت  
رأسه ويخصاصه — يعنى شقوقه — ثم ألقيه فى النيل، وكان يشّرع منه نهر كبير فى دار فرعون،  
فساقه الله فى ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا، فوضعت  
فيه وقيرته وجصصته، ثم ألقيه فى اليم . وكان يشّرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينما  
هو جالس على رأس بركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي أصبح

الناس ، فأحبهه عندو الله حباً شديداً لا يتألك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون إلقاء اليم بموضع من الساحل ، فيه فوهة نهر فرعون ، ثم أذاه النهر إلى حيث البركة . والله أعلم .

وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص ، فلما فتحت التابوت شفيت . وروى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدرُوا عليه ، وعالجوا كسره فأعياهم ، فذنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا فعالتته ففتحته ، فإذا صبي نور بين عينيهِ ، وهو يمض إبهامه لبنا فأحبوه . وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يوجد فيه شبيه إنسان دواؤها ريقه ، فلطبخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جوارٍ لامرأة فرعون ، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبياً من أصبح الناس وجهها ، فأحبه فرعون ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحبَّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كانت في عيني موسى ملاحه ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه . وقال عكرمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحه فلا يراك أحد إلا أحبك . وقال الطبري : المعنى وألقيت عليك رحمتي . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسأمت من شره ، وأحبك آسية بنت مُزاحم فتبتك . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعيني حيث جُعلت في التابوت ، وحيث ألقى التابوت في البحر ، وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون ، فأردن أن يفتحن التابوت لينظرون ما فيه ، فقالت منهن واحدة : لا تفتحنه حتى تأتين به سيدتكن فهو أحظى لكن عندها ، وأجدر بالآ تهمكن بأنكن وجدتن فيه شيئاً فأخذتموه لأنفسكن . وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقينه أولئك الجوارى . فذهبن بالتابوت إليها مغلقاً ، فلما فتحته رأت صبياً لم ير مثله قط ، وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون ، فقالت له : « قَرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » قال لها فرعون : أما لك فنعم ، وأما لي فلا . فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن فرعون قال

نعم هو قرة عين لي ولك لا من وصدق" فقالت : هبه لي ولا تقتله ؛ فوهبه لها . وقيل :  
« وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أي تُرَبَّى وتُغَدَّى على مرأى مني ؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك  
معروف في اللغة ؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعتة إذا أحسنت القيام عليه . والمعنى « وَلِتُصْنَعَ  
على عيني » فعلت ذلك . وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : « إِذ تَمْشِي أَخْتُكَ » على  
التقديم والتأخير . « إِذ » ظرف « لِتُصْنَعَ » . وقيل : الواو في « وَلِتُصْنَعَ » زائدة . وقرأ  
ابن القَعْقَاع « وَلِتُصْنَعَ » بإسكان اللام على الأمر ، وظاهره للمخاطب والمأمور غائب . وقرأ  
أبو نُهَيْك « وَلِتُصْنَعَ » بفتح التاء . والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى عين مني .  
ذكره المهدوي . « إِذ تَمْشِي أَخْتُكَ » العامل في « إِذ تَمْشِي » « أَلْقَيْتُ » أو « تصنع » .  
ويحوز أن يكون بدلا من « إِذ أَوْحَيْنَا » وأخته اسمها مريم . « فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن  
يَكْفُلُهُ » وذلك أنها خرجت متعرفة خبره ، وكان موسى لما وهبه فرعون من امرأته طلبت  
له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته ، فأخذته ووضعت في حجرها وناولته  
ثديها فمصه وفرح به . فقالوا لها : تقيمين عندنا ؛ فقالت : إنه لا ابن لي ولكن أدلكم  
على من يكفله وهم له ناصحون . قالوا : ومن هي ؟ . قالت : أمي . فقالوا : لها لبن ؟ قالت :  
لبن أخي هرون . وكان هرون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع ؛  
وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرغ عنهم القتل أربع سنين ، فولد هرون فيها ؛ قاله ابن  
عباس . بخاءت الأم فقبل ثديها . فذلك قوله تعالى : « فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ » وفي مصحف  
أبي « فرددناك » . « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » وروى عبد الحميد عن ابن عامر « كَيْ تَقَرَّ  
عَيْنُهَا » بكسر القاف . قال الجوهري : وقررت به عينا وقررت به قرة وقرورا فيهما .  
ورجل قرير العين ؛ وقد قررت عينه تَقَرَّ وتَقَرَّ تقيض سخنت . وأقر الله عينه أي أعطاه حتى  
تقر فلا تطمح إلى من هو فوقه ، ويقال : حتى تبرد ولا تسخن . وللسرور دمة باردة ،  
وللحزن دمة حارة . وقد تقدم هذا المعنى في « مريم » . « وَلَا تَحْزَنَ » أي على فقدك .  
« وَقَتَلْتَ نَفْسًا » قال ابن عباس : قتل قبطيا كافرا . قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثني

عشرة سنة . فى صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ؛ على ما يأتى . ﴿ فَجَنَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أى آمناك من الخوف والقتل والحبس . ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أى اختبرناك اختباراً حتى صالحت للرسالة . وقال قتادة : بلوناك بلاء . مجاهد : أخلصناك إخلاصاً . وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة ، أولها حملته أمه فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه فى اليم ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى أمه ، ثم جره بالحية فرعون ، ثم تناوله الجمره بدل الذرة ؛ فدرأ ذلك عنه قتل فرعون ، ثم قتله القبطى وخروجه خائفاً يترقب ، ثم رعايته الغم ليتدرب بها على رعاية الخلق . فيقال : إنه ندّ له من الغم جدّى فاتبعه أكثر النهار ، وأتعبه ، ثم أخذه فقبله وضمه إلى صدره ، وقال له : أتعتبى وأتعبت نفسك ؛ ولم يغضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا آخذ الله كلياً ؛ وقد مضى فى « النساء »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ يريد عشر سنين أتمّ الأجلين . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة ، منها عشر مهر أمراؤه صفورا أبنة شعيب ، وثمانى عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : ﴿ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقاً للنبوة والرسالة ؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قدر » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذى قدرت لك أنك تجيء فيه . والمعنى واحد . أى جئت فى الوقت الذى أردنا إرسالك فيه . وقال الشاعر :

نال الخلافه أو كانت له قدراً \* كما أتى ربّه موسى على قدر

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ قال ابن عباس : أى اصطفتيك لوحى ورسالتى . وقيل : « اصطنعتك » خلقتك ؛ مأخوذ من الصنعة . وقيل : قويتك وعلمتك لتبلغ عبادى أمرى ونهى . ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التى أنزلت عليه . ﴿ وَلَا تَبَيَّنْ فِي كَرْمِي ﴾ قال ابن عباس : تضعفاً أى فى أمر الرسالة ؛ وقاله قتادة . وقيل : تفترا . قال الشاعر :

فما ونى محمد مدائن غفر \* له الإله ما مضى وما غفر

وَأَلَوْنِي الضَّعْفَ والْفَتُورَ، وَالْكَلالَ والإِعياءَ . وقال امرؤ القيس :

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى \* أَثَرَتْ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمَرْكَلِ<sup>(١)</sup>

ويقال : ونيت في الأمر أُنِي وَنَى وَوَنِيًّا أُنِي ضَعُفْتُ ، فَأَنَا وَإِنْ وَنَاقَةً وَانِيَّةً وَأُونَيْتُهَا أَنَا أَضَعُفْتُهَا وَأَتَعَبْتُهَا . وفلان لَا يَنْتِي كَذَا ، أُنِي لَا يَزَالُ ، وَبِهِ فَسَّرَ أَبَانُ مَعْنَى الْآيَةِ وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ طَرْفَةِ :

كَأَنَّ الْقُدُورَ الرَّاسِيَاتِ أَمَامَهُمْ \* قَبَابٌ بَنَوَهَا لَا تَنِي أَبَدًا تَغْلِي

وعن ابن عباس أيضا : لَا تَبْطِئَا . وفي قراءة ابن مسعود « وَلَا تَهِنَا فِي ذِكْرِي » وتحميدي وتحميدي وتبلغ رسالتي .

قوله تعالى : أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٣٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا

لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٣٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَا ﴾ قال في أول الآية : « أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ يَا بَاتِي » وقال هنا : « أَذْهَبَا » فقليل : أمر الله تعالى موسى وهرون في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون ، وخاطب أولًا موسى وحده تشريفا له ؛ ثم كرر للتأكيد . وقيل : بين بهذا أنه لَا يَكْفِي ذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس ، والثاني بالذهاب إلى فرعون .

الثانية — في قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا ﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة ، وضمنت له العصمة ، ألا تراه قال : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا » . وقال : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى » فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الأمر والنهي على مرغوبه ، ويظفر بمطلوبه ؛ وهذا واضح .

(١) مسح معناه يصب الجري صبا . والسابحات اللاتي عدوهن سباحة ؛ والسباحة في الجري بسط الأيدي . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذي يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل المريعة إذا فترت فأنارت الغبار بأرجلها من التعب ، جرى هذا الفرس جريا مهلا .

الثالثة — واختلف الناس فى معنى قوله «لَيْنًا» فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة : معناه كُنْيَاهُ ؛ وقاله ابن عباس وعُجَاهِد والسدى . ثم قيل : وكُنْيَتُهُ أَبُو الْعَبَّاس . وقيل : أَبُو الْوَلِيد . وقيل : أَبُو صُرَّة ؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُمع بإسلامه . وقد يجوز ذلك وإن لم يُطْمَع بإسلامه ؛ لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا . وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا أنا كرم قوم فأكرمهم» ولم يقل وإن طمعتهم فى إسلامه ، ومن الإكرام دعائوه بالكنية . وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : «انزل أبا وهب» فكاه . وقال لسعد : «ألم تسمع ما يقول أبو حُبَاب» يعنى عبدالله بن أبى . وروى فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة ، لا يجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فجرى له ما قص الله علينا من ذلك ، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين ، وربك أعلم بالمهتدين . وقيل قال له موسى : تؤمن بما جئتُ به ، وتعبد رب العالمين ؛ على أن لك شبابا لا يهزم إلى الموت ، وملكا لا يترع منك إلى الموت ، وينسأ فى أجلك أربعمائة سنة ، فإذا مت دَخَلت الجنة . فهذا القول اللين ، وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : «فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى . وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يا فرعون إنا رسولا ربك رب العالمين . فسماه بهذا الاسم لأنه أحب إليه مما سواه مما قيل له ، كما يسمى صندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللين هو القول الذى لا خشونة فيه ؛ يقال : لان الشئ يابن لينا ، وشئ لين ولين مخفف منه ؛ والجمع أليناء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا ، فمن دونه أخرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه ، وأمره بالمعروف فى كلامه . وقد قال تعالى : «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» . على ما تقدم فى «البقرة» بيانه والحمد لله .<sup>(١)</sup>

الرابعة — قوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ معناه : على رجائكما وطمعكما ؛ فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر ؛ قاله كبراء النحويين : سيمويه وغيره . وقد تقدم فى أول «البقرة»<sup>(٢)</sup> . قال الزجاج : «لعل» لفظ طمع وترج نخطبهم بما يعقلون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى

(١) راجع ج ٢ ص ١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكره. وقيل: هي بمعنى كى، وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى؛ قاله الحسن. وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشى فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ». ولكن لم ينفعه ذلك؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره. وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية: هذا رفئك بمن يقول أنا الإله فكيف رفئك بمن يقول أنت الإله؟! وقد قيل: إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه، وشاور أمرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل؛ بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا. وقال له: أنا أردك شابا؛ فغضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب.

قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ قال الضحاك: «يُفْرِطُ» يَعَجَل. قال: و«يَطْغَى» يعتدى. النحاس: التقدير نخاف أن يفراط علينا منه أمر، قال الفراء: فرط منه أمر أى بدر؛ قال: وأفراط أسرف. قال: وفرط ترك. وقراءة الجمهور «يُفْرِطُ» بفتح الياء وضم الراء، ومعناه يعجل ويبادر بعقوبتنا. يقال: فرط منى أمر أى بدر؛ ومنه الفارط فى المساء الذى يتقدم القوم إلى المساء. أى يعذبنا عذاب الفارط فى الذنب وهو المتقدم فيه؛ قاله المبرد. وقرأت فرقة منهم ابن محيصن «يُفْرِطُ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوى: ولعلها لغة. وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يجعله حامل على التسرع إلينا. وقرأت طائفة «يُفْرِطُ» بضم الياء وكسر الراء؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضا. ومعناه يشطط فى أذيتنا؛ قال الراجز:

\* قد أفراط العُجْ علينا وعجل \*

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾



فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرفتهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الآية ترد على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصرى رحمه الله حين قال للخبر عن عامر بن عبد الله — أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال الأسد بينهم وبين الماء ، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته ، فقليل له : فقد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأُسنة في جوفى أحب إلى من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه — قد خاف من كان خيرا من عامر ؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . نَخْرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وقال حين ألقى السحرة جباهم وعصيتهم : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

قلت : ومنه حفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يحمله أحد من تحولهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنوه عن بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبت يا عمر ؛ كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ ، وَيَعْظُمُ جَاهَلَكُمْ ، وَكُنَّا فِي دَارٍ — أَوْ أَرْضٍ — الْبُعْدَاءِ الْبُغْضَاءِ<sup>(١)</sup> فِي الْحَبَشَةِ ؛ وذلك في الله ورسوله ؛ وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نُؤْذَى وَنُخَافُ . الحديث بطوله خرجه مسلم . قال العلماء : فالخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم

(١) البعداء : أى في النسب . البغضاء : أى في الدين وقول أسماء : كذبت يا عمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[عليه] كاذب ؛ وقد طبعهم على الحرب مما يضرها ويؤلمها أو يئلفها . قالوا : ولا ضار أضرَّ من سبع عادي في فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه ، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانية - قوله تعالى : (( إِنِّي مَعَكُمْ )) يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون . وهذا كما تقول : الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحميه . وقوله : (( أَسْمَعْ وَأَرَى )) عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْلِي ۖ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۖ

قوله تعالى : (( فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ )) في الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . (( فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ )) أي خلَّ عنهم . (( وَلَا تَعَذِّبْهُمْ )) أي بالسَّخرة والتعب في العمل ، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المسدائن ، لا يطيقونه . (( قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مِّنْ رَبِّكَ )) قال ابن عباس : يريد العصا واليد . وقيل : إن فرعون قال له : وما هي ؟ فأدخل يده في جيب قميصه ، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع مثل شعاع الشمس ، غلب نورها على نور الشمس فعجب منها . ولم يره العصا إلا يوم الزينة . (( وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْلِي )) قال الزجاج : أي من أتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لِقَاءٍ ولا خطاب .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء . ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾  
يعنى الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى جهنم فى الآخرة ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿ وَتَوَلَّى ﴾  
أعرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا .  
قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ذكر فرعون موسى دون هرون لرؤوس  
الآى . وقيل : خصصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنهما جميعا  
بلغا الرسالة وإن كان ساكتا ؛ لأنه فى وقت الكلام إنما يتكلم واحد ، فإذا أقطع وازره الآخر  
وأيدته . فصار لنا فى هذا البناء فائدة علم ؛ أن الاثنين إذا قلدا أمرا فقام به أحدهما ، والآخر  
شخصه هناك موجود مستغنى عنه فى وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذى قلدا وقاما به  
وأستوجبا الثواب ؛ لأن الله تعالى قال : « أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وقال : « أَذْهَبْ أَنْتَ  
وَأَخُوكَ » وقال : « فَقُولَا لَهُ » فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول ، ثم أعلمنا فى وقت الخطاب  
بقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا » أنه كان حاضرا مع موسى . ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ  
شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أى أنه يُعرف بصفاته ، وليس له اسم علم حتى يقال فلان ، بل هو خالق العالم ،  
وهو الذى خص كل مخلوق بهيئة وصورة ، ولو كان الخطاب معهما لقالا : قالا ربنا .  
« وَخَلَقَهُ » أول مفعولى أعطى ، أى أعطى خلقته كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ،  
أو ثانيهما أى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ؛ على قول  
الضحاك على ما يأتى . ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شىء  
زوجه من جنسه ، ثم هداه إلى منكره ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم  
هداه إلى الألفة والاجتماع والمناخلة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شىء صلاحه ، وهداه  
لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شىء صورة ؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم ،  
ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شىء فقدره تقديرا . وقال الشاعر :

وله فى كُلِّ شَيْءٍ خَلْقُهُ \* وكذلك الله ما شاء فعلى

يعنى بالخلقة الصبورة ؛ وهو قول عطية ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له . يعنى اليد للبهش ، والرجل للشئ ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال الفراء : خالق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للانثى . فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس ، والآية بعمومها نتناول جميع الأقوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » بفتح اللام ، وهى قراءة ابن أبى إسحق . ورواها نصير عن الكسائى وغيره ؛ أى أعطى بنى آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه . فالقراءتان متفقتان فى المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥٤﴾ قَالَ عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٥﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البال الحال ؛ أى ما حالها وما شأنها ، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أى إن هذا من علم الغيب الذى سألت عنه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبيد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله فى اللوح المحفوظ . وقيل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقرؤا بذلك . أى فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى ، ومحفوظة عنده فى كتاب . أى هى مكتوبة فسيجازيهم غدا بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل : هو كتاب مع بعض الملائكة .

الثانية — هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتى تدل على تدوين العلوم وكتبتها لسلا تُنسى . فإن الحفظ قد تعثر به الآفات من الغلط والنسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : «علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتى تغلب غضبى» . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبى هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث ويعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أسمع منك الحديث يعجبني ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «آستعن بيمينك» وأوماً إلى الخط . وهذا نص . وعلى جواز كتب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكتب الخطبة التى خطب بها فى الحج لأبى شاه — رجل من اليمن — لما سأله كتبها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «قيدوا العلم بالكتابة» . وقال معاوية بن قرة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكتب ؛ فروى أبو نصره قال قيل لأبى سعيد : أنكتب حديثكم هذا ؟ قال : لم تجعلونه قرآنا ؟ ولكن أحفظوا كما حفظنا . ومن كان لا يكتب الشعبى ويونس بن عبيد وخالد الحذاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا ، فلما حفظته محوته — وآبن عون والزهرى . وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضمرة . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قط إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذاء مثل هذا . وحديث الأعماق أخرجه مسلم فى آخر الكتاب : «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق<sup>(١)</sup> — أو — بدابق» الحديث ذكره فى كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أدريس وهشيم وغيرهم . وهذا احتياط على الحفظ . والكتب أولى على الجملة ، وبه وردت الآى والأحاديث ؛ وهو مروى عن عمر وعلى وجابر وأنس رضى الله عنهم ، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ ودابق : اسم موضع سوق بها . والشك من الراوى .

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم؛ قال الله تعالى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَوَّاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». وقال تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ». وقال تعالى: «وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً» الآية. وقال تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ». وقال: «عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ» إلى غير هذا من الآي. وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكُتُب من كره من الصمد الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد لئلا يعتمد الكاتب فيه ماله، أو يرغب عن حفظه والعمل به؛ فأما الوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقل متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى؛ فإن أحتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُجْهُ» نخرجه مسلم؛ فالجواب أن ذلك كان متقدما؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبي شاه وغيره. وأيضا كان ذلك لئلا يخطئ بالقرآن ما ليس منه. وكذا ما روى عن أبي سعيد أيضا — حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى — إن كان ممنوعا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن.   
 الثالثة — قال أبو بكر الخطيب: ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد؛ ثم الخبر خاصة دون المداد لأن السواد أصبغ الألوان، والخبر أبقاها على مر الدهور. وهو آلة ذوى العلم، وعدة أهل المعرفة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال: رأيت الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبر وأنا أخفيه؛ فقال: لم تخفيه وتسمته؟ إن الخبر على الثوب من المروءة لأن صورته في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض. وقال خالد بن يزيد: الخبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخُلُق في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البلوي فقال:

مِدَادُ الْمُحَايِرِ طِيبُ الرِّجَالِ \* وَطِيبُ النِّسَاءِ مِنَ الزَّعْفَرَانِ

فَهَذَا يَلِيقُ بِأَثْوَابِ ذَا \* وَهَذَا يَلِيقُ بِثَوْبِ الْحَصَانِ

(١) لافرق في اللغة بين المداد والخبر؛ ولعل المراد الكتابة بالخبر الأسود خاصة؛ فالتفرقة بحسب اللون على ما يبدو.

(٢) الخلق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره.

وذكر الماوردي أن عبد الله بن سليمان فيما حكى ؛ رأى على بعض شبابه أثر صفرة ؛ فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ؛ ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ؛ وأنشد :

إِنَّمَا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ الْمَذَارِي \* وَمِدَادُ الدَّوَى عِطْرُ الرِّجَالِ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَا يُضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ اختلف في معناه على أقوال خمسة ؛ الأول : إنه ابتداء كلام ؛ تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم في قوله : « في كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضل » لا يهلك من قوله : « أَمَّا ضَلَّانَا فِي الْأَرْضِ » . « وَلَا يَنسَى » شيئاً ؛ نزّهه عن الهلاك والنسيان . القول الثاني : « لَا يُضِلُّ » لا يخطئ ؛ قاله ابن عباس ؛ أي لا يخطئ في التدبير ؛ فن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابي : أصل الضلال الغيوبة ؛ يقال : ضلّ الناسي إذا غاب عنه حفظ الشيء . قال : ومعنى « لَا يُضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » أي لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضاً وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى — : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى ؛ لا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابي . وقول خامس : إن « لَا يُضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » في موضع الصفة لـ « كتاب » أي الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أي غير ذاهب عنه . « وَلَا يَنسَى » أي غير ناسٍ له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعلى هذا يكون الكلام متصلاً ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّني الشيء إذا لم أجده ، وأضلّته أنا إذا تركته في موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وطاسم الجحدري وابن كثير فيما روى شبل عنه « لَا يُضِلُّ » بضم الياء على معنى لا يضيعه ربّي ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق ؛ وأضل الشيء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لَا يُضِلُّ رَبِّي » أي لا يضيع ؛ هذا مذهب العرب .

قوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا  
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾  
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾  
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا »<sup>(١)</sup> « الذي » في موضع نعت « لربي »  
أى لا يضل ربي الذي جعل . ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمرة أى هو « الذي » .  
ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أغنى . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » هنا وفي « الزحرف » بفتح  
الميم وإسكان الهاء . الباقيون « مِهَادًا » وأختره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة  
« أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » . النحاس : والجمع أولى لأن « مهدا » مصدر وليس هذا موضع  
مصدر إلا على حذف ؛ أى ذات مهد . المهدوى : ومن قرأ « مَهْدًا » جاز أن يكون مصدرا  
كالقرش أى مهد لكم الأرض مَهْدًا ؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف ؛ أى ذات  
مهد . ومن قرأ « مِهَادًا » جاز أن يكون مفردا كالفرش . وجاز أن يكون جمع « مهدي » أستعمل  
استعمال الأسماء فكسر . ومعنى « مِهَادًا » أى فراشا وقرارا تستقرون عليها . « وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا  
سُبُلًا » أى طرقا . نظيره « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » .  
وقال تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . « وَأَنْزَلَ  
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » تقدم معناه . وهذا آخر كلام موسى ، ثم قال الله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا بِهِ » .  
وقيل : كله من كلام موسى ؛ والمعنى « فأخرجنا به » أى بالحرث والمعالجة ؛ لأن الماء المنزل  
سبب خروج النبات . ومعنى « أَزْوَاجًا » ضروبا وأشباها ، أى أصنافا من النبات المختلفة  
الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون  
النبات شتى ؛ فـ « شتى » يجوز أن يكون نعنا لأزواج ، ويجوز أن يكون نعنا للنبات . و « شتى »

(١) « مهادا » بالجمع قراءة « نافع » وعليها الأصل .



مأخوذ من شت الشيء أى تفرق . يقال : أمر شت أى متفرق . وشت الأمر شتاً وشتاتاً تفرق به وأستشت مثله . وكذلك التشتت . وشتته تشتيتاً فزقه . وأشت بى قومى أى فزقوا أمرى . والتشتيت المتفرق . قال رؤبة يصف إبلا :

جاءت معاً وأطرفت شيتاً \* وهى تُثير الساطع السخيتاً<sup>(١)</sup>

وتغرشتيت أى مُفلج . وقوم شتّى ، وأشياء شتّى ، وتقول : جاءوا أشتاتاً ، أى متفرقين ، واحدهم شت ، قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أمر بإباحة . «وَارْعَوْا» من رعت الماشية الكلاء ، ورعاها صاحبها رعاية ، أى أسامها وسرحها ، لازم ومتعد . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أى العقول . الواحدة نُهىة . قال لهم ذلك ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى احتجاجاً على فرعون فى إثبات الصانع جواباً لقوله : «فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى» . وبين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض ؛ قاله أبو إسحق الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا وقد ذرّ عليه من تراب حُفْرته " أخرجه أبو نعيم الحافظ فى باب ابن سيرين ، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبى عاصم النبيل ، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة . وقد مضى هذا المعنى مبيناً فى سورة «الأنعام»<sup>(٢)</sup> عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراسانى : إذا وقعت النطفة فى الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذره على النطفة ، فيخلق الله النّسمة من النطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» . وفى حديث البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم : "إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملا من الملائكة

(١) السخيت : دفاق التراب ؛ وهو الغبار الشديد الارتفاع . ويرى : «الشخيتا» بالشين المعجمة .

(٢) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل «اكتبوا العبدى كتابا في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» فتعاد روحه في جسده «وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه في كتاب «التذكرة» وروى من حديث علي رضي الله عنه ؛ ذكره الثعلبي . ومعنى ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أى بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ أى للبعث والحساب . ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » لا إلى « نُعِيدُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى ؛ فالمعنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ خِشْيَ ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ بِجَمْعٍ كَيْدِهِ ثُمَّ أَمَّي ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أى المعجزات الدالة على نبوة موسى . وقيل : حجج الله الدالة على توحيده . ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أى لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عنادا ، لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . نظيره « وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُورًا » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ لما رأى الآيات التي أتاه بها موسى قال : إنها سحر ؛ والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك ، حتى تغلب على أرضنا وعلينا . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ أى لنعارضنك

بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله . ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾  
هو مصدر ؛ أى وعدا . وقيل : الموعد اسم لمكان الوعد ؛ كما قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ  
أَجْمَعِينَ » فالموعد هاهنا مكان . وقيل : الموعد اسم لزمان الوعد ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ  
الصُّبْحُ » فالمعنى : أجعل لنا يوما معلوما ، أو مكانا معروفا . قال القشيري : والأظهر أنه  
مصدر ولهذا قال : ﴿ لَا تُخْلِفُهُ ﴾ أى لا تخلف ذلك الوعد ، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه .  
وقال الجوهري : والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك الموعِد . وقرأ أبو جعفر  
ابن القعقاع وشيبة والأعرج « لَا تُخْلِفُهُ » بالجزم جوابا لقوله « آجَعْلُ » . ومن رفع فهو نعت  
لـ « موعِد » والتقدير : موعدا غير مخلف . ﴿ مَكَانًا سُوءًا ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمة « سُوءًا »  
بضم السين . الباقيون بكسرها ؛ وهما لغتان مثل عُدًا وَعِدًا وطَوَى وطَوَى . واختار أبو عبيد  
وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة . وقال النحاس : والكسر أعرف وأشهر . وكلهم  
تَوَنَوْا الواو ، وقد روى عن الحسن ، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين . واختلف في معناه  
ف قيل : سَوَى هذا المكان ؛ قاله الكلبي . وقيل : مكانا مستويا يتبين للناس ما بيننا فيه ؛  
قاله ابن زيد . ابن عباس : نصفًا . مجاهد : منصفًا ؛ وعنه أيضا وقتادة عدلا بيننا وبينك .  
قال النحاس : وأهل التفسير على أن معنى « سُوءًا » نَصَفٌ وعدل وهو قول حسن ؛ قال  
سيبويه يقال : سَوَى وَسَوَى أى عدل ؛ يعنى مكانا عدلا بين المكانين فيه النصف ؛ وأصله من  
قولك : جالس في سَوَاء الدار بالمد أى في وسطها ؛ ووسط كل شيء أعدله ؛ وفي الحديث  
عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدلا ، وقال زهير :

أَرْوْنَا خُطَّةً لَا ضِمَّ فِيهَا \* يُسَوَّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ

وقال أبو عبيدة والقتبي : وسطا بين الفريقين ؛ وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي :

وإِنَّ أَبَانَا كَانَ حَلَّ بِلَدٍ \* سَوَى بَيْنَ قَيْسِ قَيْسِ عَيْلَانَ وَالْفِزْرِ

والفِزْر : سعد بن زيد مناة بن تميم . وقال الأخفش : « سُوءًا » إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل  
يكون فيه ثلاث لغات : إن ضمنت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا . وإن فتحت مددت ،  
تقول : مكان سَوَى وَسَوَى أى عدل ووسط فما بين الفريقين . قال موسى بن جابر :

\* وجدنا أبانا كان حلّ ببلدة \*

البيت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصداً ، وأنشد صاحب هذا القول :

لو تَمَنَّيْتُ حَبِيبِي مَا عَدَّتْنِي \* أَوْ تَمَنَّيْتُ مَا عَدَّتْ سِوَاهَا

وتقول : سررت برجلٍ سِوَاكَ وَسِوَاكَ أى غيرك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء ؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس . وانتصب « مكانا » على المفعول الثانى لـ « يجعل » . ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له ؛ لأن الموعد قد وصف ، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل ، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى ؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجزه العرب مجرى المصادر مع الظروف ، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و « مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ » . واختلف فى يوم الزينة ، ف قيل هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجمعون فيه ؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيب : يوم سوق كان لهم يتزينون فيها ؛ وقاله قتادة أيضا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيل : يوم النيروز ؛ ذكره الثعلبى . وقيل : يوم يكسر فيه الخليج ؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتزهون ؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل النيل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلمى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزَّيْنَةِ » بالنصب . ورويت عن أبى عمرو ؛ أى فى يوم الزينة إنجاز موعدا . الباكون بالرفع على أنه خبر الابتداء . « وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » أى وجمع الناس ؛ فـ « أَنَّ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمٌ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُحْشَرَ » يقوى قراءة الرفع ؛ لأن « أَنَّ » لا تكون ظرفا ، وإن كان المصدر الصريح يكون ظرفا كقدم الحاج ؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج . النحاس : وأولى من هذا أن يكون فى موضع خفض عطفًا على الزينة . والضحا مؤنثة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة ؛ قاله النحاس . وقال الجوهري :

ضخوة النهار بعد طلوع الشمس ، ثم بعده الضحاً وهى حين تشرق الشمس ؛ مقصورة تؤنث وتذكر ؛ فمن أنت ذهب إلى أنها جمع ضخوة ؛ ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل مثل صرد ونقر ؛ وهو ظرف غير متمكن مثل سحر ؛ تقول : لقيته ضحاً ؛ وضحاً إذا أردت به ضحاً يومك لم تنونه ، ثم بعده الضحاء ممدود مذكر ، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . وخص الضحاً لأنه أول النهار ، فلوامتد الأمر فيما بينهم كان فى النهار متسع . وروى عن ابن مسعود والجحدري وغيرهما « وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًا » على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه . وعن بعض القراء « وَأَنْ تَحْشُرَ النَّاسَ » والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس . وعن الجحدري أيضاً « وَأَنْ تَحْشُرَ » بالنون . وإنما واعدهم ذلك اليوم ؛ ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد ، وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جمع أهل الوبر والمدر .

قوله تعالى : ﴿ قَتَلُوا فِرْعَوْنَ بِجَمْعِ كَيْدِهِ ﴾ أى حيله وسحره ؛ والمراد جمع السحرة . قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً ، مع كل ساحر منهم حبال وعصى . وقيل : كانوا أربعائة . وقيل : كانوا اثني عشر ألفاً . وقيل : أربعة عشر ألفاً . وقال ابن المنكر : كانوا ثمانين ألفاً . وقيل : كانوا جميعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر تقياً ، مع كل نقيب عشرون عريفاً ، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الفيوم ، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلثمائة ألف ساحر من الريف ، فصاروا تسعمائة ألف ، وكان رئيسهم أعمى . ﴿ ثُمَّ آتَى ﴾ أى أتى الميعاد . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ أى قال لفرعون والسحرة ﴿ وَابْكُوا ﴾ دعاء عليهم بالويل . وهو بمعنى المصدر . وقال أبو إسحق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله ويلاً . قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : « يَا وَيْلَتَا مَنْ بَعَثَنَا » . ﴿ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا تختلقوا عليه الكذب ، ولا تشركو به ، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر . ﴿ فَيُصِحَّتْكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ من عنده أى يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَتَ وَأَسَحَتَ بِمَعْنَى . وَأَصْلُهُ مِنْ أَسَقَصَاءِ الشَّعْرِ . وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ « فَيَسْحَتُكُمْ »<sup>(١)</sup>  
 مِنْ أَسَحَتَ ، الْبَاقُونَ « فَيَسْحَتُكُمْ » مِنْ سَحَتَ وَهَذِهِ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ [الْأُولَى لُغَةً] بَنَى تَمِيمٌ .  
 وَانْتَصَبَ عَلَى جَوَابِ النَّمْيِ . وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

وَعَصَّ زَمَانٌ يَابْنَ مَرَّوَانَ لَمْ يَدْعُ \* مِنْ الْمَسَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا<sup>(٢)</sup>

الزُّخْمَشَرَى : وَهَذَا بَيْتٌ لَا تَزَالُ الرِّكْبُ تَصْطُكُ فِي تَسْوِيَةِ إِعْرَابِهِ . « وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرَى »<sup>(٣)</sup>  
 أَيْ خَسِرَ وَهَلَكَ ، وَخَابَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْثَوَابِ مَنْ أَدْعَى عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَتَنَّا زُجُرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا  
 إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا  
 بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدُكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ  
 مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَتَنَّا زُجُرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ » أَيْ تَشَاوَرُوا ، يُرِيدُ السَّحْرَةَ . « وَأَسْرَوْا  
 النَّجْوَى » قَالَ قَتَادَةُ « قَالُوا » : إِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ سِحْرًا فَسْتَغْلِبْهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
 فَسَيَكُونُ لَهُ أَمْرٌ ، وَهَٰذَا الَّذِي أَسْرَوْهُ . وَقِيلَ الَّذِي أَسْرَوْا قَوْلَهُمْ : « إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ »  
 الْآيَةُ ، قَالَهُ السَّدِيُّ وَمُقَاتِلٌ . وَقِيلَ الَّذِي أَسْرَوْا قَوْلَهُمْ : إِنْ غَلَبْنَا اتَّبَعْنَاهُ ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ ،  
 دَلِيلُهُ مَا ظَهَرَ مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ . وَقِيلَ : كَانَ سِرَّهُمْ أَنْ قَالُوا حِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى « وَيَلِكُمُ  
 لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » : مَا هَٰذَا بِقَوْلِ سَاحِرٍ . وَ« النَّجْوَى » الْمُنَاجَاةُ يَكُونُ اسْمًا وَمَصْدَرًا ،  
 وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « النِّسَاءِ »<sup>(٤)</sup> بَيَانُهُ .

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) ويروى : « إلا مسحت » ومن رواه كذلك جعل معنى « لم يدع »  
 لم يتقار؛ ومن رواه « إلا مسحتنا » جعل « لم يدع » بمعنى لم يترك . ورفع « مجلف » بإضمار؛ كأنه قال : أوهو مجلف .  
 « اللسان » . (٣) المجلف : الذي بقيت به بقية . (٤) راجع ج ٥ ص ٣٨٢ وما بعدها  
 طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » . ورويت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبين وإبراهيم النخعي وغيرهم من التابعين ؛ ومن القراء عيسى بن عمرو وعاصم الجحدري ؛ فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف . وقرأ الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إِنَّ هَذَانِ » بتخفيف « إن » « لساحران » وابن كثير يشدد نون « هذان » . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المديون والكوفيون « إِنَّ هَذَانِ » بتشديد « إن » « لساحران » فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « إِنَّ هَذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » وقال الكسائي فى قراءة عبد الله : « إِنَّ هَذَانِ سَاحِرَانِ » بغير لام ؛ وقال الفراء فى حرف أبى « إِنَّ ذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لخالفها المصحف .

قلت : وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنبارى فى آخر كتاب الرد له ، والنحاس فى إعرابه ، والمهدوى فى تفسيره ، وغيرهم أدخل كلام بعضهم فى بعض ، وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إني لأستحى من الله أن أقرأ « إِنَّ هَذَانِ » : وروى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها سألت عن قوله تعالى : « لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفى « المائدة » « إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ » و « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يا بن أخى ! هذا خطأ من الكاتب . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان ، فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيره ؟ فقال : دَعُوهُ فإنه لا يحترم حلالا ولا يحل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بنى الحرث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛

يقولون : جاء الزيدان ورأيت الزيدان وصررت بالزيدان ، ومنه قوله تعالى : «وَلَا أَدْرَأُكُمْ بِهِ»

على ما تقدم . وأنشد الفراء لرجل من بني أسد<sup>(٢)</sup> - قال : وما رأيت أفصح منه :

فَاطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى \* مَسَاغًا لِنَابَهُ الشُّجَاعُ لَصَمًا<sup>(٣)</sup>  
(٤)

ويقولون : كسرت يدها وركبت علاه ، بمعنى يديه وعليه ، قال شاعرهم :

تَرْوَدُ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ ضَرْبَةً \* دَعْنَهُ إِلَى هَابِي التُّرَابِ عَقِيمِ

وقال آخر :<sup>(٥)</sup>  
\* طَارُوا عَلَاهُ فَطَرُ عَلَاهَا \*

أى عليهن وعليها .

وقال آخر :<sup>(٦)</sup>  
إِنِّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا \* قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

أى إن أبا أبيها وغايتها . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول من أحسن ما حلت عليه الآية ؛

إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاه من يرتضى بعلمه وأمانته ؛ منهم أبو زيد الأنصاري ،

وهو الذى يقول : إذا قال سيبويه حدثني من أثق به فإنما يعنيني ؛ وأبو الخطاب الأخفش

وهو رئيس من رؤساء اللغة ، والكسائي والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب .

وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أن هذه لغة بني كنانة . المهدوى : وحكى غيره أنها لغة

لخثعم . قال النحاس ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه : وأعلم أنك إذا ثبت الواحد زدت

عليه زائدين ، الأولى منهما حرف مسدّ واین وهو حرف الإعراب ؛ قال أبو جعفر فقول

سيبويه : وهو حرف الإعراب ، يوجب أن الأصل ألا يتغير ، فيكون «إِنَّ هَذَانِ» جاء

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو المتلس كما فى «اللسان» .

(٣) صم الشجاع فى عضته : أى عض ونيب فلم يرسل ما عض . (٤) هو هو بر الحارثى . والهابى

من التراب ما ارتفع ودق . (٥) قيل : هو لبعض أهل اليمن ، وأن قبله :

أى قُلُوص رَاكِب تَرَاهَا \* طَارُوا عَلَاهُ فَطَرُ عَلَاهَا

وَأَشَدُّ بِمَنَى حَقْبِ حَقْوَاهَا \* نَاجِيَةٌ وَنَاجِيَا أَبَاهَا

والحقو : الخاصرة . والناجية : السريعة . (٦) نسبة الجوهرى لأبي النجم ، وأن قبله :

وَاهَا لَسَلِمَى ثُمَّ وَاهَا وَاهَا \* هِىَ الْمَسْنَى لَوْ أَنَّنَا نَلْنَاهَا

يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا \* بَنَى نَرْضَى بِهِ أَبَاهَا

إن أباه ... الخ . ونسبه بعضهم لرؤبة . وقيل : لبعض أهل اليمن ؛ وأن قبله :

أى قُلُوص رَاكِب تَرَاهَا \* طَارُوا عَلَاهُ فَطَرُ عَلَاهَا



على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : « أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ » ولم يقل أستحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَذَانِ » ولا يفكر فى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها . القول الثانى : أن يكون « إِنْ » بمعنى نعم ؛ كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتي بـ « إِنْ » بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن « إِنْ » تأتي بمعنى أجل ، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، وإسماعيل بن إسحق القاضى يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان إليه . الزمخشري : وقد أعجب به أبو إسحق . النحاس : وحدثنا على بن سليمان ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابورى ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد [ هذا ] فحدثنى ، قال حدثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على - وهو ابن الحسين - عن أبيه عن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : « إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ » ثم يقول : « أنا أفصح قریش كلها وأفصحها بعدى أبان بن سعيد بن العاص » قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو « إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ » بالنصب إلا أن العرب تجعل « إِنْ » فى معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله ؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم . وقال الشاعر فى معنى نعم :  
قالوا غَدَرْتُ فَقُلْتُ إِنَّ وَرَبِّمَا \* نَالَ الْعُلَا وَشَفَى الْغَالِيلَ الْفَادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

بَكَرَ الْعَوَاضِلُ فِي الصَّبَا \* حَ يَلْمُنِي وَالْوَمَهْنَةُ

وَيَقْلَنَ شَيْبٌ قَدْ عَالَ \* لَكَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَذَانِ لَسَاخِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب .

قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب :

ليت شعرى هل للحبِّ شفاء \* من جَوَى حَبْنِ إِنْ اللِّقَاءُ

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع اللام هاهنا ، وإن كان النحويون قد تكلموا في ذلك فقالوا : اللام ينوى بها التقديم ؛ كما قال :  
خالي لأنت ومن جرير خاله \* ينيل العلاء ويكرم الأخوالا  
آخر :

أُمُّ الْخَلِيسِ لِعَجْوزٍ شَهْرَبَه \* تَرْضَى مِنَ الشَّاةِ بَعْظِمَ الرَّقَبَةِ

أى لخالى ولأُم الخليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى فى الآية إن هذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ . المهدوى : وأنكره أبو على وأبو الفتح بن جنى . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُرِفَ ، وإذا كان معروفا فقد آستغنى بمعرفته عن تأكيده باللام ، ويقبح أن تحذف المؤكّد وتترك المؤكّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت : جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك . القول الرابع قاله بعض الكوفيين ؛ قال : الألف فى « هذان » مشبهة بالألف فى يفعلان ؛ فلم تغير . القول الخامس : قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنبارى : فأضمرت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هذان » خبر « إن » و « ساحران » يرفعها « هما » المضممر <sup>(١)</sup> [ والتقدير ] إنه هذان لهما ساحران . والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أحببتك بجواب النحويين ، وإن شئت أحببتك بقولى ؛ فقلت : بقولك ؛ فقال : سألتى إسماعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لما كان يقال « هذا » فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت الثانية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت الثانية مجرى الواحدة ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

(١) الزيادة يقتضيا السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أتم عليه ؛ كما قال فرعون : « إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . ويقال : فلان حسن الطريقة أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذى ينبغى أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبوا بساداتكم ورؤسائكم ؛ استمالة لهم . أو يذهبوا بنى إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء . أو يذهبوا بأهل طريقكم فحذف المضاف . و « المثلى » تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى . وأنت الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة . وقال الكسائى : « بطريقتم » بستمكم وستمكم . و « المثلى » نعت كقولك امرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشئ . تقول : أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمته . وقراءة كل الأمصار « فَاجْمَعُوا » إلا أبا عمرو فإنه قرأ « فَاجْمَعُوا » بالوصل وفتح الميم . واحتج بقوله : « جَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أتَى » . قال النحاس وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « يجمع » وقوله عز وجل : « يجمع كيده » قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده « فَاجْمَعُوا » ويقرب أن يكون بعده « فَاجْمَعُوا » أى أعزموا ووجدوا ؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر جمع وتجمع عليه . قال النحاس : ويصحح قراءة أبى عمرو « فَاجْمَعُوا » أى أجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضمموه مع أخيه . وقاله أبو إسحق . الثعلبى : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما — بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشئ وجمعت به بمعنى واحد ، وفى الصحاح : وأجمعت الشئ جعلته جميعا ؛ قال أبو ذؤيب يصف حمرا :

فكأنها بالخزع بين نبأ<sup>(١)</sup> يسج \* وأولات ذى العرجاء نهب مجمع

(١) نباع : اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل ، ويجمع على « نباعات » .

أى مجموع . والثانى — أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

يأليت شعيرى والمنى لا تنفع \* هل أعُدون يوماً وأمرى مجع

أى مُحكم . ( ثُمَّ آتُوا صَفًّا ) قال مقاتل والكلبي : جميعا . وقيل : صفوفوا ليكون أشد لهيبكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبى عبيدة؛ قال يقال : أتيت الصف يعنى المصلى؛ فالمعنى عنده آتوا الموضع الذى يجتمعون فيه يوم العيد . وحكى عن بعض فصحاء العرب : ما قدرت أن آتى الصف؛ يعنى المصلى . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم آتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال . ولذلك لم يجمع . وقرئ « ثُمَّ آتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفا . ( وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنَ اسْتَعَى ) أى من غلب . وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

قوله تعالى : قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إريد السحرة ﴾ . ﴿ وَإِنَّمَا أَنْ تُلْقَىٰ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فآلقوا ؛ دل عليه المعنى . وقرأ الحسن ﴿ وَعَصِيَّهُمْ ﴾ بضم العين . قال هرون القارىء : أغسة بنى تميم « وَعَصِيَّهُمْ » وبها يأخذ الحسن . الباقون بالكسر إتباعا لكسرة الصاد . ونحوه دُلِيَّ ودِلِيَّ وقُسى وقِسى . ﴿ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخَيِّلُ » بالتاء ؛ وردوه إلى المصى والحبال إذ هى مؤنثة . وذلك أنهم لطخوا العصى بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت وأهتزت . قال الكلبي : خَيَّلَ إلى موسى أن الأرض حيات وأنها تسعى على بطنها . وقرئ « تُخَيِّلُ » بمعنى تتخيل وطريقه طريق « تُخَيِّلُ » ومن قرأ « يُخَيِّلُ » بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « تُخَيِّلُ » بالنون على أن الله هو المخيِّل للحنة والابتلاء . وقيل : الفاعل « أَنَّهُمْ تَسْعَى » فـ « أَنْ » فى موضع رفع ؛ أى يُخَيِّلُ إليه سعيها ؛ قاله الزجاج . وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب ؛ أى بأنها ثم حذف الباء . والمعنى فى الوجه الأول : تشبه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالتاء جعل « أَنْ » فى موضع نصب أى تخيِّل إليه ذات سعى . قال : ويجوز أن تكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى « تخيِّل » وهو عائد على الحبال والعصى ، والبدل فيه بدل اشتمال . و « تسعى » معناه تمشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ أى أضمر . وقيل : وجد . وقيل : أحس . أى من الحيات وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم . وقيل : خاف أن يفتن الناس قبل أن يلقى عصاه . وقيل : خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتنوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له يا موسى ترفق بأولياء الله . فقال موسى : يا جبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبتلوا المعجزة ، وينصروا دين فرعون ، ويردوا دين الله ، تقول : ترفق

بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أوجس في نفس موسى ، وخطر أن ما يدريني ما علم الله في ، فلعلي أكون الآن في حالة ، وعلم الله في على خلافها كما كان هؤلاء . فلما علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا ، وفي الدرجات العلاء في الجنة ؛ للنبوة والأصطفاء الذي آتاك الله به . وأصل « خيفة » خوفاً فأنقلبت الواو ياء لانكسار الحاء .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي مَاتَ فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ<sup>(١)</sup> مَا صَنَعُوا ﴾ ولم يقل وألق عصاك ، بجائز أن يكون تصغيراً لها ، أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيمهم ، وألق العويد الفرد الصغير الحرم الذي في يمينك ، فإنه بقسرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمتها . وجائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء ، وأنزله عندها ، فألقه يتلقفها بإذن الله ويحرقها . و « تَلَقَّفْ » بالجزم جواب الأمر ؛ كأنه قال : إن تلقه تلتقف ؛ أي تأخذ وتبتلع . وقرأ السامى وحفص « تَلَقَّفْ » ساكنة اللام من لَقِفَ يَلْقِفُ لَقْفًا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحرث « تَلَقَّفْ » بحذف التاء ورفع الفاء ، على معنى فإنها تلتقف . والخطاب لموسى . وقيل : للعصا . واللقف الأخذ بسرعة . يقال : لَقِفْتُ الشيء (بالكسر) ألقفه لَقْفًا ، وتلقفته أيضا أي تناولته بسرعة . عن يعقوب : يقال رجل لَقِفٌ ثَقِفٌ أي خفيف حاذق . واللقف ( بالتحريك ) سقوط الحائط . ولقد لَقِفَ الحوض لَقْفًا أي تهوّر من أسفله واتسع . وتلقف وتلقم وتلقم وتلقم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف » . لَقِمَتِ اللقمة ( بالكسر ) لَقْمًا ، وتلقمتها إذا ابتلعها في مهلة . وكذلك لَقِمَهُ ( بالكسر ) إذا آتاه . ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ أي إن الذي صنعوه . ﴿ كَيْدٌ ﴾ بالرفع ﴿ سِحْرٌ ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء ؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

(١) « تلقف » بالتشديد قراءة « نافع » . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

على الإتياع من غير تقدير حذف . والثانى — أن يكون فى الكلام حذف أى كيد ذى سحر .  
 وقرأ الباقون « كَيْدٌ » بالنصب بوقوع الصنع عليه ، و « ما » كافة ولا تضمه راء « ساحر »  
 بالإضافة . والكيد فى الحقيقة على هذه القراءة مضاف لاساحر لا للسحر . ويجوز فتح « أن »  
 على معنى لأن ما صنعوا كيد ساحر . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى لا يفوز ولا ينجو  
 حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتمال . وقد مضى فى « البقرة » حكم الساحر ومعنى  
 السحر فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَالْقِيَ السَّحَرَةُ سُبْحًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة فى العصا ؛  
 فإنها أبتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصى ؛ وكانت حمل ثلثمائة بعير ثم عادت عصا<sup>(٣)</sup>  
 لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصى إلا الله تعالى . وقد مضى فى « الأعراف » هذا المعنى  
 وأمر العصا مستوفى . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى به ؛ يقال :  
 آمن له وآمن به ؛ ومنه « فآمن له لوط » وفى الأعراف « قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » .  
 إنكار منه عليهم ؛ أى تعديتم وفعلمتم ما لم آمركم به . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ » .  
 أى رئيسكم فى التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبهه  
 على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ،  
 بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . ﴿ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ  
 وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى على جذوع النخل . قال سويد بن أبى كاهل :

هُمْ صَلَبُوا الْعَبْدَىٰ فِي جَذَعِ نَخْلَةٍ \* فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا

فقطع وصلب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى . وقرأ ابن محيصن هنا وفى الأعراف « فَلَا قُطْعَنَ » ،  
 « وَلَا صَلْبَيْكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قطع وصلب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾  
 يعنى أنا أم رب موسى .

(١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور ، والجمهور قرأ « كيد ساحر » برفع « كيد » كما فى « البحر »  
 وغيره ؛ قال فى البحر : وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .  
 (٣) راجع ج ٧ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي  
فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾  
إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ  
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ  
فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ  
لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ﴾ يعني السحرة ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ أى لن نخنالك ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ  
الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم  
الله فى سجدودهم منازلهم فى الجنة ؛ فلماذا قالوا « لن نُؤْثِرَكَ » . وكانت امرأة فرعون تسأل من  
غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهرون . فأرسل  
إليها فرعون فقال : أنظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فآلقوها عليها ؛ فلما أنوها  
رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها فى الجنة ، فمضت على قولها فارتفع روحها ، وألقيت  
الصخرة على جسد لها وليس فى جسدها روح . وقيل : قال مقدم السحرة لمن يثق به  
لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت فتكون جنياً أو لم تخوف  
فهى من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع ؛ فقال : ما تخوفت ؛ فقال : آمنت  
برب هرون وموسى . ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ »  
أى لن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَلَا عَلَى الَّذِي فَطَرْنَا أى خلقنا . وقيل : هو قسم  
أى والله لن نُؤْثِرَكَ . ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه . وليس « ما » ها هنا  
التي تكون مع الفعل بمنزلة المصدر ؛ لأن تلك توصل بالأفعال ، وهذه موصولة بابتداء وخبر .  
(١) فى نسخة « تخوفت — أو لم تخوف — ما تخوفت » بالميم .



قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم ؛ أى من القطع والصلب . وحذفت الياء من قاض فى الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيبويه إثباتها فى الوقف لأنه قد زالت علة الساكنين . ﴿ إِنَّمَا تَقْضَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى إنما ينفذ أمرك فيها . وهى منصوبة على الظرف ، والمعنى : إنما تقضى فى متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه الحياة الدنيا ، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضى أمور هذه الحياة الدنيا ، فتنتصب انتصاب المفعول و « ما » كافة لإثبات . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما » بمعنى الذى وتحذف الهاء من تقضى ورفعت « هذه الحياة الدنيا » . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أى صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَاَنَا ﴾ يريدون الشرك الذى كانوا عليه . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ « ما » فى موضع نصب معطوفة على الخطايا . وقيل : لا موضع لها وهى نافية ؛ أى ليغفر لنا خطايانا من السحر وما أكرهتنا عليه . النحاس : والأول أولى . المهدوى : وفيه بعد ؛ لقولهم : « إِنَّا لَنَآ لَآجِرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس هذا بقول مُكْرَهِينَ ؛ ولأن الإكراه ليس بذنب ، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه صغارا . قال الحسن : كانوا يعلمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ويضم الخبر ، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضع عنا . و « من السحر » على هذا القول والقول الأول يتعلق بـ « ما أكرهتنا » . وعلى أن « ما » نافية يتعلق بـ « خطايانا » . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف ؛ قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا . وهو جواب قوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ » وقيل : الله خير لنا إن أطعناه ، وأبقى عذابا منك إن عصيناه . قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَآتٍ رَبِّهِ مُجِئًا ﴾ قيل : هو من قول السحرة لما آمنوا . وقيل : ابتداء كلام من الله عز وجل . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن . ويجوز أن من يأت ، ومنه قول الشاعر :  
إِنَّ مِنْ يَدْخُلِ الْكَنِيسَةَ يَوْمًا \* يَلْقَىٰ فِيهَا جَازِرًا وَظَبَاءَ

أراد إنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة .  
والمجرم الكافر . وقيل : الذى يقترب المعاصى ويكتسبها . والأول أشبه ؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وهذه صفة الكافر المكذب الجاحد — على ما تقدم بيانه  
فى سورة « النساء » وغيرها — فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته . قال الشاعر :

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي \* شَقَاها وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

وقيل : نفس الكافر معلقة فى حنجرته ؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها ، ولا يحيا باستقرارها . ومعنى « مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا » من يأت موعده به . ومعنى « وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا »  
أى يمت عليه ويوافيه مصدقا به . ﴿ قَدْ عَمَلْ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات  
وما أمر به ونهى عنه . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أى الرفيعة التى قصرت دونها  
الصفات . ودل قوله : « وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا » على أن المراد بالمجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات وبدل منها ، والعَدْنُ الإقامة ؛ وقد تقدم<sup>(١)</sup>  
بيانه . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسررها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من الخمر والعسل  
واللبن والماء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين دائمين . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾  
أى من تطهر من الكفر والمعاصى . ومن قال هذا من قول السحرة قال : لعل السحرة سمعوه  
من موسى ، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام ، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون .  
قلت : ويحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ  
طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ  
بِجُنُودِهِ فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشَّيْهِمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ تقدم الكلام فى هذا مستوفى .  
﴿ فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يابسا لا طين فيه ولا ماء ؛ وقد مضى فى « البقرة »

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) ج ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، وإغراق فرعون فلا معنى الإعادة . ( لَا تَخَافُ دَرْكًا )  
 أى لحاقا من فرعون وجنوده . ( وَلَا تَخْشَى ) قال ابن جريج قال أصحاب موسى : هذا فرعون  
 قد أدركنا ، وهذا البحر قد غشيناه ، فأنزل الله تعالى « لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى » أى لا تخاف  
 دركا من فرعون ولا تخشى ضرقا من البحر أن يمسك إن غشيك . وقرأ حمزة « لا تخف »  
 على أنه جواب الأمر . التقدير إن تضرب لهم طريقا فى البحر لا تخف . و « لا تخشى »  
 مستأنف على تقدير : ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة ، كقوله :  
 « فَاصْلُونا السَّيْلًا » أو يكون على حد قول الشاعر :  
 (١)

\* كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيًا \*

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا مذهب الفراء . وقال آخر :

هَجَوْتُ زَبَانَ ثُمَّ جِئْتُ مَعْتَدًا \* مِنْ هَجْوِ زَبَانَ لَمْ تَهْجُوْ وَلَمْ تَدَّعِ

وقال آخر : (٢) أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي \* بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر ؛  
 وأيضا فإن الذى جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا ؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف ؛  
 لأنهما يتحركان والألف لا تتحرك ، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف  
 الحركة للجزم ، وهذا محال فى الألف ؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده « وَلَا تَخْشَى » جمع  
 عليه بلا جزم ؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول — أن يكون « لا تخاف » فى موضع الحال  
 من المخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقا فى البحر ينسا غير خائف ولا خاش . الثانى  
 — أن يكون فى موضع النعت للطريق ؛ لأنه معطوف على ينس الذى هو صفة ، ويكون  
 التقدير لا تخاف فيه ؛ فحذف الراجع من الصفة . والثالث — أن يكون منقطعا خبر ابتداء  
 محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

(١) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . وصدر البيت :

\* وتضحك منى شبيخة عبشمية \*

(٢) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكان قد نشأت بينه وبين الربيع بن زياد  
 شتاء فى شأن درع فاستاق إبل الربيع وباعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشى .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أى أتبعهم ومعه جنوده ، وقرئ « فَاتَّبَعَهُمْ » بالتشديد فتكون الباء فى « بِجُنُودِهِ » عدت الفعل إلى المفعول الثانى ؛ لأن أتبع يتعدى إلى مفعول واحد . أى تبعهم ليلحقهم بجنوده أى مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . ومن قطع « فَاتَّبَع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة ، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد . وقوله : « بِجُنُودِهِ » فى موضع الحال ؛ كأنه قال : فَاتَّبَعَهُمْ سَائِقًا جُنُودُهُ . ﴿ فَفَقَشَيْتَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى أصحابهم من البحر ما غرقهم ، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر . ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ أى أضلهم عن الرشيد وما هداهم إلى خير ولا نجاة ؛ لأنه قدر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه ؛ لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا ، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفى سورة الشعراء « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » أى الجبل الكبير ؛ فأخذ كل سبط طريقا . وأوحى الله إلى أطواد الماء أن تشبكي فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا ، ويسمع بعضهم كلام بعض ، وكان هذا من أعظم المعجزات ، وأكبر الآيات ، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق فى البحر والماء قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا طبيعته ، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم . وقيل إن قوله : « وَمَا هَدَى » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذب الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَى » أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعالى : يَذُنِّيْٓ إِبْرٰهِيْمَ لَقَدْ اَنْجَيْنٰكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلٰوِي (٨١) كُلُوْا مِنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوٰى (٨٢) وَاِنِّىْ لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صٰلِحًا ثُمَّ اٰهْتَدٰى (٨٣)

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ لما أنجأهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا . ﴿ وَوَعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ « جانب » نصب على المفعول الثانى « لواعدنا » ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما نتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكى : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور؛ ثم حذف المضاف . قال النحاس : أى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضورتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف واختاره أبو عبيد؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى فى « البقرة » هذا المعنى . و « الْأَيْمَنِ » نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فعناه خذ على يمينك من الجبل . وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى ﴾ أى فى التيه وقد تقدم القول فيه <sup>(٢)</sup> . ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمى فتدخله شبهة . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أى لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أى لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أى ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » . وقيل : لا تدنخوا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيدود عليهم ما أدنخواه ؛ ولولا ذلك ما تدود طعام أبدا . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء فى جواب النهى من قوله : « وَلَا تَطْغَوْا » . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى « فَيَحِلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحْلِلْ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسروهما لغتان . وحكى

(١) راجع ج ١ ص ٣٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أبو عبيدة وغيره : أنه يقال حَلَّ يَحِلُّ إذا وجب وحلَّ يَحِلُّ إذا نزل . وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى بالأنهم قد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقيمٌ » . وغضب الله عقابه وتقمته وعذابه . (( فَقَدْ هَوَى )) قال الزجاج : فقد هلك ؛ أى صار إلى الهاوية وهى قعر النار ، من هوى يهوى هوى أى سقط من علو إلى سفلى ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسماعيل بن عياش قال حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُفَى الْأَصْبَحِيِّ<sup>(١)</sup> قال : إن فى جهنم جبلا يدعى صَعُودًا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه ؛ قال الله تعالى : « سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا » وإن فى جهنم قصرا يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : « وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى » وذكر الحديث ؛ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : (( وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ )) أى من الشُّرك . (( وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى )) أى أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثوري وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشك فى إيمانه ؛ ذكره الماوردى والمهدوى . وقال سهل بن عبد الله التستري وأبن عباس أيضا : أقام على السنة والجماعة ؛ ذكره الثعلبى . وقال أنس : أخذ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكر المهدوى ، وحكا الماوردى عن الربيع بن أنس . وقول خامس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد ؛ وعنه أيضا تعلم العلم لينتدى كيف يفعل ؛ ذكر الأول المهدوى ، والثانى الثعلبى . وقال الشعبى ومقاتل والكلبى : علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا ؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثُمَّ اهْتَدَى » فى ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ثابت البناني . والقول الأول أحسن هذه الأقوال — إن شاء الله — وإليه يرجع سائرهما . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع فى قوله عز وجل : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ » أى من الشُّرك « وَأَمَنَ » أى بعد الشُّرك « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلى وصام « ثُمَّ اهْتَدَى » مات على ذلك .

(١) بالتصغير بن مائع (بالتاء المثناة الفوقية) الأصبحى .

قوله تعالى : وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أى ما حملك على أن تسبقهم . قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل ، فعلى هذا قيل : استخلف هرون على بنى إسرائيل ، وخرج معه بسبعين رجلا لليقات . فقوله : ﴿ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي ﴾ ليس يريد أنهم يسبقون خلفه متوجهين إليه ، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لما وفد إلى طور سيناء بالوعد اشتاق إلى ربه ، وطالت عليه المسافة من شدة الشوق إلى الله تعالى ، فضايق به الأمر حتى شق قيصره ، ثم لم يصبر حتى خلفهم ومضى وحده ، فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقى صلى الله عليه وسلم متحيرا عن الجواب وكفى عنه بقوله : « هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي » وإنما سأله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ فكفى عن

ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » قال : شوقا . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول : هاتوا المحييد . فتؤتى بالمصحف فتأخذه في صدرها وتنام معه تسلى بذلك ، رواه سفيان عن مسعر عن عائشة رضى الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : « إنه حديث عهد بربى » فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقاءهم أشوق » . قال ابن عباس : كان الله عالما ولكن قال « وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ » رحمة لموسى ، وإكراما له بهذا القول ، وتسكينا لقلبه ، ورقة عليه ؛ فقال مجيبا لربه : « هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي » . قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هُمْ أَوْلَى » مقصورة مرسله ، وأهل الحجاز يقولون « أَوْلَاءِ » ممدودة . وحكى الفراء « هُمْ أَوْلَاى عَلَى أَثَرِي » وزعم أبو إسحق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال ؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَاى . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال ؛ وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا ؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبي إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على إِثَرِي » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر ؛ لغتان . « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عني . يقال : رَجُلٌ عَجِلٌ وَعَجَلٌ وَعَجُولٌ وَعَجَلَانٌ بين العَجَلَةِ والعَجَلَةِ خلاف البطء .

قوله تعالى : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ » أى آخبرناهم وأمتحنناهم بأن يستدلوا على الله عز وجل . « وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ » أى دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها . وقيل : فتناهم ألقيناهم في الفتنة : أى زيننا لهم عبادة العجل ؛ ولهذا قال موسى : « إِنِّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان السامري من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل في دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا



من القبط ، وكان جارا لموسى آمن به ونخرج معه . وقيل : كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبيرة : كان من أهل كرمان . قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ حال وقد مضى فى « الأعراف »<sup>(١)</sup> بيانه مستوفى . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ، ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ » الآية . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى أفنسيتم ؛ كما قيل ؛ والشئ قد ينسى لطول العهد . ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ « يحل » أى يجب وينزل ، والغضب العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . ﴿ فَأَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدهم على أثره للبقات فتوقفوا . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر . قال مجاهد والسدى : ومعناه بطاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « بِمَلِكِنَا » بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها اللغة العالية . وهو مصدر ملكت الشئ أملكه ملكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ؛ كأنه قال : بملكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَلِكِنَا » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعده . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص ؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور : « مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا » وكانوا آتى عشر ألفا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف . ﴿ وَلَكِنَّا كُفِّرْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة ؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . الباقون بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا حلى القوم

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

مهمهم وما حملوه كرها . ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أى أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى من حلّيتهم ؛ وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام ، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون ، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما . أى لم يحمل لهم أخذها ولم تحمل لهم الغنائم ، وأيضا فالأوزار هى الأثقال فى اللغة . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحليّ فقذفناه فى النار ليزوب ، أى طرحناه فيها . وقيل : طرحناه إلى السامريّ لترجع فقرى فيها رأيك . قال قتادة : إن السامريّ قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما آحتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحليّ ، فجمعه ودفعوه إلى السامريّ فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلا ، ثم ألقي عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال معمر : الفرس الذى كان عليه جبريل هو الحياة ، فلما ألقي عليه القبضة صار عجلا جسدا له خوار . والخوار صوت البقرة . وقال ابن عباس : لما آنسكبت الحليّ فى النار ، جاء السامريّ وقال لهرون : يا نبيّ الله ألقى ما فى يديّ — وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحليّ — فقذف التراب فيه ، وقال : كن عجلا جسدا له خوار ، فكان كما قال ؛ للبلاء والفتنة ؛ فخار خورة واحدة لم يتبعها مثلها . وقيل : خواره وصوته كان بالريح ؛ لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأوّل كان عجلا من لحم ودم ، وهو قول الحسن وقتادة والسدى . وروى حماد عن سمالك عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : مرّ هرون بالسامريّ وهو يصنع العجل ، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر ؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه ؛ فقال : اللهم إني أسألك أن ينخور . وكان إذا خار سجدوا ، وكانت الخوار من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما ينخور الحى من العجول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السامريّ أخرج لهم عجلا جسدا له خوار من حلّيتهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوّك وسلطانك ما أضلّتهم خيرك . قال : صدقت يا حكيم

الحكماء . وقد تقدم هذا كله فى سورة « الأعراف » <sup>(١)</sup> . « فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى »  
 أى قال السامريّ ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التشبيه؛ إذ قالوا : « أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ  
 آلِهَةٌ » . « (فَنَسِيَ) » أى فضّل موسى [ وذهب ] <sup>(٢)</sup> يطلبه فلم يعلم مكانه ، وأخطأ الطريق  
 إلى ربه . وقيل معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه . أى ترك موسى إلهه هنا . وروى  
 إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه .  
 وقيل : الخطاب خبر عن السامريّ . أى ترك السامريّ ما أمره به موسى من الإيمان بفضل ؛  
 قاله ابن الأعرابي . فقال الله تعالى محتجا عليهم : « أَفَلَا يَرَوْنَ » أى يعتبرون ويتفكرون  
 فى « أَنْ » . « (لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا) » أى لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الحوار والصوت .  
 « (وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) » فكيف يكون إلهًا؟! والذى يعبده موسى صلى الله عليه وسلم  
 يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع . « أَنْ لَا يَرْجِعَ » تقديره أنه لا يرجع فلذلك أرتفع الفعل  
 خففت « أَنْ » وحذف الضمير . وهو الاختيار فى الرؤية والعلم والظن . قال :  
 فى فتية من سيوف الهند قد علموا \* أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَتَعَلَّ  
 وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فلو كنت ضيًّا عرفت قرابى \* ولكن زنجى عظيم المشاير  
 أى ولكنك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ  
 وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ  
 عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ  
 ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : « وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل أن يأتى موسى ويرجع  
 إليهم « (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) » أى أبليتكم وأضلّتم به ؛ أى بالعجل « (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ) »

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبة أولى أو ثانية . (٢) زيادة يقتضها السياق .

لا العجل ((فَاتَّبِعُونِي)) في عبادته ((وَأَطِيعُوا أَمْرِي)) لا أمر السامري . أو فاتبعوني في مسيرى إلى موسى ودعوا العجل ؛ فعصوه و ((قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ)) أى لن نزال مقيمين على عبادة العجل ((حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)) فينظر هل يعبد كما عبدناه ؛ فتوهوا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هرون فى آثنى عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه : هذا صوت الفتنة ؛ فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه وحينئذ بشماله غضبا و ((قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)) أى أخطئوا الطريق وكفروا . ((أَلَا تَتَّبِعُنِي)) «لا» زائدة أى أن تتبع أمرى ووصيتى . وقيل : ما منعك عن اتباعى فى الإنكار عليهم . وقيل : معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم . وقيل : ما منعك من اللوق بى لما قُتِنُوا . ((أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)) يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لى ؛ قاله ابن عباس . وقيل : معناه هلا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريبا لهم وزجرا . ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل : إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فلما أقام معهم ، ولم يبالغ فى منعهم ، والإنكار عليهم ، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

مسئلة — وهذا كله أصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله ، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه بحكمهم . وقد مضى هذا المعنى فى آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال . وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشى رحمه الله : ما يقول سيدنا الفقيه فى مذهب الصوفية ؟ وأعلم — حرس الله مدته — أنه اجتمع جماعة من رجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكروا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالتضييب على شئ من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه . هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفنونا مأجورين ، وهذا القول الذى يذكرونه :

يَا شَيْخُ كُفِّ عَنِ الذُّنُوبِ \* قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَالزَّلَلِ  
وَأَعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا \* مَا دَامَ يَنْفَعُكَ الْعَمَلُ  
أَمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ مَضَى \* وَمَشَيْبُ رَأْسِكَ قَدْ نَزَلَ

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : — يرحمك الله — مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري ، لما آتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما الفضيبي فأول من آتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ؛ وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار ؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعه من الحضور في المساجد وغيرها ؛ ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِإِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي إِيَّيْ خَشِيتُ  
أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ  
يَسْمِيرِي ﴿٩٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ  
الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٧﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ  
فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى  
إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾  
إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِإِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ابن عباس : أخذ شعره بيمينه  
ولحيته بيساره ؛ لأن الغيرة في الله ملكته ؛ أى لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك استخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه . وقد مضى هذا في « الأعراف »<sup>(١)</sup> مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ » أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم ، فلو خرجت لأتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم ، وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء ، وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومني على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وفي الأعراف « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِمِّتْ بِي الْآعْدَاءَ » لأنك أمرتني أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى « وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي » لم تعمل بوصيتي في حفظه ، قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدى وقدمي . فتركه موسى ثم أقبل على السامريّ ف « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » أي ، ما أمرك وشأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامريّ عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعالملة وهم يعكفون على أصنام لهم « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » فأغتمها السامريّ وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل . ف « قَالَ » السامريّ مجيباً لموسى : « بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ » يعني : رأيت ما لم يروا ، رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة ، فألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ، فلما سألوكم أن تجعل لهم إلهاً زَيَّنْتُ لِي نَفْسِي ذَلِكَ . وقال عليّ رضي الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامريّ من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس . وقيل قال السامريّ : رأيت جبريل على الفرس وهي تأتي خطوها مدّ البصر ، فألقى في نفسي أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رَمَكَة<sup>(٢)</sup> وديق ، فتقدم خيل فرعون في ورود البحر . ويقال : إن أم السامريّ جعلته حين وضعته في غار خوفاً

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثالثة .

(٢) الرمكة : الفرس والبردونة التي تتخذ للنسب ، معرب . وهي هنا الفرس . والوديق : التي تشبه الفحل .

من أن يقتله فرعون؛ فجاءه جبريل عليه السلام، بفعل كف السامرى في فم السامرى،  
 فوضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدم هذا المعنى في «الأعراف»<sup>(١)</sup>.  
 ويقال: إن السامرى سمع كلام موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور  
 والآخر فرس فألقاهما في النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في النيل،  
 فأتى به الثور على قرنه، فتكلم السامرى بذلك الكلام الذى سمعه من موسى، وألقى القُبْضة  
 في جوف العجل فخار. وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاء على  
 الخطاب. الباقون بالياء على الخبر. وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة «فَقَبَضْتُ  
 قُبْضَةً» بصاد غير معجمة. وروى عن الحسن ضم القاف من «قُبْضَةٌ» والصاد غير  
 معجمة. الباقون: «قَبَضْتُ قُبْضَةً» بالصاد المعجمة. والفرق بينهما أن القبض بجميع  
 الكف، والقبض بأطراف الأصابع، ونحوهما الخضم والقضم، والقُبْضة بضم القاف القدر  
 المقبوض؛ ذكره المهدوى. ولم يذكر الجوهري «قُبْضَةٌ» بضم القاف والصاد غير معجمة،  
 وإنما ذكر «القُبْضة» بضم القاف والصاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شيء؛ يقال:  
 أعطاه قُبْضة من سويق أو تمر أى كفا منه، وربما جاء بالفتح. قال: والقَبْضُ بكسر القاف  
 والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس؛ قال الكيميت:

لكم مسجدا الله المزوران والخصى \* لكم قُبْضة من بين أثرى وأقترى<sup>(٢)</sup>

«فَنَبَذْتُهَا» أى طرحتها في العجل.

«وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي» أى زينته؛ قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدثتني

نفسى. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: «قَالَ فَاذْهَبْ» أى قال له موسى فاذْهَبْ أى من بيننا «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ

أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» أى لا أمس ولا أمس طول الحياة. فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى

إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الشاعر:

تَمِيمٌ كَرِهَ السَّامِرَى وَقَوْلُهُ \* أَلَا لَا يَرِيدُ السَّامِرَى مِسَاسًا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٤ طبعة أول أو ثانية. (٢) أى من بين نثر ومقل.

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامريّ ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماسّ أحدا ولا يمتكّن من أن يمسّه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا . ويقال : آبتلى بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك — لا مساس — وإن مَسَّ واحد من غيرهم أحدا منهم حُمّ كلاهما في الوقت . ويقال : إن موسى همّ بقتل السامريّ ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخيّ . ويقال لما قال له موسى : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسّه حتى صار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمَلُ رَايَاتٍ بِهَا قَنَاعِيسَا \* حَتَّى تَقُولَ الْأُرْدُ لَا مَسَابِيسَا<sup>(١)</sup>

مسئلة : هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خَلَفُوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قَتْلٌ لَا يُقْتَلُ عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاب إلى الخروج . ومن هذا القبيل التغريب في حدّ الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله في موضعه ، فلا معنى لإعادته . والحمد لله وحده . وقال هرون القارئ : ولغة العرب لا مساس بكسر السين وفتح الميم ، وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبنى على الكسر كما يقال أضرب الرجل . وقال أبو إسحق : لا مساس نفي وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلت يا امرأة . قال النحاس : وسمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت مجاهد بن يزيد يقول : إذا أعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا أعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فساس ودراك أعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لا لتقاء الساكنين ؛ كما تقول : أضرب الرجل . ورأيت أبا إسحق

(١) كذا في الأصل ، ولم نقف عليه .



يذهب إلى أن هذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سُمى امرأة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهري في الصحاح : وأما قول العرب لا مَسَاسَ مثال قَطَامٍ فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المَس . وقرأ أبو حيوة « لا مَسَاسِ » . ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخَلَّفَهُ ﴾ يعنى يوم القيامة . والموعود مصدر ؛ أى إن لك وعدا لعذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تُخَلِّفُهُ » بكسر اللام وله معنيان : أحدهما — ستأتيه ولن تجده مخلفا ؛ كما تقول : أحمدته أى وجدته محمودا . والثانى — على التهديد أى لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ ﴾ أى دمت وأقيمت عليه . ﴿ عَاكِفًا ﴾ أى ملازما ؛ وأصله ظلمت ؛ قال :

خَلَا أَنْ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا \* أَحْسَنَ بِهِ فَهَيَّ إِلَيْهِ شُوسُ

أى أَحَسَّن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود « ظَلْتَ » بكسر الظاء . يقال : ظَلْتُ أَفْعَلَ كَذَا إذا فعلته نهارا وظَلْتُ وظَلْتُ ؛ فن قال : ظَلْتُ حذف اللام الأولى تخفيفا ؛ ومن قال : ظَلْتُ ألقى حركة اللام على الظاء . و﴿ لَنَحْرِقَنَّه ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء من حَرَّقَ يحرق . وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء ، من أحرقه يُحرِّقه . وقرأ على وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي « لَنَحْرِقَنَّه » بفتح النون وضم الراء خفيفة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقا بردته وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم : حَرَّقَ نَابَهُ يَحْرِقُهُ وَيَحْرِقُهُ أى سحقه حتى سُمِعَ له صَرِيف ؛ فمعنى هذه القراءة لنبردته بالمبارد ، ويقال لِلْبَرْدِ الْحَرَقُ . والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيه ؛ قال السدى : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح ، ثم بَرَدَ عظامه بِالْمَبْرَدِ وَحَرَّقَهُ . وفى حرف ابن مسعود « لنذبحنه ثم لنحرقنه » واللحم والدم إذا أحرقا

(١) هو أبوزبيدة ؛ والشوس ( بالتحريك ) قال ابن سيدة : أن ينظر بإحدى عينيه ، ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها ؛ ويكون ذلك خلفة ، ويكون من الكبير والتب والغضب .

صارا رمادا فيمكن تذريته في اليم ، فأما الذهب فلا يصير رمادا . وقيل : عرف موسى ما يصير به الذهب رمادا ، وكان ذلك من آياته . ومعنى ((لَنَنْسِفَنَّهُ)) لنطيرنه . وقرأ أبو رجاء «لَنَنْسِفَنَّهُ» بضم السين لغتان ، والنسف نفص الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية ، والنسف ما يُنسف به الطعام ، وهو شيء متصوب المصدر أعلاه مرتفع ، والنسافة ما يسقط منه ، يقال : أعزل النسافة وكل من الخالص . ويقال : أتنا فلان كأن لحية منسف ، حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم . والمنسفة آلة يقطع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلعتة ، ونسف البعير الكلا ينسفه بالكسر اذا اقتلعه بأصله ، وانتسفت الشيء اقتلعتة ، عن أبي زيد .

قوله تعالى : ((إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا)) لا العجل ؛ أى وسع كل شيء علمه ؛ يفعل الفعل عن العلم ؛ ونصب على التفسير . وقرأ مجاهد وقتادة «وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا» .

قوله تعالى : كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَغْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَمْجُلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْلَفْتُونَ بِهِمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ((كَذَلِكَ)) الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف . أى كما قصصنا عليك خبر موسى ((كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ)) قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليلد على صدقك . ((وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)) يعنى القرآن . وسمى القرآن ذكرا ؛ لما فيه من الذكر كما سمي الرسول ذكرا ؛ لأن الذكر كان ينزل عليه . وقيل : «آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» أى شرفا ، كما قال تعالى : «وَلِئِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ» أى شرف وتنويه بأسمك .

قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى القرآن فلم يؤمن به ، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى إنما عظميا وحملًا ثقيلا . ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه ؛ أى فى جزائه وجزأه جهنم . ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يريد بأْس الحمل حملوه يوم القيامة . وقرأ داود ابن رفيع « فَإِنَّهُ يَحْمِلُ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ﴾ قراءة العامة « ينفخ » بضم الياء على الفعل المجهول . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل . واستدل أبو عمرو بقوله تعالى : « وَنَحْشُرُ » بنون . وعن ابن هريرة « ينفخ » بفتح الياء أى ينفخ إسرافيل . أبو عياض : « فى الصور » . الباقون : « فى الصور » وقد تقدم هذا فى « الأنعام » مستوفى وفى كتاب « التذكرة » . وقرأ طاحه بن مُصَرِّف « وَيُحْشِرُ » بضم الياء « الْمُجْرِمُونَ » رفعا بخلاف المصحف . والباقون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين ، والزرق خلاف الكحل . والعرب تتشام بزرق العيون وتذمه ؛ أى تشوه خلقتهم بزرقه عيونهم وسواد وجوههم . وقال الكلبى والفراء : « زرقا » أى عميا . وقال الأزهري : عطاشا قد أزرق أعينهم من شدة العطش ؛ وقاله الزجاج ؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش . وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ؛ يقال : أبيضت عيني لطول انتظاري لكذا . وقول خامس : إن المراد بالزرقه شحوص البصر من شدة الخوف ؛ قال الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعب \* كما كل ضبي من اللؤم أزرق

يقال : رجل أزرق العين ، والمرأة زرقاء بينة الزرق . والأسم الزرقه . وقد زرقت عينه بالكسر وأزرقته عينه أزرقا ، وأزراقت عينه أزريقا . وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكَاءً وَصَمًا » فقال : إن ليوم القيامة حالات ؛ حالة يكونون فيه زرقا ، وحالة عميا . ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الخفت فى اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته خفته .

يتسارون؛ قاله مجاهد؛ أى يقول بعضهم لبعض فى الموقف سرا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أى ما لبثتم يعنى فى الدنيا، وقيل: فى القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد عشرا ليل. وقيل: أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة؛ يرفع العذاب فى تلك المدة عن الكفار — فى قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة. أو مدة مقامهم فى الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة؛ ويخيل إلى أمثلهم أى أعد لهم قولا وأعمالهم وأعمالهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوما واحدا يعنى لبثهم فى الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير: إلا مثل يوم. وقيل: إنهم من شدة هول المطالع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم فى القبور على ما تقدم. «وعشرا» و«يوما» منصوبان بـ «لبثتم».

قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٥٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ<sup>ط</sup> وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٥٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٥٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ<sup>ه</sup> عَلَيْهَا ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة. ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء وكل سؤال فى القرآن «قل» بغير فاء إلا هذا، لأن المعنى إن سألك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط. وقد علم الله أنهم يسألونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوها عنها النبي صلى الله عليه وسلم بجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد؛ فتفهّمه. ﴿يَنْسِفُهَا﴾ يطيرها. ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا. قال: ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ، ثم كالهباء المنتور. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أى يذر مواضعها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع الأرض المساء

بلا نبات ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي . وقال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض والجمع أقوع وأقواعٌ وقِيحَانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء . الكلبي : هو الذى لا نبات فيه . وقيل : المستوى من الأرض كأنه على صف واحد فى آسستوائه؛ قاله مجاهد . والمعنى واحد فى القاع والصفصف؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس . وأنشد سيبويه <sup>(١)</sup> :

وَكَمْ دُونَ بَيْتِكَ مِنْ صَفْصَفٍ \* وَدَكَدَاكِ رَمْلٍ وَأَعْقَادِهَا

و«قاعا» نصب على الحال والصفصف . و«لَا تَرَى» فى موضع الصفة . «فِيهَا عَوْجًا» قال ابن الأعرابي : العوج التعوج فى الفجاج . والأمت النبك . وقال أبو عمرو : الأمت النبك وهى التلال الصغار واحدها نبك؛ أى هى أرض مستوية لا أنخفاض فيها ولا ارتفاع . تقول : أمتلاً فما به أمت ، وملاأت القربة مثلاً لا أمت فيه؛ أى لا أسترخاء فيه . والأمت فى اللغة المكان المرتفع . وقال ابن عباس : «عَوْجًا» ميلاً . قال : والأمت الأثر مثل الشراك . وعنه أيضاً «عَوْجًا» واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضاً : العوج [الأنخفاض] <sup>(٢)</sup> والأمت الارتفاع . وقال قتادة : «عَوْجًا» صدعا «وَلَا أَمْتًا» أى أكمة . وقال يمان : الأمت الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت أن يغلظ مكان فى الفضاء أو الجبل ويدق فى مكان؛ حكاها الصولى .

قلت : وهذه الآية تدخل فى باب الرقى؛ ترقى بها النأليل وهى التى تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)؛ تطلع فى الجسد وخاصة فى اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبين الشعير، يكون فى طرف كل عود عقدة، ثم تترك كل عقدة على النأليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد فى مكان ندى؛ تعفن وتعفن النأليل؛ فلا يبقى لها أثر؛ حُرِبت ذلك فى نفسى وفى غيرى فوجدته نافعاً إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ» يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ فى الصور «لَا عِوَجَ لَهُ» أى لا معدل لهم عنه؛ أى عن دعائه لا يزيغون ولا يخرفون بل يسرعون إليه ولا يبيدون

(١) البيت للأعشى؛ وقد وصف بعد المسافة بينه وبين المدوح الذى قصده ليستوجب بذلك جائزته . والدكدك من الرمل المستوى . الاعقاد (جمع) عقدة وهو المتعقد من الزمل المتراكب . (٢) زيادة بقضيتها المعنى .

عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لدعائه . وقيل : يَتَّبِعُونَ الداعى  
 اتِّبَاعًا لَا عِوَجَ لَهُ ؛ فالمصدر مضمَرٌ ؛ والمعنى : يَتَّبِعُونَ صوت الداعى للمحشر ؛ نظيره :  
 « وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسيأتى . ( وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ )  
 أى ذَلَّتْ وسكنت ؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال  
 الخشع ، فكل لسان ساكت هناك للهبة . ( لِلرَّحْمَنِ ) أى من أجله . ( فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا )  
 الهمس الصوت الخفى ؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحسن الخفى . الحسن وابن جريج :  
 هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر ؛ ومنه قول الراجز :

\* وَهَنْ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا \*

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد الهموس ؛ لأنه يهيمس فى الظلمة ؛  
 أى يطاء وطئا خفياً . قال رؤبة يصف نفسه بالشدة :

لَيْتَ يَدُقُّ الْأَسَدَ الْهَمُوسَا \* وَالْأَقْهَمِينَ الْقَيْلَ وَالْجَامُوسَا <sup>(١)</sup>

وهمس الطعام ؛ أى مضغه وفوه منضم ؛ قال الراجز :

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا مُذْ أَمَسَا \* عَجَازًا مِثْلَ السَّعَالِي نَحْمَسَا

\* يَا كَلَنْ مَا أَصْنَعُ هَمْسًا هَمْسًا \*

وقيل : الهمس تحريك الشفة واللسان . وقرأ أبى بن كعب « فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا » .  
 والمعنى متقارب ؛ أى لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء ( هم س ) أصله  
 الخفاء كيفما تصرف ؛ ومنه الحروف المهموسة ، وهى عشرة يجمعها قولك : ( حَمْسُهُ شَخْصٌ  
 فَسَكَتَ ) وإنما سمي الحرف مهموسا لأنه ضَعُفَ الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس .

قوله تعالى : ( يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ) « من » فى موضع نصب  
 على الاستثناء الخارج من الأول ؛ أى لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن .  
 ( وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ) أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى ، أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن  
 له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمي القيل والجاموس أقهين لونهما وهو الغبرة .

قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى من أمر الساعة . ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا قاله قتادة . وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب «وما خلفهم» ما خلفوه وراءهم فى الدنيا . ثم قيل : الآية عامة فى جميع الخلق . وقيل : المراد الذين يتبعون الداعى . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ الهاء فى « به » لله تعالى ؛ أى أحد لا يحيط به علما ؛ إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم ؛ أى أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله . وقال الطبرى : الضمير فى «أيديهم» و«خلفهم» و«يحيطون» يعود على الملائكة ؛ أعلم الله من يعبدونها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعالى : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ أى ذلت وخضعت ؛ قاله ابن الأعرابى وغيره . ومنه قيل للاسير عان . قال أمية بن أبى الصلت :  
مليكك على عرش السماء مهيمن \* لعزته تعنو الوجوه وتسجد  
وقال أيضا :

وَعَنَالَهُ وَجْهِي وَخَلَقِي كُلَّهُ \* فى الساجدين لوجهه مشكورا  
قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلل وأعناه غيره ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ . ويقال أيضا : عنا فيهم فلان أسيرا ؛ أى أقام فيهم على إيساره وأحتبس . وعناه غيره تعنيته حبسه . والعانى الأسير . وقوم عناة ونسوة عوان . وعنت به أمور نزلت . وقال ابن عباس : «عنت» ذلت . وقال مجاهد : خشعت . الماوردى : والفرق بين الذل والخشوع — وإن تقارب معناهما — أن الذل أن يكون ذليل النفس ، والخشوع أن يتذل لذى طاعة . وقال الكلبي : «عنت» أى علمت . عطية العوفى : استسلمت . وقال طلق

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود . النحاس : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ » في معناه قولان : أحدهما — أن هذا في الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عباس « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » قال : الركوع والسجود ؛ ومعنى « عنَت » في اللغة القهر والغلبة ، ومنه فتحت البلاد عنوة أى غلبة ؛ قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

فما أخذوها عنوة عن مودة \* ولكن ضرب المشرف استقالها

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب ؛ وكنى عن الناس بالوجوه ؛ لأن آثار الذل إنما تبتين في الوجه . « لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » وفي القيوم ثلاث تأويلات ؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق . الثاني — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذى لا يزول ولا يبدد . وقد مضى في « البقرة » هذا . « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أى خسر من حمل شركا .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » لأن العمل لا يقبل من غير إيمان . و « من » في قوله : « مِنَ الصَّالِحَاتِ » للتبعية ؛ أى شيئاً من الصالحات . وقيل : للجنس . « فَلَا يَخَافُ » قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصن « يَخَفُ » بالجزم جواباً لقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ » . الباقيون « يَخَافُ » رفعاً على الخبر ؛ أى فهو لا يَخَافُ ؛ أو فإنه لا يخاف . « ظُلْمًا » أى نقصاً لثواب طاعته ، ولا زيادة عليه في سيئاته . « وَلَا هَضْمًا » بالانتقاص من حقه . والهضم النقص والكسر ؛ يقال : هضمتُ ذلك من حتى أى حططته وتركته . وهذا يهضم الطعام أى ينقص ثقله . وأمراً هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . الماوردى : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن افرقا من وجه ؛ قال المتوكل اللبثي :

إن الأذلة واللئام لمعشر \* مولاهم المتهضم المظلوم

قال الجوهري : ورجل هَضِيمٌ ومُهْتَضِمٌ أى مظلوم . وتهضمه أى ظلمه وأهضمه إذا ظلمه وكسر عليه حقه .

(١) أنشده الفراء الكثير كما في « اللسان » . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .



قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أى كما بينا لك فى هذه السورة من البيان فكذلك جعلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى بلغة العرب . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أى بينا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى يخافون الله فيجتنبون معاصيه ، ويحذرون عقابه . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أى موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا ؛ فالذكرها هنا بمعنى الشرف ؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقيل : أى ليتذكروا العذاب الذى توعدوا به . وقرأ الحسن « أَوْ يُحْدِثُ » بالنون ؛ وروى عنه رفع الناء وجزمها . قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه ، وإنزال القرآن نزه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال : « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى جلّ الله الملك الحق ؛ أى ذو الحق . ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علم نبيه كيف يتلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأنزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » . وهذا كقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » على ما يأتى . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن نتيبته . وقيل : « وَلَا تَعْجَلْ » أى لا تسئل إنزاله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ » أى يأتيك « وَحْيُهُ » . وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت فى رجل لطم وجه أمرأته ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص ، فنزل « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ولهذا قال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى فهما ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره « مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ » بالنون وكسر الضاد « وَحْيُهُ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ ﴾ قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسَى» بإسكان الياء وله معنيان : أحدهما - ترك ؛ أى ترك الأمر والعهد ؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» . و[وثانيهما] قال ابن عباس : «نسى» هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسى . قال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس . وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذاً بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعاً . ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهى عنها . والمراد تسليية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى طاعة بنى آدم الشيطان أمر قديم ؛ أى إن تقضى هؤلاء العهد فإن آدم أيضاً عهدنا إليه فنسى ؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري . أى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ، ويخالفوا رسلي ، ويطيعوا إبليس ، فقدما فعل ذلك أبوهم آدم . قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما الظاهر في الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن ، مثل له بنى قبله عهد إليه فنسى فعوقب ؛ ليكون أشد في التحذير ، وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا في معنى الوصية ؛ «ونسى» معناه ترك ؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعاق بالناسي عقاب . والعزم الماضي على المعتقد في أى شيء كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده . والشئ الذي عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدوه . واختلف في معنى قوله : ﴿ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ فقال ابن عباس وقتادة : لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر . قال

النحاس : وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال : لفلان عزم أى صبر وثبات على التحفظ من المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه « فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفى : حفظا لما أمر به ؛ أى لم يتحفظ مما نهته حتى نسى ، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال ؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِدَتْ فى الجنة ؛ يعنى عين تلك الشجرة ، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل فى عموم النهى وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل ، وظنّ أنها لم تدخل فى النهى فأكلها تأويلا ، ولا يكون ناسيا للشيء من يعلم أنه معصية . وقال ابن زيد : « عزمًا » محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزيمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب . قال القشيري : والأول أقرب إلى تأويل الكلام ؛ ولهذا قال قوم : آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل ؛ لأن الله تعالى قال : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال المعظم : كل الرسل أولو العزم ، وفى الخبر : « ما من نبيّ إلا وقد أخطأ أوهم بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا » ، فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، ووضعت فى كفة ميزان ، ووضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ تقدم فى « البقرة » مستوفى . ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا ﴾ نهى ، ومجازه :

لا تقبلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ . ﴿ فَتَشْقَى ﴾ يعني أنت وزجك لأنهما في استواء العالة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيما ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص . وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى » أى فى الجنة « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » فأعلمه أن له فى الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنت إن ضيقت الوصية ، وأطعت العدو أخرجكما من الجنة فشقيت تعباً ونصباً ؛ أى جمعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة . وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . وأعلمنا فى هذه الآية أن النفقة التى تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاه هذه الأربعة فقد نخرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة . قال الحسن المراد بقوله : « فتشقى » شقاء الدنيا ؛ لا يرى ابن آدم إلا ناصباً . وقال الفراء : هو أن يأكل من كد يديه . وقال سعيد بن جبیر : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرق عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذى قال الله تبارك وتعالى . وقيل : لما أهبط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم أزرع هذا ، فحرت وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقي ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جالس لى كل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيغه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أى فى الجنة « وَلَا تَعْرَى » .  
« وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا » أى لا تعطش . والظما العطش . « وَلَا تَضْحَى » أى تبرز للشمس  
فتجد حرها . إذ ليس فى الجنة شمس ، إنما هو ظل ممدود ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع  
الشمس . قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا : وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر .  
قال أبو زيد : ضحا الطريق يضحو ضحوا إذا بدا لك وظهر . وَضَحِيْتُ وَضَحِيْتُ (بالكسر)  
ضحا عيرقت ، وَضَحِيْتُ أيضا للشمس ضحا ممدود برزت وَضَحِيْتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل  
أَضْحَى فى اللغتين جميعا ، قال عمر بن أبى ربيعة :

رَأَتْ رَجُلًا أَيَّمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ \* فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْضَرُ

وفى الحديث أن ابن عمر رأى رجلا محروما قد استظل ، فقال : أضح لمن أحمرت له . هكذا  
يرويه المحدثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصمعى : إنما هو أضح لمن  
أحمرت له ، بكسر الألف وفتح الحاء ، من ضحيت أضحي ، لأنه أمره بالبروز للشمس ،  
ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » وأنشد :

ضَحِيْتُ لَهُ كَيْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ \* إِذَا الظَّلُّ أَضْحَى فى القيامة قَالِصَا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما فى رواية أبى بكر عنه « وَأَنَّكَ » بفتح الهمزة عطفًا على  
« أَلَّا تَجُوعَ » ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع عطفًا على الموضع ، والمعنى : ولك أنك  
لا تظما فيها . الباقون بالكسر على الاستئناف ، أو على العطف على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى  
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا  
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣﴾  
ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ تقدم في « الأعراف » <sup>(١)</sup> . ﴿ قَالَ ﴾ يعني الشيطان ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴾ وهذا يدل على المشافهة ، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدم في « البقرة » <sup>(٢)</sup> بيانه ، وتقدم هناك تعيين الشجرة ، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة . ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ تقدم في « الأعراف » <sup>(٣)</sup> مستوفى . وقال الفراء : « وَطَفِقَا » في العربية أقبلًا ، قال وقيل : جعلًا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَعَصَى » تقدم في « البقرة » القول في ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، وأخبروا بذلك عن نفوسهم ، وتنصّلوا منها ، وأستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم ، وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السانس ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيّد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كانوا قد شهدوا النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولا قدح في رتبهم ، بل قد تلافاهم ، وأجتاباهم وهداهم ، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانية — قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ، فأما أن يتبدى ذلك من قبل

(١) راجع ج ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٥ طبعه ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع ج ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعه ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس بجائز لنا فى آباءنا الأذنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدم، الذى عَـدَّره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : وإذا كان هذا فى المخلوق لا يجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا فى أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : من وصف شيئاً من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده ، وكذلك فى السمع والبصر يقطع ذلك منه ، لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة — روى الأئمة واللفظ [ لمسلم <sup>(١)</sup> ] عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أحتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى أصطفاك الله عز وجل بكلامه وخط لك بيده يا موسى : أتلومنى على أسر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثاً <sup>(٢)</sup> " قال المهلب قوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له ؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدر على المعصية ، وقدر على التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : إن عثمان فز يوم أحد ؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب ؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعيره من بره أن لو كان مما يعير به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين : « وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَآفَجَرُنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف بأب هو نبي قد آجبتاه ربه وتاب عليه وهدى .

(١) فى الأصول : اللفظ للبخارى . والتصويب عن صحيح مسلم .

(٢) ثلاثاً : أى قال النبي صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى " ثلاث مرات .

الرابعة — وأما من عمل الخطايا ولم تأت المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتاج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زينت أو سرقت وقد قدر الله على ذلك، والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعيد ذنوبه عليه.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿فَغَوَى﴾ أي ففسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المرقى أبا جعفر القرطبي يقول: «فَغَوَى» ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا، والغى الفساد، وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: «فَغَوَى» معناه ضل، من الغى الذي هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده، أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهى عنها، والغى الجهل. وعن بعضهم «فَغَوَى» فبشيم من كثرة الأكل، الزمخشري: وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً، فيقول في قَيَّ وبقَى: قَيَّ وبقَى وهم بنو طي، تفسير خبيث.

السادسة — قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاص ولا غاوى، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خياط ما لم تكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلف، وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فيما أن تكون صفات، أو ترك الأولى، أو قبل النبوة.

قلت: هذا حسن، قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فخاف عليهم الذنوب وجها واحداً، لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مومنين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾



قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ اَعْمٰى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذٰلِكَ اَنْتَكَ  
ءَايٰتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسٰى ﴿١٢٦﴾ وَكَذٰلِكَ نَجْزِيْ مَنْ اَسْرَفَ  
وَلَمْ يُؤْمِنْ بِعَايٰتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْاٰخِرَةِ اَشَدُّ وَاَبْقٰى ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ خاطب آدم وإبليس . « مِنْهَا » أى من الجنة .  
وقد قال لأبليس : « أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَّدْحُورًا » فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من  
السماء ، ثم أَهْبِطَ إلى الأرض . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ تقدم في « البقرة » أى أنت عدو  
للحية ولأبليس وهما عدوان لك . وهذا يدل على أن قوله : « أَهْبِطَا » ليس خطابا لآدم  
وحواء ؛ لأنهما ما كانا متعادين ؛ وتضمن هبوط آدم هبوط حواء . ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾  
أى رشدًا وقولًا حقًا . وقد تقدم في « البقرة » . ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ يعنى الرسل والكتب .  
﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل  
في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن وأتبع ما فيه هداه الله من  
الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا الآية . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ ﴾ أى  
دينى ، وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يحمل  
الذكر على الرسول ؛ لأنه كان منه الذكر . ﴿ فَإِنِّ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنُكًا ﴾ أى عيشا ضيقا ؛ يقال :  
مَنْزِلُ ضَنْكَ وَعَيْشُ ضَنْكَ يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْأَثْنَانُ وَالْمَذْكُورُ وَالْمُؤْنُثُ وَالْجَمْعُ ؛ قال عنترة :  
إِنْ يُلْحَقُوا أَكْرَزُوا وَإِنْ يُسْتَلْحَمُوا \* أَشَدُّ وَإِنْ يُلْفُوا بِضَنْكَ أَنْزِلِ  
وقال أيضا :

إِنِّ الْمَنِيَّةَ لَوُتُمَثِّلُ مُثَلَّتْ \* مثلى إذا نزلوا بِضَنْكَ الْمَنْزِلِ

وقرئ « ضَنْكِي » على وزن فَعَلَى : ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة  
والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق مما رزقه الله — عز وجل — بسماح وسهولة

(١) راجع ج ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

(١) ويعيش عيشاً رافعاً؛ كما قال الله تعالى : « فَلْنَحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً » . والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الأزدیاد من الدنيا، مسلط عليه الشح، الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتَشَوَّشَ عليه رزقه، وكان في عيشة ضنك . وقال عكرمة : « ضَنْكًا » كسبا حراما . الحسن : طعام الضريع والزقوم . وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر، قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة »، قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، وهو المعيشة الضنك . « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » قيل : أعمى في حال وبصيرا في حال، وقد تقدم في آخر « سبحان » . وقيل : أعمى عن الحجّة، قاله مجاهد . وقيل : أعمى عن جهات الخير، لا يبتدى لشيء منها . وقيل : عن الحيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه . « قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » أي بأى ذنب عاقبتني بالعمى . « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » أي في الدنيا، وكأنه يظن أنه لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد : أي « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » عن حجتى « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » أي عالما بحجتي، القشيري : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة في الدنيا . « قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أي دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا . « فَانْسِيَهَا » أي تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها . « وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » أي ترك في العذاب، يريد جهنم . « وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ » أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر في المصنوعات، والتفكر فيها، وجاوز الحد في المعصية . « وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ » أي لم يصدق بها . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ » أي أفظع من المعيشة الضنك، وعذاب القبر . « وَأَبْقَى » أي أديم وأثبت، لأنه لا ينقطع ولا ينقضى .

(١) عيش أرفع ورافع ورفيع : خصب واسع طيب .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أول أو ثانية .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُرْهُهُمُ الَّذِي قَبَّلْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ  
فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ  
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ  
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ  
الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكت  
قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إذا سافروا وخرجوا فى التجارة طلب المعيشة ، فيرون  
بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية ؛ أى أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ما حل بالكفار  
قبلهم . وقرأ ابن عباس والسامى وغيرهما « نَهْدَ لَهُمْ » بالنون وهى أئين . و « يهد » بالياء  
مشكل لأجل الفاعل ؛ فقال الكوفيون : ﴿ كَمْ ﴾ الفاعل ؛ النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن « كَمْ »  
استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أولم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من  
أهلكنا . وحقيقة « يهد » يدل على الهدى ؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدى لهم .  
قال الزجاج : « كَمْ » فى موضع نصب بـ ﴿ أهلكنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ فيه تقديم وتأخير ؛ أى ولولا  
كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ؛ قاله قتادة . واللزام الملازمة ؛ أى لكان  
العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على « كلمة » .  
قتادة : والمراد القيامة ؛ وقاله القتيبي . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر ؛  
إنه كاهن ؛ إنه كذاب ؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا  
لا يتقدم ولا يتأخر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم  
يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى معظم منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قال أكثر المتأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر ؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ؛ فهي في طرفين منه ؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب . وقيل : النهار ينقسم قسمين فصاهما الزوال ، ولكل قسم طرفان ، فعند الزوال طرفان ؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر ؛ فقال عن الطرفين أطرافا على نحو « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل . وقيل : النهار للجنس فلكل يوم طرف ، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار . « وآتاء الليل » ساعاته وواحد الآتاء إِنِّي وَإِنِّي وَأَيَّ . وقالت فرقة : المراد بالآية صلاة التطوع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ بفتح التاء ؛ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به . وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم « تُرَضَى » بضم التاء ؛ أي لعلك تُعطى ما يرضيك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ (١٣١) وأمر أهلك بِالضَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (١٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ وقد تقدم معناه في « الحجر » .

﴿ أَزْوَاجًا ﴾ مفعول بـ « متعنا » . و « زهرة » نصب على الحال . وقال الزجاج : « زهرة » منصوبة بمعنى « متعنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ؛ أو بفعل مضمر وهو « جعلنا » أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : هي بدل من الهاء في « به » على الموضع ، كما تقول : مررت به أخاك . وأشار الفراء إلى نصبه على الحال ؛ والعامل فيه « متعنا » قال : كما تقول مررت به المسكين ؛ وقدره : متعناهم به زهرة الحياة في الدنيا وزينة فيها . ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنِعَ اللَّهُ » و « وَعَدَ اللَّهُ » وفيه

نظر . والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » في قوله : « إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تمتد عينيكم إلى الحياة الدنيا زهرةً أى في حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع في قوله : « إِلَى مَا مَتَعْنَا » لأن « لِنَفْتِنَهُمْ » متعلق بـ « متعنا » و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يعنى زينتها بالنبات . والزهرة ، بالفتح في الزاى والهاء نور النبات . والزهرة بضم الزاى وفتح الهاء النجم . وبنو زهرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهْرَةَ » بفتح الهاء مثل نهر ونهر . ويقال : سراج زاهر أى له بريق . وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها . وفي الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ؛ أى نير اللون ؛ يقال لكل شىء مستنير : زاهر ، وهو أحسن الألوان . ( لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) أى لنبتليهم . وقيل . لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا . ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا ، فإنه لا بقاء لها . « وَلَا تَمُدَّنَّ » أبلغ من لا تتظن ، لأن الذى يمد بصره ، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن ، والذى ينظر قد لا يكون ذلك معه .

مسئلة — قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل من اليهود ، وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يُلَفَّ عندنا بعض الذى يصلحه ؛ فبغنى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : “ والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأدت إليه اذهب بدرعى إليه ” ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التى ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

وبخبرهم على ترك الاعتبار بالأثم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أفوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرف عنهم صائر إلى خزي .

قلت : وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مرّ بإبل بنى المصطلق وقد عيبت<sup>(١)</sup> في أبوالها [وأبعارها] من السمن فتقنّع بثوبه ثم مضى ؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » الآية . ثم سلّاه فقال : « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » أي ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفتنى . وقيل : يعنى بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمثلها معهم ، ويصطبر عليها ويلزمها . وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته ، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : « الصلاة » . ويروى أن عروة بن الزبير رضى الله عنه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحوالهم يادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » — الآية — إلى قوله : « وَأَبْقَىٰ » ثم ينادى بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ ويصلي . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يمثل بالآية .

قوله تعالى : « لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا » أي لا نسئلك أن ترزق نفسك وإياهم ، وتستغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة . وقد قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » . قوله تعالى : « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » أي الجنة لأهل التقوى ؛ يعنى العاقبة المحمودة . وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهى كالمعدومة .

(١) عيبت في أبوالها : هو أن تحجب أبوالها وأبعارها على أنفاذاها وذلك إنما يكون من الشحم .

(٢) الزيادة من « النهاية » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ <sup>ج</sup> أَوْ لِمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ  
 مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٢) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ  
 لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ  
 وَنُخْزَى (١٣٣) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا <sup>ط</sup> فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ  
 السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يريد كفار مكة ؛ أى لولا يأتينا محمد  
 بآية توجب العلم الضرورى . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التى  
 نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل  
 والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقرئ « الصُّحُفِ » بالتخفيف .  
 وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل :  
 أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا وأقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات أن يكون  
 حالهم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبى إسحق وحفص  
 « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالتاء لتأنيث البينة . الباكون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هى البيان  
 والبرهان فردوه إلى المعنى ، وأخاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائى « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ  
 مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويجوز على هذا « بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » . قال  
 النحاس : إذا نونت « بينة » ورفعت جعلت « ما » بدلا منها ، وإذا نصبتهما فعلى الحال ؛  
 والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبينا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه  
 وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلا  
 أرسلت إلينا رسولا . ﴿ فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَى ﴾ وقرئ « نُذَلَ وَنُخْزَى » على

ما لم يسم فاعله . وروى أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود قال : " يقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ولا رسول - ثم تلا - « وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْتُكُمْ بَعْدَ ابْنِ قَبِيلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا » - الآية - ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود رب لم أدرك العمل فترفع لهم نار فيقول لهم ردوها وأدخلوها - قال - فيردوها أو يدخلها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك وتعالى إياي عصيتم فكيف رسل لو أنتمكم " وروى موقوفا عن أبي سعيد قوله ؛ وفيه نظر ؛ وقد بيناه في كتاب « التذكرة » وبه احتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يتمتعون في الآخرة . « فَنَتَبَّعَ » نصب بجواب التخصيص . « آيَاتِكَ » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . « مِنْ قَبِيلِ أَنْ نَذِلَّ » أى فى العذاب « وَنَخْزَى » فى جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : « مِنْ قَبِيلِ أَنْ نَذِلَّ » فى الدنيا بالعذاب « وَنَخْزَى » فى الآخرة بعذابها . ( قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ ) أى قل لهم يا محمد كل متربص ؛ أى كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولن يكون النصر . ( فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ) يريد الدين المستقيم والهدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق . وقيل : فستعلمون يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة . وفى هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختم به السورة . وقرئ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » . قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الزمخشري . و « من » فى موضع رفع عند الزجاج . وقال الفراء : يجوز أن يكون فى موضع نصب مثل « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق : هذا خطأ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، و « مَنْ » هاهنا استفهام فى موضع رفع بالابتداء ؛ والمعنى : فستعلمون أصحاب الصراط السوى نحن أم أنتم ؟ . قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى « مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضل ، وإلى أن معنى « وَمَنِ اهْتَدَى » من ضل ثم اهتدى . وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدري « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ



الصَّراطِ السُّوَى « بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعَلٍ بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل ، قال الله تعالى : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » بخاء مذكرا في هذا وفي غيره ، وقد ردّ هذا أبو حاتم قال : إن كان من السوء وجب أن يقال السُّوءى وإن كان من السَّوء وجب أن يقال : السَّيِّئاً بكسر السين والأصل السُّوَيَا . قال الزخشرى : وقرئ « السَّوَاء » بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوى . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدري أن يكون الأصل « السُّوءى » والسَّاكن ليس بحاجز حصين ، فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

## سورة الانبياء

مكية فى قول الجميع ، وهى مائة واثنى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾  
مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾  
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ  
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلادى يريد من قديم ما كسب وحفظ من القرآن كالمال التلاد . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا ، فتر به آخر فى يوم نزول هذه السورة ، فقال الذى كان يبنى الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : نزل « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » فنفض يده من البنيان ، وقال : والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب . « أَقْتَرَبَ » أى قرب الوقت

الذي يحاسبون فيه على أعمالهم . « للناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يُلْعَبُونَ » إلى قوله : « أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَانْتُمْ تَبْصُرُونَ » . وقيل : الناس عموم وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات ؛ ومن علم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأن ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آت قريب ، والموت لا محالة آت ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعنى أهل مكة ؛ لأنهم استبطلوا ما وعدوا به من العذاب تكذيبا ، وكان قتلهم يوم بدر . النحاس : ولا يجوز فى الكلام اقتراب حسابهم للناس ؛ لئلا يتقدم مضمهر على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير . « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » ابتداء وخبر . ويجوز النصب فى غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما — « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى — عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيويوه بمعنى « إذ » وهى التى يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَغْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ » .

قوله تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ » « مُحَدَّثٌ » نعت لـ « ذِكْرٍ » . وأجاز الكسائى والفراء « مُحَدَّثًا » بمعنى ما يأتىهم محدثا ؛ نصب على الحال . وأجاز الفراء أيضا رفع « مُحَدَّثٌ » على النعت للذكر ؛ لأنك لو حذف « مِنْ » رفعت ذكرا ؛ أى ما يأتىهم ذكر من ربهم مُحَدَّثٌ ؛ يريد فى النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة ، وآية بعد آية ، كما كان ينزله الله تعالى عليه فى وقت بعد وقت ؛ لا أن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظمهم به . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي ، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر ، وهو محدث ؛ قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » . ويقال : فلان فى مجلس

الذكر . وقيل : الذكر الرسول نفسه ؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما فى سياق الآية « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأولين ؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا » . ( إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ ) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم أو من أمته . ( وَهُمْ يَلْعَبُونَ ) الواو واو الحال يدل عليه « لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أى يلهون . وقيل : يشتغلون ؛ فإن حصل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم . الثانى — بسماع ما يتلى عليهم . وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يشتغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » . الثانى — يشتغلون بالقدح فيه ، والاعتراض عليه . قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل . وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ( لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ) أى ساهية قلوبهم ، معرضة عن ذكر الله ، متشغلة عن التأمل والتفهم ؛ من قول العرب : لميت عن ذكر الشئ إذا تركته وسلوت عنه ألقى لهيأ ولهيأنا . و « لاهية » نعت تقدم الأسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت فى جميع الإعراب ، فإذا تقدم النعت الأسم انتصب كقوله : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » و « لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِعَزَّةٍ مُّوَحِّشًا طَلَّلُ \* يَسْلُوحُ كَأَنَّهُ خَلَّلُ

أراد : طلل موحش . وأجاز الكسائى والفراء « لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ . وقال الكسائى : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم . ( وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى تناجوا فيما بينهم بالكذب ، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا ؛ ف « الَّذِينَ ظَلَمُوا » بدل من الواو فى « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم ؛ ولا يوقف على هذا (١) هو كثيرة عزة ، أى تلوح آثاره وتبين بين الوشى فى خلل السيوف ، وهى أغشية الأغمد ؛ واحدها خلة .

القول على « النجوى » . قال المبرد وهو كقولك : إن الذين في الدار أنطلقوا بنو عبد الله فينبو بدل من الواو في أنطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم ، أى هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ؛ التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ؛ مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْهِمْ » . وأختار هذا القول النحاس ؛ قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى أقرب للناس الذين ظلموا حسابهم ؛ ولا يوقف على هذا الوجه على « النجوى » . ويوقف على الوجوه المتقدمة الثلاثة قبله ؛ فهذه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكونى البراغيث ؛ وهو حسن ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بك نال النضال دون المساعي \* فأهتدين النبأ للأغراض

وقال آخر : <sup>(١)</sup> وليكن دياقي أبوه وأمه \* بجوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى . أبو عبيدة : « أسروا » هنا من الأضداد ؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذى هو الرسول ، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشيء ، يا كل الطعام ، ويمشى في الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا ويعلمهم . ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ ﴾ أى إن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر ، فكيف يجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به . و« السحر » فى اللغة كل مموه لا حقيقة له ولا صحة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنه إنسان مثلكم مثل : « وأنتم تعقلون » لأن العقل البصر بالأشياء . وقيل : المعنى ؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر . وقيل : المعنى ؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف ؛ موضع بالجزيرة ، وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِعَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٢﴾ مَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فى السماء والأرض . وفى مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّى » أى قال محمد ربى يعلم القول ؛ أى هو عالم بما تناجيتهم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لهم هذا ؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أمر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها فى المنام ؛ قال معناه مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

\* كِضْغَتْ حُلْمٌ غُرٌّ مِنْهُ حَالِمُهُ \*

وقال القتيبي : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أَحَادِيثُ طَسَمٍ أَوْ سَرَابٌ بَقْدَفِيدٍ \* تَرْقُرُقُ لِلسَّارِي وَأَضْغَاثُ حَالِمٍ

وقال اليزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا فى « يوسف » . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا أنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل آفتراه » ثم أنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحيرون لا يستقرون على شىء : قالوا مرة سحر ، ومرة أضغاث أحلام ، ومرة آفتراه ، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر ، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه آفتراه ، وفريق إنه شاعر . والافتراء الاختلاق ؛ وقد تقدّم .

(١) « قل » على الأمر قراءة « نافع » . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل نافذة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتي بآية تقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعد ما رأوا آية واحدة . وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هى من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطب ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كانت الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيمِهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ يريد كان فى عامنا هلاكها . ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد يصدقون ؛ أى فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن فى أصلابهم من يؤمن . و « مِنْ » زائدة فى قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ هذا رد عليهم فى قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قاله سفيان . وسماهم أهل الذكر ؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن ؛ أى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ؛ قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على " رضى الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر ؛ فالمعنى لا تبدءوا بالإنكار وبقولكم ينبغى أن يكون الرسول من الملائكة ، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا ؛ لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه ؛ تقول : رجل وامرأة ، ورجل وصبي ؛ فقوله : « إِلَّا رَجَالًا » من بنى آدم . وقرأ حفص وحزمة والكسائى « نُوحِي إِلَيْهِمْ » .

مسئلة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعشى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه ؛ فكذلك من لا علم له ولا بصير بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا ؛ لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير فى « جعلناهم » للأنبياء ؛ أى لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسد » اسم جنس ؛ ولهذا لم يقل أجسادا ، وقيل : لم يقل أجسادا ؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن ؛ تقول منه : تجسّد كما تقول من الجسم تجسّم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصبغ ، وهو الدم أيضا ؛ قال النابغة :

\* وما هُرِيقَ على الأنصاب من جسد <sup>(١)</sup>

(١) صدر البيت : \* فلا لعبر الذى مسحت كبته \*

أقسم بالله أولا ثم بالدماء التى كانت تصب فى الجاهلية على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ يعني الأنبياء ؛ أى بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم . ﴿ وَمَنْ نَسَاءُ ﴾ أى الذين صدقوا الأنبياء . ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المشركين . قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ﴾ يعني القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت لكتاب ؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أى فيه شرفكم ، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوقيف فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم ؛ وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟ ! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل : مكارم أخلاقكم ، ومحاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبد الله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنى الأول يعمها ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله عليه السلام : « القرآن حجة لك أو عليك » .

قوله تعالى : وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْعَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾



قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم ، وقبر شعيب هذا باليمن يجبل يقال له ضَمْنٌ <sup>(٢)</sup> كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام ، وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرُّس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان ، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت يختصر فأعلمه أنى قد سلطته على أرض العرب ، وأنى منتقم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن أحمل معدي بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كي لا تصيبه النعمة والبلاء معهم ، فإني مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزمان اسمه محمد ، فحمل معدياً وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة ؛ ثم إنى بختنصر نهض بالحيوش ، وكن للعرب في مكان — وهو أول من اتخذ المكامن فيما ذكروا — ثم شن الغارات على حَضُور فقتل وسبى وتحرب العاصم ، ولم يترك بحَضُور أثراً ، ثم أنصرف راجعاً إلى السواد . و « كَمْ » في موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْم الكسر ؛ يقال : قصمت ظهر فلان وانقصمت سنة إذا أنكسرت ، والمعنى به ها هنا الإهلاك . وأما القَصْم ( بالفاء ) فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ؛ قال الشاعر <sup>(٣)</sup> :

كَأَنَّهُ دَمْلَجٌ مِنْ فِضَّةٍ نَبَّهَ \* فِي مَلَبٍ مِنْ عَذَارَى الْحَيِّ مَفْصُومٍ

ومنه الحديث « فُفِصِمَ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » . وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً » أى كافرة ؛ يعنى أهلها . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . ﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا ﴾ أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منه ضعفاً . وقال الأخفش : « أحسوا » خافوا وتوقعوا . ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أى يهربون ويفترون . والركض العدو بشدة الوطء . والركض

(١) وتروى حضوراً ( بالألف المدودة ) . (٢) كذا في الأصل . (٣) هو ذوالرمة ، يذكر غزى الاشبه وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسى . ونبه : أى منسى نسيت العذارى في الملعب .

تحريك الرجل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَرْكُضْ بِرِجَالِكَ » وركضت الفرس برجلي أستحيثته ليعدو ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا وليس بالأصل ، والصواب ركض الفرس على ما لم يسم فاعله فهو مركوض . « لَا تَرْكُضُوا » أى لا تفروا . وقيل : إن الملائكة نادتهم لما أنهزموا استهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . « وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ » أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أترف على فلان أى وسع عليه فى معاشه . ولانما أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أى لعلكم تسألون شيئا من دنياكم ؛ استهزاء بهم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك استهزاء وتقريعا وتوبيخا . « قَالُوا يَا وَيْلَنَا » لما قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » ونادت بالشارات الأنبياء ! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذى سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبى الذى بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » فاءترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف . « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : أى بالعذاب . « خَامِدِينَ » أى ميتين . والحمود الممود تخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بنمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَلْعَايِنَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا وباطلا ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب أمثال أمره ، وأنه يجازى المسمى والمحسن ؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليعظم بعض الناس بعضا ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا ، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا ﴾ لما اعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا » واللّهو المرأة بلغاة اليمن ؛ قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسر — وجاء طالوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا » — فقال : اللّهو الزوجة ؛ وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللّهو الولد ؛ وقاله الحسن أيضا . قال الجوهري : وقد يكفى باللّهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

أَلَا زَعَمْتُ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنِّي \* كَبُرْتُ وَأَلَّا يُحْسِنَ اللَّهُ أَمْثَالِي

وإنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب ، كما قال :

\* وَفِيهِنَّ مَلْهُىٌّ لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ \*

الجوهري : وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا » قالوا امرأة ، ويقال : ولدا . ﴿ لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا لا من عندهم . قال ابن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى . ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير . و« إِنْ » بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : « لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، والبيت من معلقته وتماه :

\* أَنْيَقُ لَعِينٍ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ \*

نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبني لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل ؛ ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمي ؛ أى نرمي بالحق على الباطل . ﴿ فَيَذْمُوهُ ﴾ أى يقهره ويهلكه . وأصل الذمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان فى قول مجاهد ؛ قال : وكل ما فى القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحجّة ، وبالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصى ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجّة والموعظة . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى هالك وتالف ؛ قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد فى جهنم ؛ وقد تقدم . ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أى مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ » أى بكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو اتخاذ سبجانه الولد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعنى الملائكة الذين ذكّرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يعيون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، [ يقال ] : حسر البعير يحسّر حسورا أعيا وكل ، وأسْتَحْسِرَ وتحسّر مثله ، وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

وأحسرتة أيضا فهو حسير . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد : لا يكلّون . وقيل : لا يفشلون ؛ ذكره ابن الأعرابي ؛ والمعنى واحد . ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما . ﴿ لَا يَقْتُرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا يسأمون ، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح ؟ أما يشغلهم عنه شيء ؟ فقال : من هذا ؟ فقلت : من بنى عبد المطاب ؛ فضمنى إليه وقال : يا بن أنحى هل يشغلك شيء عن النفس ؟ ! إن التسبيح لهم بمنزلة النفس . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ آتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أى هل آتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى ؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أنفلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما آتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاتبه ، وعلى هذين التأويلين تكون « أم » متصلة . وقرأ الجمهور « يُنْشِرُونَ » بضم الياء وكسر الشين من أنشأ الله الميت فنشّر أى أحياه فحي . وقرأ الحسن بفتح الياء ، أى يحيون فلا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٣﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أى لو كان فى السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائى وسيبويه : « إلا » بمعنى غير فلما جعلت إلا فى موضع غير أعرب الأسم الذى بعدها بإعراب غير، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقة أخوه \* لعمرك أبىك إلا الفرقدان

وحكى سيبويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى ، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزه نفسه وأمر العباد أن يزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ؛ لأنهم عبيد . بين بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤخذ على أفعاله وهم يؤخذون . وروى عن على رضى عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيجب ربنا أن يعصى ؟ قال : أيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعى الهدى ومنحنى الردى أحسن إلى أم أساء ؟ قال : إن منعك حقلك ففسد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه ، وأنزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تُعصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ آلِهَةٍ ﴾ أعاد التعجب فى اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة فى التوبيخ ؛ أى صفتهم كما تقدم فى الإنشاء والإحياء ، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم ، فليأتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول ؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشَرُونَ » ويحيون الموتى ؛ هيئات ! والثانى احتجاج بالمنقول ، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، ففي أى كتاب نزل هذا ؟! فى القرآن، أم فى الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟! ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب؛ فأنظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواء ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت فى الأوامر والنواهي . وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى » بما يلزمهم من الحلال والحرام « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى » بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما يفعل بهم فى الدنيا ، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطليحة بن مُصَرِّف قرأا « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى ؛ هذا ذكر مما أنزل إلى وما هو معى وذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي . وقيل : ذِكْرٌ كائن من قبل ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبل . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرأ ابن مُحِيصن والحسن « الْحَقُّ » بالرفع بمعنى هو الحق وهذا هو الحق . وعلى هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب . ﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ . وقرأ حفص وحمة والكسائى « نُوحِي إِلَيْهِ » بالنون ؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فادلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود ، والدليل إما معقول وإما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

قوله تعالى : وَقَالُوا آتَّخِذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا آتَّخِذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ نزلت في خراة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود — قال معمر في روايته — أو طوائف من الناس : خاتن إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : «سبحانه» تنزيها له . ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أى بل هم عباد ﴿مُكْرَمُونَ﴾ أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل آتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد ، أى بل لم نتخذهم ولدا ، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس ، كما يقال لفلان مال . ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أى لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى بطاعته وأوامره . ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، قاله ابن عباس . وعنه أيضا : «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمَا خَلْفَهُمْ» الدنيا ، ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري . ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضا ، فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتي . ﴿وَهُمْ﴾ أى الملائكة ﴿مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أى خائفون لا يأمنون مكره .



قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما : غنى بهذه الآية إبليس حيث أدعى الشراكة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إني إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ . وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم في « البقرة » . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة فى غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرِ » بغير واو ، وكذلك هو فى مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرِ » بمعنى يعلم . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال الأخفش : « كَانَتَا » لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كَانَتَا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ، ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : « رَتْقًا »

ولم يقل رتقين؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانتا ذواتي رتق . وقرأ الحسن « رَتَقًا » بفتح التاء . قال عيسى بن عمر : هو صواب وهي لغة . والرتق السد ضد الفتق ، وقد رتقت الفتق أرتقه فارنتق أى التأم ، ومنه الرتقاء للعضمة الفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بهما ، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول ثان قاله مجاهد والسدى وأبو صالح : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتبة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاه القتيبي في عيون الأخبار له ، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عز وجل : « أَوَلَمْ يَرَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » قال : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع أرضين ، خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبث فيها الأثمار ، وجعل فيها البحار وسمها رعاء ، عرضها مسيرة خمسمائة عام ، ثم خلق الثانية مثلها في العرض والغلط وجعل فيها أقواما ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدي الناس ، وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقنهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض الدكاء ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام ، ومنها هواء إلى الأرض . الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ، ولها أذنان مثل أذنان الخيل الطوال ، يأكل بعضها بعضها فتسلط على بنى آدم . ثم خلق الله الخامسة <sup>(١)</sup> [ مثلها ] في الغلط والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سود بهم ، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهي من كبريت تعلق في أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل : « وَقَوَّضْنَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ » ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم

(١) زيادة يقتضها السياق .

الواحد سجين والآخر الغلق، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهى كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون، وأما الغلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى في «البقرة» أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتى له فى آخر «الطلاق»<sup>(٢)</sup> زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى : إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . واختار هذا القول الطبرى؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك فى غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهْوَنُ عَلَيْهِمْ إِذَا يَغْضَبُو \* نَ سَخَطُ الْعِدَاةِ وَإِرْغَامُهَا  
وَرَتَّقَ الْفُتُوقَ وَفَتَّقَ الرُّتُو \* ق وَنَقَضَ الْأُمُورَ وَإِبْرَامُهَا

وفى قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ثلاث تأويلات : أحدها — أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة . الثانى — حفظ حياة كل شيء بالماء . الثالث — وجعلنا من ماء الصلب كل شيء؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستي فى المسند الصحيح له من حديث أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى، وقزت عينى؛ أنبئنى عن كل شيء؛ قال : « كل شيء خلق من الماء » الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبى هريرة : « أنبئنى عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء » وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢ .

وقوله : « تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ » والصحيح العموم ؛ لقوله عليه السلام : « كل شيء خلق من الماء » والله أعلم . « أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكون كونه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكون محدثا .

قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جبالا ثوابت . « أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » أى لئلا تميد بهم ، ولا تتحرك ليمتد القرار عليها ؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه ؛ أى دار . وقد مضى فى « النحل » مستوفى . « وَجَعَلْنَا فِيهَا بَفَاجًا » يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والفجاج المسالك . والفج الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض بفاجا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبري ؛ لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليهتدوا بالأعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَيُمَسِّكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا بالنجوم من الشياطين ؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض ، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرفوعا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . « وَهُمْ » يعنى الكفار « عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ » قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها وسحابها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذَكَرَهُمْ نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب ، كما تقدم فى « سبحان »<sup>(١)</sup> بيانه . ﴿ كُلُّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يحرون ويسيرون بسرعة كالسباح فى الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا » ويقال للفرس الذى يمد يده فى الجرى ساجح . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحن ولا تسبح ، فذهب سيويه : أنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف » . وقال الكسائى : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَبَعُونَ » ولم يقل متصرفون . وقيل : الجرى للفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك ، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة ، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى ، ثم عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشتري ، ثم زحل ، والثامن فلك البروج ، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْلٍ مثل أسد وأسد وخشب وخشب . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلَكة المِغزل ؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَكَ ثدى المرأة تفليكا ، وفَلَكَ استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور فى فلك . كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجارى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرمح وهو قطبها . وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة سيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه ؛ والله أعلم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِإِبَشِيرٍ مِّن قَبْلِكَ أَن خُلِدَ أَفْئِينَ مِتَّ فَهُمْ  
 الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً  
 وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِبَشِيرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين  
 قالوا : نترصد بمحمد ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون :  
 شاعر نترصد به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات  
 الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك . ﴿ أَفَإِن  
 مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ أى أفهم ؛ مثل قول الشاعر :  
 (١)

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرْعَ \* فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجُوهَ هُمُ هُمُ

أى أهم ! فهو آستفهام إنكار . وقال الفراء : جاء بالفاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم  
 سميوت . ويجوز أن يكون جىء بها ؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن مت ! قال الفراء :  
 ويجوز حذف الفاء وإضمارها ؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون  
 أيضا ، فلا شمانة فى الإمامة . وقرئ « مِتَّ » و « مِتَّ » بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقدم فى « آل عمران » ﴿ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ  
 وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام ،  
 فننظر كيف شكركم وصبركم . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَّخَذُوا لَكُمُ الْوَعْدَ إِلاَّ هُزُؤًا  
 أَهْلًا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾

(١) هو أبو خراش الهذلي . ورفاه سكتة من الرعب ؛ يقول : سكتنى . اعتبر بمشاهدة الوجوه ، وجعلها دليلا

على ما فى النفوس . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أوثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَيَقْتُلُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللَّهِ لَيَقْتُلُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ .  
والهزة السخرية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزون المتقدمو الذكر في آخر سورة « الحجر »<sup>(١)</sup>  
في قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيبون من بحمد إلهية أصنامهم وهم جاحدون  
لإلهية الرحمن ؛ وهذا غاية الجهل . ﴿ أَهَذَا الَّذِي ﴾ أى يقولون : أهذا الذى ؟ فأضمر القول  
وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » كلام معترض بين « إذا » وجوابه .  
﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى بالسوء والعيب . ومنه قول عنترة :

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ \* فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرِبِ<sup>(٢)</sup>

أى لا تعيبي مهري . ﴿ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ ﴾ أى بالقرآن . ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ « هم » الثانية  
توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة في وصفهم بالكفر .

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَآوَرِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا  
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾  
لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ  
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ ﴾ أى ركب على العجلة نخلق عجولا ؛ كما قال  
الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان  
من الشر أى شريرا إذا بالغت في وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب وجيء . أى ذاهب  
جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل :  
المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبسير والسدى : لما دخل الروح في عيني

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قاله لامرأة له . من بجيلة كانت تلومه في فرس كان يؤثره على خيله ويطعمه ألبان إبله .

آدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه أشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » . وقيل : خالق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه أستعجل ، وطلب تميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس ؛ قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما . وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العَجَلُ الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

\* والنخلُ يَنْبُتُ بينَ المساءِ والعَجَلِ <sup>(١)</sup> \*

وقيل : المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد : النضر بن الحرث بن علقمة بن كعدة بن عبد الدار في تفسير ابن عباس ؛ أى لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقيق أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب ؛ أى خلق العجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس : وهذا القول لا ينبغي أن يجاب به في كتاب الله ؛ لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطرابا كما قال :  
\* كان الزناءُ فريضةَ الرَّجَمِ \* <sup>(٢)</sup>

ونظيره هذه الآية : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » وقد مضى في « سبحان » . « سَارِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » هذا يقوى القول الأول ، وأن طبع الإنسان العجلة ، وأنه خلق خلقا لا يتألك ، كما قال عليه السلام ، حسب ما تقدم في « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات ، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ما طلبوه من العذاب ، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروباً . نزلت في النضر بن الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » أى قيل له كن فكان ، فعنى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون ، لا يعجزه إظهار ما أستعجلوه من الآيات . « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الموعود ، كما يقال : الله رجاؤنا أى مرجؤنا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد ، أى الذى يعدنا من العذاب . وقيل : القيامة . « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » يا معشر المؤمنين .

(١) صدر البيت : \* والنبع في الصخرة الصماء منبته \*

(٢) البيت للبعدى وصدده : \* كانت فريضة ما تقول كما \*

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أوثانية .



قوله تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل «لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» . وجواب «لو» محذوف ، أى لو علموا الوقت الذى ﴿لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ وعرفوه لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلوا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولا آمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلوا أن الساعة آتية ، ودل عليه ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أى فجأة يعنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿فَتَبْتِهِمْ﴾ . قال الجوهري : بتهته بتهتأ أخذه بغتة ، قال الله تعالى : ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْتِهِمْ﴾ . وقال الفراء : «فتبتهم» أى تحيرهم ، يقال : بتهته بتهته إذا واجهه بشيء يحيره . وقيل : فتفجأهم . ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى صرفها عن ظهورهم . ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أى لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له . يقول : إن آستهزأ بك هؤلاء ، فقد آستهزئ برسلك من قبلك ، فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : ﴿فَخَاقَ﴾ أى أحاط ودار ﴿بِالَّذِينَ﴾ كفروا و ﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزءوا بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى جزاء آستهزأهم .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَابِيُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ ؛ كلاءة الله كلاء ( بالكسر ) أى حفظه وحرسه . يقال : آذنب فى كلاءة الله ؛ واكتلات منهم أى احتسرت ، قال الشاعر هو ابن هرمة :

إِنَّ سَلِيمِي وَاللَّهِ يَكْلَهُمَا \* ضَنْتُ بِشَيْءٍ مَا كَانَ يَرْزُوها

وقال آخر :<sup>(١)</sup> \* أَنْحْتُ بِعَيْرِي وَأَكْتَلْتُ بِعَيْنِهِ \*

وحكى الكسائى والفراء « قُلْ مَنْ يَكْفُرْ » بفتح اللام وإسكان الواو . وحكى « مَنْ يَكْلَاكُمْ » على تخفيف الهمزة فى الوجهين ، والمعروف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فأما « يَكْلَاكُمْ » فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما — أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى — أنهما يقولان فى الماضى كَلَيْتُهُ ، فينقلب المعنى ؛ لأن كَلَيْتُهُ أوجعت كَلَيْتُهُ ، ومن قال لرجل : كَلَاكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كَلَيْتِهِ .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل لا حافظ لكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا نتم ﴿ و ﴾ بـ ﴿ النَّهَارِ ﴾ إذا فتم وتصرفتم فى أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى من عذابه وبأسه ؛ كقوله تعالى : « قَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن أعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررتم بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذى تستعجلونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل : عن مواعظ ربهم . وقيل : عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِمَّنْ يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمْنَعُونَ . وعنه : يُجَارُونَ ؛ وهو اختيار الطبرى . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أى مجير منه ؛ قال الشاعر :

يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُتَعَوِّذًا \* لِيُصْحَبَ مِنْهَا وَالرِّمَاحُ دَوَانِي

(١) هو كعب بن زهير ؛ وبجزه . \* وأمرت نفسى أى أمرى أفعل \*

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « يُنصرون » أى يحفظون . قتادة :  
أى لا يصحبهم الله بخير ، ولا يجعل رحمته صاحبها لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا  
لهم ولا بآئهم فى نعيمها و ﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فى النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم ، فاغتروا  
وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل . ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾  
أى بالظهور عليها لك يا محمد أرضا بعد أرض ، وفتحها بلدا بعد بلد مما حول مكة ؛  
قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبي ؛ حكاة الكابي <sup>(١)</sup> . والمعنى واحد . وقد مضى  
فى « الرعد » الكلام فى هذا مستوفى . ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا  
من أطرافهم ، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الدُّعَاءُ  
إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَكُولُنَّ يَتَوَلَّوْنَ  
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . ﴿ وَلَا يَسْمَعُ  
الدُّعَاءُ ﴾ أى من أصم الله قلبه ، وختم على سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، عن فهم  
الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميع « وَلَا يَسْمَعُ » بياء  
مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله « الدُّعَاءُ » رفعاً أى إن الله لا يسمعهم . وقرأ ابن عامر  
والسلمي أيضا ، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث « وَلَا يُسْمَعُ » بقاء مضمومة وكسر الميم « الدُّعَاءُ »  
نصباً ؛ أى إنك يا محمد « لَا تُسْمَعُ الدُّعَاءُ » ؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . ورد  
هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ماتنذرهم . قال النحاس :  
وذلك جائز ؛ لأنه قد عرف المعنى .

(١) فى نسخة : « حكاة التلبي » . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء ، مأخوذة من نفح المسك . <sup>(١)</sup> قال : وعمره من سروات النساء \* تنفح بالمسك أردائها  
ابن جريج : نصيب ، كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال .  
قال الشاعر <sup>(٢)</sup> :

لَمَّا أَتَيْتُكَ أَرْجُو فَضْلَ نَائِلِكُمْ \* نَفَحْتَنِي نَفْحَةً طَابَتْ لَهَا الْعَرْبُ

أى طابت لها النفس . والنفحة في اللغة الدفعة اليسيرة ، فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى متعددين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف .

قوله تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ الموازين جمع ميزان . ف قيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ، كما قال :

مَلِكٌ تَقُومُ الْحَادِثَاتُ لَعَدْلِهِ \* فَلِكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . وخرج الألكاني الحافظ أبو القاسم في سننه عن أنس يرفعه : ” إن ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بآدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجع نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خَفَّ نادى الملك شَقِيَ فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا “ . وخرج عن حذيفة رضى الله عنه قال : ” صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام “ وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ، فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مثل وليس ثم

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصاري . (٢) هو للرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذي وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى فى «الأعراف»<sup>(١)</sup> بيان هذا ، وفى «الكهف» أيضا . وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و «القسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون فى وزن الدنيا . و «القسط» صفة الموازين ووحيد لأنه مصدر ؛ يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورضا . وقرأت فرقة «القسط» بالصاد . «لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى فى يوم القيامة . «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد فى إساءة مسيء . «وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ» قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفع هنا ؛ وفى «لقمان» على معنى إن وقع أو حضر ؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون «مِثْقَالٌ» بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مِثْقَالٌ . ومِثْقَالُ الشيء ميزانه من مثله . «أَتَيْنَاهَا» مقصورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثل بالجاز . وقيل : مِثْقَالُ الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال «أَتَيْنَاهَا» . وقرأ مجاهد وعكرمة «أَتَيْنَاهَا» بالمسند على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . «وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ» أى محاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : «حَاسِبِينَ» إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العد . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأشتتهم وأضر بهم فكيف أنا منهم ؟ قال : «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُواكَ وَعَقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدَرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ آقْتَصَ لَهِمْ مِنْكَ الْفَضْلُ» قال : فتتجى الرجل بفعل يبكى ويهتف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما تقرأ كتاب الله تعالى «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» ؟ فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

(١) راجع ج ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا  
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾  
وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ وحكى عن ابن عباس  
وعكرمة « الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً » بغير واو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والمجىء بها واحدا ،  
كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظا .  
ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو تجيء لمعنى فلا تزداد . قال : وتفسير « الفرقان »  
التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ »  
وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : « وَمَا أَنزَلْنَا  
عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال الثعلبي : وهذا القول أشبهه بظاهر الآية ؛ لدخول  
الواو فى الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء  
والذكر . ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل  
عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ،  
وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس . ﴿ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ ﴾ أى من قيامها قبل التوبة .  
﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون وجلون . ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ ﴾  
يامعشر العرب ﴿ مُنْكَرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرُونَ على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء « وَهَذَا  
ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ  
عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا  
عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ  
الْطَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ  
وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ قال الفراء : أى أعطيناه هداة . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾  
أى من قبل النبوة ؛ أى وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس  
والقمر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى  
الأول أكثر أهل التفسير ؛ كما قال ليحيى : « وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال القرطبي : رشده  
صلاحه . ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أى إنه أهل لإتياء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أى أذكر حين قال لأبيه ؛ فيكون الكلام  
قد تم عند قوله : « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام  
متصلا ولا يوقف على قوله : « عَالِمِينَ » . « لِأَبِيهِ » وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ومن أتبعه .  
﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الأصنام . والتماثل اسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق  
الله تعالى . يقال : مثلت الشيء بالشيء أى شبهته به . واسم ذلك المثل تماثل . ﴿ الَّتِىَ أَنْتُمْ لَهَا  
عَاكِفُونَ ﴾ أى مقيمون على عبادتها . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أى نعبدتها تقليدا  
لأسلافنا . ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى فى خسران بعبادتها ؛ إذ هى جمادات  
لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أجاء أنت بحق فيما تقول ؟ ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنْ  
الطَّاغُوتِ ﴾ أى لاعب مازح . ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لست بلاعب ؛  
بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . ﴿ الَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أى خلقهن وأبدعهن .  
﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد بين الحكم ،  
ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بين الله ؛ فالمعنى : وأنا أبين بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَوَلَّىٰ اللَّهَ لَا كِيدَ إِلَّا أَصْنَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾  
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكنف بالحاجة باللسان بل كسر أصنامهم فعل واثق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين . والتاء في « تَاللَّهِ » تختص في القسم بأسم الله وحده ، والواو تختص بكل مظهر ، والباء بكل مضمحل ومظهر . قال الشاعر :

تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ ذُو حَيْدٍ \* بِمُشْمَخِرِّهِ الظِّيَّانُ وَالْآسُ

وقال ابن عباس : أى وحرمة الله لأكيدن أصنامكم ، أى لأمكنن بها . والكيد المكر . كاده يكيد كيدا ومكيدة ، وكذلك المكيدة ؛ وربما سمي الحرب كيدا ؛ يقال : غزا فلان فلم يلق كيدا ، وكل شيء تعالجه فانت تكيده . ﴿ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ أى منطلقين ذاهبين . وكان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه في « والصفات » — فقال إبراهيم في نفسه : « تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم في سر من قومه ، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفشاه عليه . والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره . ومثله « يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه . وكان إبراهيم آحتال في التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أى ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ بَجَعَلْنَاهُمْ جُدَادًا ﴾ أى فتانا . والجذ الكسر والقطع ؛ جذدت الشيء كسرته وقطعته . والجذاذ والجذاذ ما كسر منه ، والضم أفصح من كسره . قاله الجوهري . الكسائي : ويقال لحجارة الذهب جذاذ ؛ لأنها تكسر . وقرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن « جَذَادًا » بكسر الجيم ؛ أى كسرا وقطعا جمع جذيد وهو الطشم ، مثل خفيف وخفاف وظريف وظراف . قال الشاعر :

جَذَذَ الْأَصْنَامَ فِي مُحْرَابِهَا \* ذَاكَ فِي اللَّهِ الْعَلَى الْمُقْتَدِرِ

(١) هو مالك بن خالد الخناعي الهذلي . وحيد هنا ( كعب ) : كل نتوء في الجبل . والمنشعر : الجبل العالي . والظيان : ياستين البر . والمعنى : لا يبق . (٢) في تفسير قوله تعالى : « فراغ إلي آلهم .. الخ » الآيات : ٩١ و ٩٢ و ٩٣



(١) الباقون بالضم ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل] الحطام والرفات الواحدة جذادة . وهذا هو الكيد الذى أقسم به ليفعله بها . وقال : « بفعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا فى أصنامهم الإلهية . وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال « جذاداً » بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتان كالخصاد والحصاد . أبو حاتم : الفتح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاه قطرب . « إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ » أى عظيم الآلهة فى الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه ؛ ليحتج به عليهم . « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم ودينه « يَرْجِعُونَ » إذا قامت الحجّة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسيها .

قوله تعالى : قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : « قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » المعنى لما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بالهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس آستفهاماً ، بل هو ابتداء وخبره « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ » وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هَذَا » . والضمير فى « قَالُوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم . ومعنى « يَذْكُرُهُمْ » يعيهم ويسبهم فاعله الذى صنع هذا . واختلف الناس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدأ] محذوف ، والجملة محكية . قال : ويجوز أن يكون رفعا على النداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول (١) فى الأصل : « أى » وهو تحريف . (٢) فى الأصل : « فيكون مبتدأ وخبره محذوف » وهو تحريف .

زيد وزن فَعَلَ ، أو زيد ثلاثة أحرف ، فلم تدل بوجه على الشخص ، بل دلت بنطقك على نفس اللفظة . وعلى هذه الطريقة تقول : قات إبراهيم ، ويكون مفعولا صحيحا نزله منزلة قول وكلام ؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول . هذا اختيار ابن عطية في رفعه . وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلي الأعم : هو رفع على الإهمال . قال ابن عطية : لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه ، ذهب إلى رفعه بغير شيء ، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء . والفتى الشاب والفتاة الشابة . وقال ابن عباس : ما أرسل الله نبيا إلا شابا . ثم قرأ « سَمِعْنَا قَتَى يَدُ كُرْهُم » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهى :

أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه ، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا : أتتوا به ظاهرا برأى من الناس حتى يروه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما قال ؛ ليكون ذلك حجة عليه . وقيل : « لعلهم يشهدون » عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه . أو لعل قوما « يشهدون » بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو « لعلهم يشهدون » طعنه على آلهتهم ؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

قلت : وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم ؛ لقوله تعالى : « فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه .

قوله تعالى : قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَعَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لما لم يكن السماع عاما ولا ثبت الشهادة ، استفهموه هل فعل أم لا ؟ وفى الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا : أنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ أى إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين ؛ تنبيها لهم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء . وفى الكلام تقديم على هذا التأويل فى قوله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ . وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان قوله من المعارض ، وفى المعارض مندوحة عن الكذب . أى سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفى ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » — الآية — فقال إبراهيم : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضررون ؛ فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحججة منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ؛ فإنه أقرب فى الحججة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّى » وهذه أختى و « إِنِّى سَقِيمٌ » و « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » وقرأ ابن السميع « بَلْ فَعَلَهُ » بتشديد اللام بمعنى فعل الفاعل كبيرهم . وقال الكسائى : الوقف عند قوله « بَلْ فَعَلَهُ » أى فعله من فعله ؛ ثم يتبدئ « كَبِيرُهُمْ هَذَا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر . أى من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلا ؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانية — روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يكذب إبراهيم النبى فى شىء قط إلا فى ثلاث قوله « إِنِّى سَقِيمٌ » وقوله لسارة أختى وقوله « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ » " لفظ الترمذى . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع فى الإسراء فى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى قصة إبراهيم قال : وذكر قوله فى الكوكب « هذا ربى » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : "لم يكذب إبراهيم النبى قط إلا فى ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله قوله

« إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة في شأن سارة « الحديث لفظ مسلم . وإنما لم يعد عليه قوله في الكوكب : « هذا ربي » كذبة وهي داخلية في الكذب ؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك في حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار ، وحذفت همزة الاستفهام ، أو على طريق الاحتجاج على قومه ؛ تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية ، وقد تقدمت هذه الوجوه كلها في « الأنعام » مبينة والحمد لله .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظيمة تقصم الظهر ، وهي أنه عليه السلام قلل : « لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين مآحل بهما عن دين الله وهما قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » « ولم يعد [ قوله <sup>(٢)</sup> ] هذه أختي في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يجعل في جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعارض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماءنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعارض ، وإن كانت معارض وحسنات وحججا في الخلق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن عهد المنزلة ، واستحيا منها قائلها ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذي كان يليق بمرتبته في النبوة والخلة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان ، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة « إنما أخذت خليلا من وراء وراء » بنصب وراء فيهما على البناء تكسمة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥ ما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربي .

جارى بَيَّتَ بَيَّتَ . ووقع فى بعض نسخ مسلم "من وراء من وراء" بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا فى تصغيرها وريية ؛ قال الجوهري : وهى شاذة . فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « مِنْ » فيهما . والمعنى إني كنت خليلا متأخرا عن غيرى . ويستفاد من هذا أن الخلة لم تصح بكاملها إلا لمن صح له فى ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم . وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾** ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ)** أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجة ، المتفطن لصحة حجة خصمه . **(فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)** أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس .

قوله تعالى : **(ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ)** أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : **(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)** فـ **(قَالَ)** قاطعا لما به يهدون ، ومفجعا لهم فيما يتقولون **(أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفِ لَكُمْ)** أى التثنية لكم **(وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)** . وقيل : **(نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ)** أى طأطأوا رؤوسهم نجلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم ، بفتح الكاف بل قال **(نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ)** أى ردوا على ما كانوا عليه فى أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾**  
**قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾**

قوله تعالى : **﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾** لما أنقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بائثم وأنصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة وقالوا حرقوه . روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعرب فارس ، أى من باديتها ، قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : اسمه هيزر فحسب الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمرود . **﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾** بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها . وجاء في الخبر : أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن إسحاق : وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، وأشتعلت وأشدت ، حتى أن كان الطائر لير يبجناتها فيحترق من شدة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين خنخة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى : « إن آستعاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا اللقاء في النار ، أتاه خزان الماء — وهو في الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أئخذنا النار بالماء . فقال : لا حاجة لي إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل » . وروى أبي بن كعب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم **« إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك »** قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع ، فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أما إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزن » كما في تاريخ الطبري وتفسيره . وقيل : « هيزن » .

الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرًا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زريبة<sup>(١)</sup> من الجنة فبسطها في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة . وقال عليّ وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طففت ظنت أنها تعنى . قال السدى : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته . وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلى . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت أياما قط أنعم منى في الأيام التي كنت فيها في النار » . وقال كعب وقتادة والزهرى : ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الحماني : ألقى إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقى إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة . ذكر الأقرم الثعلبي ، والثاني المأوردى ؛ فالله أعلم . وقال الكلبي : بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا ، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل . فقال : نعم الرب ربك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكف عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٨﴾

(١) الزريبة : الطنفسة ، وقيل : البساط ذراخل ، وزايبا مثله .

قوله تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أى أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ فى أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا . قال ابن عباس : ساط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فسا برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمزبة من حديد . فأقام بهذا نحو من أربعائة سنة .

قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان [إبراهيم] عليه السلام عمه ، قاله ابن عباس . وقيل : لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة . وقيل : بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضا كثيرة الخصب والنمو ، عذبة الماء ، ومنها يتفرق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس ، ثم يتفرق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أى زيادة ، لأنه دعا فى إسحق وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ، أى زيادة على ما سأل ، إذ قال : «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» . ويقال لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجعلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلق لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات . ومعنى «بِأَمْرِنَا» أى بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهى ، فكانه قال يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد . ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا طَائِعِينَ﴾ أى مطيعين .

(١) سبق أن نهينا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة . (٢) فى الأصل : «لوط» وهو تحريف .



قوله تعالى : وَلَوْ طَأَّتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ طَأَّتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «لوطا» منصوب بفعل مضمر دل عليه الثانى ؛ أى وآتيناه لوطا آتيناه . وقيل : أى وأذكر لوطا . والحكم النبوة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «علماً» فهما ؛ والمعنى واحد . ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ يريد سدوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زغر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ؛ وهى قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز . وفى الخباثات التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما — اللواط على ما تقدم . والثانى — الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى نادهم ومجالسهم . وقيل : الضراط وحذف الصى وسياى . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ فى النبوة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ أى وأذكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : «رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» وقال لما كذبوه : «أَنْتُمْ مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ» . ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى من الغرق . والكرب الغم الشديد «وَأَهْلَهُ» أى المؤمنين منهم . ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال أبو عبيدة : «مِنْ» بمعنى على . وقيل : المعنى فانتقمنا له «مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا» . ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَخْرَجُنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾  
فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أى وآذ كرها إذ يحكما ، ولم يرد بقوله « إِذْ يَحْكُمَانِ » الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حَكَمَ على حكم واحد لا يجوز . وإنما حَكَمَ كل واحد منهما على أنفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿ فِي الْحَرْثِ ﴾ اختلف فيه على قولين : ف قيل : كان زرعاً ؛ قاله قتادة . وقيل : كرماً نبئت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح . و « الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الاستعارة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى رعت فيه ليلاً ؛ والنفس الرعى بالليل . يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار ، إذا رعت بلا راع . وأنفشها صاحبها . وإِبْلُ نَفَاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كَرِش البعير بيت نَافِشاً ؛ أى راعياً ؛ حكاه الهروى . وقال ابن سيده : لا يقال الهَمَل فى الغنم ، وإنما هو فى الإبل .  
الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع اثنتان . وقيل : المراد الحاكم والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لِحُكْمِهِمْ » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى فهمناه القضية والحكومة ، فكفى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم . قال ابن عطية : فيشبهه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت . وعلى القول

الثانى رآها تقاوم الحرث والغلة؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الحصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: هم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال لعل الحكم غير هذا أنصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع باللبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا نبي لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكاظمي: قوم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوتى الحكم والعلم. وحملوا قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلمًا يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأما في هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يقترن عليه، وإن أقتر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فأجابه الوليد: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُجَّانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتِ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُلًّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان — عليهما السلام — نبيين يقضيان بما يوحي إليهما، فحكم داود بوحى،

وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » أى بطريق الوحي الناسخ لما أوحى إلى داود، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود، ولهذا قال: « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ». هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك. وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد وهى:

السادسة — وأختلف العلماء فى جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم، وجوزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية؛ لأنه دليل شرعى فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكى فبلغه الأمة؛ فهذا غير مستحيل فى العقل. فإن قيل: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص وهم لا يعدونه. قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا فى البحث كغيرهم من المجتهدين عن معانى النصوص التى عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير فى اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك. كما ذهب الجمهور فى أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط فى اجتهادهم. وذهب أبو على ابن أبى هريرة من أصحاب الشافعى إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم فى جواز الخطأ عليهم، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه. وقد قيل: إنه على العموم فى جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى تجوز الخطأ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إقضائه، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله امرأة عن العدة فقال لها: « أعتدى حيث شئت » ثم قال لها: « أمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ». وقال له رجل: أرايت إن قُتلت صبرا محتسبا أيجزنى عن الجنة شيء؟ فقال: « لا » ثم دعاه فقال: « إلا الدين كذا أخبرنى جبريل عليه السلام ».

السابعة — قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أنهى

على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده. وقد اختلف الناس فى المجتهدين فى الفروع إذا

اختلفوا ، فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله ، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة فى المسئلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الاجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب فى آجتهاده مخطئ فى أنه لم يصيب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه فى خطئه وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل<sup>(١)</sup> وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ، ولم يتعبد بإصابته العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، والمطلوب إنما هو الأفضل فى ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ، والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قزر بعضهم خلاف بعض ، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه رد مالك رحمه الله للنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ » ، فإذا قال عالم فى أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، وكذا فى العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطأ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : « إذا آجتهد العالم فأخطأ أى فأخطأ الأفضل .

الثامنة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم « إذا حكم فاجتهد » فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد ، والأمر بالعكس ، فإن الاجتهاد مقدم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ » فعند

(١) زيادة يقتضها السياق .

ذلك أراد أن يجتهد في النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يحدد نظرا عند وقوع النازلة ، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أولا ، اللهم إلا أن يكون ذا كرا لأركان اجتهاده ، مائلا إليه ، فلا يحتاج إلى استئناف نظر في أمانة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس ، وقضاء من مضى ؛ لأن آجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، فأما من لم يكن محالا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم ، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر ، رواه أبو داود : ” القضاة ثلاثة ” الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على آجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين ، وليس ذلك في أقاويل المختلفين ، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة ، فقال : مخطئ ومصيب ، وليس الحق في جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ، قالوا : وهو نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئا ومصيبا ، قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدى إلى كون الشيء حلالا حراما ، وواجبا ندبا . واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب ” ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة “ فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قريظة ، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الفريقين ، قالوا : فلو كان أحد الفريقين مخطئا لعينه النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور ،

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة — ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بمدقضاءه من اجتهاده الى اجتهاد آخر أرجح من الأول ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماءنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال عبد الملك ومطرف فى « الواضحة » : ذلك له ما دام فى ولايته ؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمنزلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى « المدونة » . وقال سحنون فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك ؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال سحنون : إلا أن يكون نسي الأقوى عنده فى ذلك الوقت ، أو وهم بخكم بغيره فله نقضه ؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول ؛ قاله سحنون فى كتاب آنبه . وقال أشهب فى كتاب ابن المراز : إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول ، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما ؛ رواها الدارقطنى ، وقد ذكرناها فى « الأعراف » ولم يفصل ؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فأما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظيمة من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة — قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينا أمرأتان معهما  
أبناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بآبنك أنت .  
وقالت الأخرى : إنما ذهب بآبنك ، فتحاكتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على  
سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتا به ، فقال : آئتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى :  
لا — يرحمك الله — هو أبنا ، فقضى به للصغرى ، قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين  
قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المذبة ، أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو  
ضعيف ، لأنه كان النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيعبد ؛  
لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمَنَّ فِي الْحَرْثِ » فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا  
قوله في الحديث : فقضى به للكبرى ، يدل على إنفاذ القضاء وإنجازه . ولقد أبعد من قال :  
إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى ، لأن الكبر والصغر طرد  
محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين  
حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذي  
ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها .  
ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى  
عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا  
الحديث . وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها . لا يقال :  
فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ، فالجواب : أن سليمان عليه  
السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، وإنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق  
الصغرى ، وهي أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ، فظهر له من  
قرينة الشفقة في الصغرى ، وعدم ذلك في الكبرى ، مع ما عساه أنضاف إلى ذلك من القرائن  
ما حصل له العلم بصدقها لحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم  
النسائي على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول



للشئ الذى لا يفعلُه أَفْعُلُ ليستبين الحق» . وترجم له أيضا «نقض الحاكم لا يحكم به غيره ممن هو مثله أو أجل منه» . ولعل الكبرى اعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك ، فقضى بالولد للصغرى ؛ ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين ، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره ، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول ، لكن من باب تبدل الأحكام بحسب تبدل الأسباب . والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد ، وقد ذكرناه . وفيه من الفقه استعمال الحكم الحيل التى تستخرج بها الحقوق ، وذلك يكون عن قوة الذكاء والفطنة ، وممارسة أحوال الخلق ؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية ، وتوسمات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستأحق ؛ وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة — قد تقدم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار ، ثم الضمان فى المثل بالمثلات ، وبالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسئلة فى شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن محيصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن<sup>(١)</sup> على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلًا . وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد بن محيصة : أن ناقة ؛ فذكر مثله بمعناه . ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ؛ مثل حديث مالك سواء ، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع ابن أبي ذئب

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا؛ إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت في حائط قوم فأفسدت ؛ بفعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن محيصة ، وعن سعيد بن المسيب ، وعن أبي أمامة — والله أعلم — فحدث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة ، وحدث به الثقات ، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى في المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعًا في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : ” جرح العجاء جبار ” فمقاس جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن أتبعه في حديث العجاء ، وكونه ناسخًا لحديث البراء ومعارضًا له ؛ فإن الذبح شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفي الآخر ، وحديث ” العجاء جرحها جبار ” عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد : العجاء جرحها جبار نهارًا لا ليلاً وفي الزرع والحوائط والحرق ، لم يكن هذا مستحيلًا من القول ؛ فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض ؟ ! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار ، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عن أراده، بفعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزرع، لأنه وقت التصرف فى المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى : « وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شىء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى : « مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ » وقال : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » ويرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فترط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً فعليه ضمان ذلك، بخرى الحكم على الأوفى الأسمع، وكان ذلك أرفق بالفرقيين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للآلين، وقد وضع الصبح لذى عينين، ولكن لسليم الحاستين، وأما قول الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياساً على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده فى جنائته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه، كذا قال فى « التمهيد » وفى « الاستذكار » يخالف الحديث فى « العجاء جرحها جبار » وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء . قال ابن جريح قلت لعطاء : الحارث تصيبه الماشية ليلاً أو نهاراً؟ قال : يضمن صاحبها ويغرم . قلت : كان عليه حظراً أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم . قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته . وقال معمر عن ابن شبرمة : يُقَوَّم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلاً أو نهاراً، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة — قال مالك : ويقوم الزرع الذى أفسدت المواشى بالليل على الرجاء والخوف . قال : والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا أنفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئاً، وإنما هذا فى الحائط والزرع والحارث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سخنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة — ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل في سنّ الصغير .  
وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل بيعه . وقال أشهب وابن نافع في المجموعة عنه: وإن لم يبد صلاحه . ابن العربي : والأول أقوى لأنها صفته فتقوم كما يقوم كل متلف على صفته .  
الثامنة عشرة — لو لم يقض للفسد له بشيء حتى نبت وأنجر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شيء ضمن تلك المنفعة ، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ :  
يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والخبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة — وقع في كتاب ابن سخنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير مُحْطَرَّة، وبساتين كذلك، فيضمن أرباب النعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدّ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين — قال أصبغ في المدينة : ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذؤاد؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلًا أو نهارًا؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذي حرّثه فيها حفظه، ولا شيء على أرباب المواشي .

الحادية والعشرون — المواشي على قسمين : ضواري وحريسة وعليهما قسمها مالك . فالضواري هي المعتادة للزرع والثمار، فقال مالك : تُغَرَّب وتباع في بلد لا زرع فيه ؛ رواه ابن القاسم في الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربهما ، وكذلك قال مالك في الدابة التي ضريت في إفساد الزرع : تغرَّب وتباع . وأما ما استطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون — قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالمشاة ، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت<sup>(١)</sup>] ، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربى : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مكن منه ، وأما انتفاعه بما يتخذ به بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام : ” لا ضرر ولا ضرار ” وهذه الضوارى عن ابن القاسم فى المدينة لاضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربى : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضوارى .

الثالثة والعشرون — ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت فى غزل حائك فاخترصموا إلى شريح ، فقال الشعبي : أنظروه فإنه سيسألهم ليلًا وقعت فيه أو نهارًا ، ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » قال : والنفس بالليل والمحمل بالنهار .

قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : ” العجاء جرحها جبار ” الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الهدر ، والعجاء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : ” العجاء جرحها جبار ” أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء ، وهذا جمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف ، فإن كانت جنسية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه ، لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة . وفى الأموال الغرامة فى مال الخانى .

الرابعة والعشرون — واختلفوا فىمن أصابته برجلها أو ذنبها ، فلم يضمن مالك والليث والأوزاعى صاحبها ، وضمنه الشافعى وابن أبى لىلى وأبن شبرمة . واختلفوا فى الضارية فجهموهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسة والعشرون — روى سفيان بن حسين عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الرجل جبار ” قال الدار قطنى : لم يروه

(١) فى الأصل : «أضرت» . والتصويب من «الموطأ» .

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن عينة ويونس ومعمرو وابن جريح والزبيدي وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم روه عن الزهري فقالوا: "العجاء جبار والبئر جبار والمعدن جبار" ولم يذكروا الرجل وهو الصواب . وكذلك روى أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأعرج ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة ، ولم يذكروا فيه "والرجل جبار" وهو المحفوظ عن أبي هريرة .

السادسة والعشرون — قوله : "والبئر جبار" قد روى موضعه "والنار" قال الدارقطني : حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدثنا حنبل بن إسحاق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول في حديث عبد الرزاق : حديث أبي هريرة "والنار جبار" ليس بشيء لم يكن في الكتاب باطل ليس هو بصحيح . حدثنا محمد بن مخلد حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن هاني قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير، يعني مثل ذلك . وإنما لقن عبد الرزاق "النار جبار" . وقال الرمادي : قال عبد الرزاق قال معمرو لا أراه إلا وهما . قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمرو عن هشام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "النار جبار" وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحفه . قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل ، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغساني قال : أحرق رجل سافى قراح<sup>(١)</sup> له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيئا لجاره . قال : فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العجاء جبار" وأرى أن النار جبار . وقد روى "والسائمة جبار" بدل العجاء فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتبه الفقهاء . قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَيْءٍ لَا يُخْفَى عَلَيْنَا وَهُمْ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسجعا والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير . وقيل : كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت

(١) قراح : مزرعة .

حتى يشاقب؛ ولهذا قال : « وَنَخْرَأَ » أى جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل : إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ دليله قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحُنَ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل . وذلك فعل الله تعالى بها ؛ ذلك لأن الجبال لا تعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَّكُم لِيُخْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَّكُمْ) يعنى آتخاذ الدروع بلإانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جَوْشِنا أو سيفا أو رمحا . قال الهذلى (١) يصف رمحا :

وَمِجَى لَبُؤْسٍ لِلْبَيْسِ كَأَنَّهُ \* رَوْقٌ بِجَهْدِ ذِي نَعَاجٍ مُّجِفِلٍ

واللبوس كل ما يلبس ، وأنشد ابن السكيت (٢) :

أَلْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُؤْسَهَا \* إِقَامَا نَعِيمَهَا وَإِقَامَا بُؤْسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الرّكوب والحلوب . قال قتادة : أوّل من صنع الدروع داود . وإنما كانت صفائح ، فهو أوّل من سردها وحلقها .

الثانية — قوله تعالى : (لِيُخْصِنَكُمْ) (٣) ليحرزكم . (مِنْ بَأْسِكُمْ) أى من حربكم . وقيل : من السيف والسم والرمح ، أى من آلة بأسكم فحذف المضاف . ابن عباس : « مِّنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو كبير الهذلى ، وأسمه عامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهير هل عن شبية من معدل \* أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبيس : الشجاع . والروق : القرن . وذونعاج : يعنى ثورا ؛ والنعاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبس الفزارى . (٣) « ليحصنكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح «لِتُحْصِنَكُمْ» بالتاء ودا على الصفة . وقيل : على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرأ شيبه وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق «لِتُحْصِنَكُمْ» بالنون لقوله : «وَعَلَّاهُ» . وقرأ الباقر بالياء جعلوا الفعل لللبوس ، أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أى على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولى .

الثالثة — هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهالة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه فن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضا يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطاً ، وطالوت دباغاً . وقيل : سقاء ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس . وفى الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف وينفض السائل المالحف» . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الفرقان»<sup>(١)</sup> . وقد تقدم فى غير ما آية ، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ، أى شديدة الحبوب . يقال منه : عاصفت الريح أى أشدت فهي ريح عاصف وعصوف . وفى لغة بنى أسد : أعصفت الريح فهي مَعْصِف ومُعْصِفَة . والعَصْف الثَّبن فسمى به شدة الريح ؛

(١) راجع المسئلة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من السورة المذكورة .



لأنها تعصفه بشدة تطيرها . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمى وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ »  
 برفع الحاء على القطع مما قبله ، والمعنى ولسليمان تسخير الريح ، ابتداء وخبر . « تَجْرِي  
 بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » يعنى الشام . يروى أنها كانت تجرى به وبأصحابه إلى  
 حيث أراد ، ثم تردّه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه  
 عكفت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريريه . وكان أمراً غزواً لا يقعد  
 عن الغزو ، فإذا أراد أن يغزو أمر بحشبه فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ،  
 ثم أمر العاصف فأقلت ذلك ، ثم أمر الرخاء فمرت به شهراً فى رواجه وشهراً فى غدوّه ، وهو  
 معنى قوله تعالى : « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ  
 عَالِمِينَ » أى بكل شىء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : « وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ » أى وسخرنا له من يغوصون ، يريد  
 تحت الماء . أى يستخرجون له الجواهر من البحر . والغوص النزول تحت الماء ، وقد غاص  
 فى الماء ، والهاجم على الشىء غائص . والغواص الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ، وفعله الغياصة .  
 « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » أى سوى ذلك من الغوص ، قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك  
 المحارب والتمايل وغير ذلك مما يسخّرهم فيه . « وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ » أى لأعمالهم . وقال  
 الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يهيجوا أحداً من بنى آدم فى زمان سليمان .  
 وقيل : « حافظين » من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد  
 قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَيَأْيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
 الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ  
 وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِندَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَبِيدِ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذا كرايوب إذ نادى ربه. ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضَّرِّ﴾ أي نالني في بدني ضرّ وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مال عظيم، وكان برّاً تقيّاً رحيماً بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، شاكرًا لأنعم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فغاطبوه في أمر، فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضر في جسمه حتى تناثر لحمه وتدوّد جسمه، حتى أخرجته أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه. قال الحسن: مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر. فلما أراد الله أن يفزع عنه قال الله تعالى له: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم. وسيأتي في «ص» ما للفسرين في قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى. واختلف في قول أيوب: «مَسْنِيَ الضَّرِّ» على خمسة عشر قولاً: الأول — أنه وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال: «مَسْنِيَ الضَّرِّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنس مرفوعاً. الثاني — أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافياً للصبر. الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده في الإفصاح بما ينزل بهم. الرابع — أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدمي في الضعف عن تحمل البلاء. الخامس — أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً بخاف هجران ربه فقال: «مَسْنِيَ الضَّرِّ». وهذا قول جعفر بن محمد. السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما آتته إليه محوا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس. وهذا مما لم يصح سنده. والله أعلم؛ قاله ابن العربي. السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردّها في موضعها فعفرته فصاح «مَسْنِيَ الضَّرِّ» ف قيل: أعلينا تتصبر. قال ابن العربي: وهذا بعيد جداً

(١) راجع تفسير قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ... الخ» آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح ، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن — أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر الله . قال ابن العربى : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة .

التاسع — أنه أتهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو دُخْر أو طهر ، فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء . قال ابن العربى : وهذا غلو لا يحتاج إليه . العاشر — أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت فى النعم سبعين سنة وأقيم فى البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » . قال ابن العربى : وهذا ممكن ولكنه لم يصح فى إقامته مدة خبر ولا فى هذه القصة . الحادى عشر — أن ضره قول إبليس لزوجہ أسجدى لى نخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل . الثانى عشر — لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضربنا كونه معنا وقدره فليخرج عنا ، فأخرجته أمرأته إلى ظاهر البلد ، فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا : ليعبد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعد من القرية ، فكانت أمرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها عنه ، فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » . الثالث عشر — قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدرا أن يدنوا منه من تن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله فى أئوب خيرا ما آبتلاه بهذا البلاء ، فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ، فعند ذلك قال : « مَسْنَى الضُّرُّ » ثم قال : « اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شيئا قط وأنا أعلم مكان جائع فصديقى » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبدى » وهما يسمعان نغزا ساجدين .

الرابع عشر — أن معنى « مَسْنَى الضُّرُّ » من شماتة الأعداء ، ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك ؟ قال شماتة الأعداء . قال ابن العربى : وهذا ممكن فإن الكلام قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ » .

الخامس عشر — أن أمرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه ، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه ، وكان يستعين بذوائبها في تصرفه وتنقله ، فلما عدمها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال : « مَسْنَى الضَّرُّ » .  
وقيل : إنما لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس في صفة رجل وقال له : إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها . خلف أيوب أن يجلد بها ، فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب .

قلت : وقول سادس عشر — ذكره ابن المبارك : أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء ، الحديث . وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال : يا نبي الله لقد أعجبني أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك ، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك ، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت ماترى ، ألا يرحمك فيكشف عنك ! لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه ! فقال أيوب عليه السلام : « ما أدري ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله — أو على النفر يتزاعمون — فأقلب إلى أهلي فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه ﴿ أَيْ مَسْنَى الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وإنما كان دعاؤه عرضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه ، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه . وذكر الحديث . وقول سابع عشر — سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال : « مَسْنَى الضَّرُّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة ، وكان أراد أن يسبق له الأجر موفرا إلى وقت العافية ، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند . قال العلماء : ولم يكن قوله « مَسْنَى الضَّرُّ » جزعا ، لأن الله تعالى قال : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » بل كان ذلك داء منه ، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى ، والدعاء لا يتنافى الرضا . قال الثعلبي سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان ، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا »

فقلت : ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء ، بيانه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ والإجابة تتبع الدعاء لا الاشتكاء . فاستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيذ عن هذه الآية فقال : عرفه فافقه السؤال ليمن عليه بكرم النوال .

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك فى الجنة فإن شئت تركناهم لك فى الجنة وإن شئت آتيناكهم فى الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له فى الجنة وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاية المهدوى عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحمار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له ، وولدت امرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »<sup>(١)</sup> فى قصة « الَّذِينَ نَجَّجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفى قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أحيوا ، وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » فى الآخرة « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » فى الدنيا . وفى الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثر عنه الديدان ، وغاص فى الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت صحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع ج ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى وثانية .

(٢) راجع ج ١ ص ١٤٠ ، ثانية أو ثالثة وج ٧ ص ٢٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

يشبع من الله ! فضل . فأوحى الله إليه : قد أثبت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده ، ولولا أنى وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت . ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدَنَا ﴾ أى فعلنا ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غدا . ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى وتذكيرا للعباد ؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر . واختلف في مدة إقامته في البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليل . وهب : ثلاثين سنة . الحسن سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ؛ رواد ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْمِعِلْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

قوله تعالى : ﴿ وَاسْمِعِلْ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدم ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أى وأذكركم . وخرج الترمذى الحكيم فى « نواذر الأصول » وغيره من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فأتبع امرأة فأعطاهما ستين دينارا [على أن يطأها<sup>(١)</sup>] فلما قعد منها مقعد الرجل من أمراته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك قالت لا ولكن حماني عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل » وخرجه أبو عيسى الترمذى أيضا . ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا أولم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - [ لم أحدث به<sup>(٢)</sup> ] ولكنى سمعته أكثر من ذلك ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان

(١) الزيادة من « الدر المنثور » . (٢) الزيادة من صحيح الترمذى .

ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأنته امرأة فأعطاهما ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من أسراته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما علمته قط وما حملني عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته آذهي فهى لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذي الكفل قال : حديث حسن . وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال : من يتكفل لى بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد ؛ فقال الرجل : أنا ؛ فاستخلفه فوقى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحرث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا ، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ، وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه . وقال كعب : كان فى بنى إسرائيل ملك كافر فتر ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزاى ؟ قال : الجنة — ووصفها له — قال : من يتكفل لى بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان ، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه . وقيل : سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبي . وقال الحسن : هو نبي قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة مريم . ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ  
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ  
الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أى وأذكر « ذ النون » وهو لقب ليونس بن متى لا بتلاع  
النون إياه . والنون الحوت . وفي حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيا مليحا فقال : دَسَمُوا  
نُونَتَهُ كى لا تصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابي : النونة النقبة التى تكون فى ذقن الصبي  
الصغير ، ومعنى دَسَمُوا سَوَّدُوا . ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير :  
مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبري والقتبي واستحسنه المهدوي ، وروى عن ابن مسعود .  
وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل  
ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى .  
وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : ” أشترطى لهم الولاء “  
من هذا . وبالف القتبي فى نصرة هذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق  
الصدر فلما حمل أعباء النبوة تَفَسَّخَ تحتها تَفَسَّخَ الرَّبْعُ تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه  
مضى الأبق الناد . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع  
العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبقي من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم  
بعد رفع العذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بتزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من  
عندهم فى ذلك الوقت ، فأظلمهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ فلذلك  
ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير  
إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسها فلم يُنظر ، وقيل  
له : الأمر أعجل من ذلك — وكان فى خلقه ضيق — فخرج مغاضبا لربه ؛ فهذا قول وقول



النحاس أحسن ما قيل فى تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه ، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فازا بنفسه ، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء ، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله . روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوة ؛ ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه ؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم ، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي والمملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ، وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحي ذلك النبي ، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا آمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإني ملق فى قلوب ملوكهم وجبايرتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا . قال : فهل سماني لك ؟ قال : لا . قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء . فالحوا عليه نخرج مغاضبا للنبي والمملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَأَلْقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : نخرج ولم يكن نبيا فى ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتى نينوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للملك ؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيري : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في « والصفات »<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى .  
وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب نخشى أن يقتل فغضب ،  
ونخرج فأزأ على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أفيم آبق ؟  
فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وأبتلى ببطن الحوت تحيضا من الصغيرة كما قال  
في أهل أحد : « حَتَّى إِذَا فِشَلْتُمْ » إلى قوله : « وَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فعاصى الأنبياء  
مغفورة ، ولكن قد يجري تحييص ويتضمن ذلك زجرا عن المعادة . وقول رابع : إنه لم  
يغضب ربه ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولهم غضب إذا أنف . وفاعل قد يكون من  
واحد ، فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب ونخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع  
وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا . وينشد هذا البيت :  
\* وأغضب أن تهجى تميم بدارم \*

أى أنف . وهذا فيه نظر ، فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة وإن  
كانت من الأنفة ، فالأنفة لا بد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟ !  
وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه ! .

قوله تعالى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » قيل : معناه آستره إبليس  
ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته . وهذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر .  
روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي ، والثعلبي عن الحسن . وذكر الثعلبي وقال عطاء  
وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نصيق عليه . قال الحسن : هو من قوله  
تعالى : « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق . وقوله : « وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .  
قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقَدِرَ وقَدِرَ وقَتِرَ بمعنى ، أى ضيق وهو  
قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ؛  
أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة ؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

(١) في تفسير قوله تعالى : « وإن يونس لمن المرسلين ... » الآيات ١٣٩ وما بعدها .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، أنه قال فى قول الله عز وجل : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَّقْدَرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قدر الله لك الخير يقدره قدرا ، بمعنى قدر الله لك الخير . وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجع \* لنا أبدا ما أورد السَّلم النضرُ

ولا عائد ذلك الزمان الذى مضى \* تباركت ما تقدر يقعُ ولك الشكرُ

يعنى ما تقدره وتقضى به يقع . وعلى هذين التأويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : « أَنْ لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بضم الياء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخففا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ » . الباقون « يَقْدَرُ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير . قلت : وهذان التأويلان تأولهما العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله إذا

مات فحرقوه "فوالله لئن قدر الله على" الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ فى محاسبتى وجزائى على ذنوبى ليكون ذلك ، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبنى الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه نخرجه الأئمة فى الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء فى بعض طرقه "لم يعمل خيرا إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا للمؤمن مصدق ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل : إن معنى « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أفظن ؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا ، وهو قول سليمان<sup>(١)</sup> [أبو] المعتز . وحكى القاضى منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أفظن » بالألف .

(١) فى الأصل « سليمان بن المعتز » وهو تحريف والتصويب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : ﴿ فَنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « فَنادى في الظلمات » اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى في الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنبذناه بالعراء وهو سقيم » كهيئة الفسرخ المغموط الذي ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التقم الحوت الأول . ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط ، كما قال : « فِي غِيَابَاتِ الْحُبِّ » وفي كل جهاته ظلمة بجمعها سائغ . وذكر الماوردي : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لَا تَوَدُّ مِنْهُ شَعْرَةٌ فَإِنِ جَعَلْتَ بِطْنَكَ سَجْنَةً وَلَمْ أَجْعَلْهُ طَعَامَكَ » وروى : أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدي حدثنا إسحاق<sup>(١)</sup> ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجله فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلي فقال في دعائه : « وَأَتَخَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا حَيْثُ لَمْ يَتَّخِذْهُ أَحَدٌ » . وقال أبو المعالي : قوله صلى عليه وسلم « لَا تَفْضُلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى » المعنى فإنني لم أكن وأنا في سدة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو في قعر البحر في بطن الحوت . وهذا يدل على أن الباري سبحانه وتعالى

(١) كذا في الأصل ؛ ولعله « عبد الله بن إدريس » فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدي كما في « تهذيب التهذيب » .

ليس فى جهة . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : فى الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الماوردى . وقيل : من الظالمين فى دعائى على قومى بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤخذ . وقال الواسطى فى معناه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه أعترافا وأستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كنا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

الثانية — روى أبو داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا أستجيب له » وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الخبر : فى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه ، وهو قوله : « وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء وإنما هو مضمون قوله : « إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ » أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبد ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فلما قرب القيامة يقال له ذو النون ، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده ! لا يظن به ذلك . « مِنَ الْغَمِّ » أى من بطن الحوت .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجى ينجى . وقرأ ابن عامر « نُجَى » بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمار المصدر أى وكذلك أنجى النجاء المؤمنين ؛ كما تقول : ضُرب زيداً بمعنى ضُرب الضربُ زيدا وأنشد :

(١) ولو وَلَدْتُ فَقِيرَةً جُرُوكَلْبٍ \* لَسَبُّ بِذَلِكَ الْجُرُوكَلْبَاءِ

أراد كَسَبَ السَّبِّ بِذَلِكَ الْجُرُوكَلْبَاءِ . وسكنت يَأْوُهُ على لغة من يقول بَقِيَّ ورَضَى فلا يحرك الياء .  
وقرأ الحسن « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » استثقالا لتحريك ياء قبلها كسرة . وأنشد :

نَحْمَرُ الشَّيْبَ لِمَتِّي تَحْمِيرًا \* وَحَدَا بِي إِلَى الْقُبُورِ الْبَعِيرَا

لَيْتَ شِعْرِي إِذَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ \* وَدُعَى بِالْحَسَابِ أَيْنَ الْمَصِيرَا

سكن الياء في دعى استثقالا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب ؛ أى وحدا المشيب  
البعير ؛ ليت شعري المصير أين هو . هذا تأويل الفراء وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه  
القراءة . وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ؛ وإنما  
يقال : نُجِّيَ الْمُؤْمِنُونَ . كما يقال : كَرَّمَ الصَّالِحُونَ . ولا يجوز ضَرْبُ زَيْدَا بمعنى ضَرْبِ الضَّرْبِ  
زَيْدَا ؛ لأنه لا فائدة [فيه] <sup>(٢)</sup> إذ كان ضَرْبٌ يدل على الضرب . ولا يجوز أن يحتاج بمثل ذلك  
البيت على كتاب الله تعالى . ولأبي عبيد قول آخر - وقاله القتيبي - وهو أنه أدغم النون في الجيم .  
النحاس : وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعده مخرج النون من مخرج الجيم  
فلا تدغم فيها ، ولا يجوز في « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « بَجَاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم اسمع  
في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان . قال : الأصل نَجَّى لحذف إحدى النونين ؛  
لأجتماعهما كما تحذف إحدى التائين ؛ لأجتماعهما نحو قوله عز وجل : « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل  
تَنَفَّرُوا . وقرأ محمد بن السَّمِيعِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ « وَكَذَلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ » أى نَجَّى الله الْمُؤْمِنِينَ ؛  
وهي حسنة .

قوله تعالى : وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ  
الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ  
كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

(١) فقيرة (بكهية) : أم الفرزدق . والبيت لجرير من فصيحة يهجو بها الفرزدق .

(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى وأذ كر زكريا . وقد تقدم فى «آل عمران» ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت ؛ وإنما قال «وأنت خير الوارثين» لما تقدم من قوله : «يَرِثُنِي» أى أعلم أنك لا تضيع دينك ، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عقبى . كما تقدم فى « صريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ﴾ أى أجبنا دعاءه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي ﴾ . تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا بفعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله بفعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين بفعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى الأنبياء المسبحين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . وقيل : الكاية راجعة إلى زكريا وأسرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفرعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف ، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرغب رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب رفع ظهورها ، قاله خصيف ؛ وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه ، إذ هو موضع إعطاء أو بها يملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك ، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانية — روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه وقد مضى فى «الأعراف»<sup>(٢)</sup> (١) راجع ج ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الاختلاف في رفع الأيدي ، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك . وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفة وإلى أين ؟ فكان بعضهم يختار أن يسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه ، روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان علي يدعوا بباطن كفيه ، وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذي . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألت الله فاسأله ببطون أكفكم ولا تسأله بظهورها وامسحوا بها وجوهكم " . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري ، قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعوا وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق يديه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يجاذى بهما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه . قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني ، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهال . قال الطبري وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر ، أي يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله ، أي للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مصرف « وَيَدْعُونَا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّتْمِ والبُخْلِ ، والعدم والضُّر لغتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغَبًا وَرَهَبًا » بالفتح في الراء والتخفيف في الغين والهاء ، وهما لغتان مثل نَهْرٍ وَنَهْرٍ وَصَخْرٍ وَصَخْرٍ . ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو .

(( وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ )) أي متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** (٩١)



قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا﴾ أى واذا كرميم التى أحصنت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتيم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير خل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير : وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت فى النذر فى المتعبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يحجره على يد عبد من عبيده . وقيل : إنها لم تلقم ثديا قط . «وَأَحْصَيْتُ» يعنى عَقَّت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بثوبها ريبة ؛ أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظا ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس . ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفخ فى درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها . وقد مضى هذا فى «النساء» و «مريم» فلا معنى للإعادة . ﴿آيَةً﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلمنا لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢)

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . فأما المشركون فقد خالفوا الكل . ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أى إلهكم وحدى . ﴿فَاعْبُدُونِي﴾ أى أفردوني بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمرو وابن أبى إسحق «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» ورواها

حسين عن أبي عمرو . الباقر « أُمَّةً وَاحِدَةً » بالنصب على القطع بحجىء النكرة بعد تمام الكلام ؛ قاله الفراء . الزجاج : انتصب « أُمَّةً » على الحال ؛ أى فى حال اجتماعها على الحق ؛ أى هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعت على التوحيد ؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديق عفيفا أى ما دام عفيفا فإذا خالف العفة لم يكن صديق . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من « أمتكم » أو على إضمار مبتدأ ؛ أى إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت « أمتكم » على البدل من « هذه » لحاز ويكون « أُمَّةً وَاحِدَةً » خبر « إن » .

قوله تعالى : **وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ ﴿٩٣﴾** فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾  
قوله تعالى : **﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾** أى تفرقوا فى الدين ؛ قاله الكلبى . الأخفش : اختلفوا فيه . والمراد المشركون ؛ ذمهم لمخالفة الحق ، واتخاذهم آلهة من دون الله . قال الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ؛ فنصب « أَمْرَهُمْ » بحذف « فى » . فالمتقطع على هذا لازم وعلى الأول متعدد . والمراد جميع الخلق ؛ أى جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسيمه بينهم ، فن موحد ، ومن يهودى ، ومن نصرانى ، ومن عابد ملك أو صنم . **﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ﴾** أى إلى حكمتنا فنجازيهم .

قوله تعالى : **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** « من » للتبعية لا للجنس إذ لا قدرة للكلف أن يأتى بجميع الطاعات فرضها ونفلها ؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات فرضا أو نفلا وهو موحد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بحمد صلى الله عليه وسلم . **﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾** أى لا يحود لعمله ؛ أى لا يضيع جزاؤه ولا يغطى . والكفر ضده الإيمان . والكفر أيضا بحود النعمة ، وهو ضد الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفى حرف ابن مسعود « **فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** » . **﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾** لعمله حافظون . نظيره « **أَنَّى لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** » أى كل ذلك محفوظ ليجازى به .

قوله تعالى : وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾  
 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾  
 وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيِلْنَا  
 قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت  
 وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحَرَمٌ » ورويت  
 عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حَلَّ وحَلَال . وقد روى  
 عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمٌ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس  
 أيضا وعكرمة وأبى العالسة « وَحَرَمٌ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا  
 « وَحَرَمٌ » وعنه أيضا « وَحَرَمٌ » ، « وَحَرَمٌ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة  
 ومطر الوراق « وَحَرَمٌ » تسع قراءات . وقرأ السلمي « عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » . واختلف فى « لا »  
 فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقليل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛  
 أى وحرام على قرية أهلكتها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى  
 ثابتة ، ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَايِكًا \* عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرٍ

تريد أخاها ؛ فهـ « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن  
 ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عينة وابن عُلَيَّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن  
 حيان ومعلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وَحَرَامٌ  
 عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر :  
 واشتقاق هذا بين فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرِّمَ الشئ حُظِرَ ومنع منه ، كما أن معنى أحل  
 أبيع ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حَرِمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

منه ومنع فقد دخل في باب المحذور بهذا؛ فأما قول أبي عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزداد في مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحَرَّم . وقيل : في الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكما باستئصالها ، أو بالحثم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو علي ؛ و « لا » غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدم القول فيهم . وفي الكلام حذف ؛ أى حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل « وأسأل القرية » . ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أى لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحذب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحذاب ؛ مأخوذ من حذبة الظهر ؛ قال عنترة :  
فأرعى يداى ولا أزدهانى \* توارثهم إلى من الحسذاب

وقيل : « يَنْسِلُونَ » يخرجون ؛ ومنه قول امرئ القيس :

\* فَسَلَّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَسْلِيلٌ<sup>(١)</sup> \*

وقيل : يسرعون ؛ ومنه قول النابغة<sup>(٢)</sup> :

عَسَلَانَ الذئبِ أَمْسَى قَارِبًا \* بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَذَسَّلَ<sup>(٣)</sup>

يقال : عَسَلَ الذئبُ يَعْسِلُ عَسَلًا وَعَسَلَانًا إذا أعنى وأسرع . وفي الحديث : « كَذَبَ عليك العَسَل » أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : والنَّسْلَانُ مشية الذئب إذا أسرع ؛ يقال : نسل فلان في العدو يَنْسِلُ بالكسر والضم نَسْلًا ونُسْلًا ونَسْلَانًا ؛ أى أسرع . ثم قيل في الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون إلى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدره : \* وإن تك قد ساءتلك منى خليفة \*

(٢) وقيل : هو للبيد ، كما « اللسان » مادة « عسل » . (٣) القارب : السائر لا .

صوب . وقرئ فى الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ » أخذنا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدي عن ابن مسعود والثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القيامة . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يا جوج وما جوج أقترب الوعد الحق « فَأَقْتَرَبَ » جواب « إذا » . وأنشد الفراء :

\* فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَنْتَحَى \*

أى أنتحى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى للجبين نأديناه . وأجاز الكسائى أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفا على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ « هى » ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعدها تفسير لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجئ الوعد . وقال الشاعر :

لَعَمْرُ أَبِيهَا لَا تَقُولَ ظَعِينَتِي \* إِلَّا فَرَعْنِي مَالِكُ بْنُ أَبِي كَعْبٍ

فكنى عن الطعينة فى أبيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : « هى » التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى من قربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هوله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة فى غير موضعها .

(١) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته ، وتمامه :

\* بنا بطن خبت ذى قفاف عقتل \*

قوله تعالى : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ هَآ وَكَرِدُونَ** ﴿٩٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها ! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها ، أو جهلوا فلا يسألون عنها ؛ فقليل : وما هي ؟ قال : **«إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ»** لما أنزلت شقّ على كفار قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأتوا ابن الزبيري وأخبروه ، فقال : لو حضرته لرددت عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبدوه النصارى واليهود تعبد عزيراً أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أن هذا قد خُصم ؛ فأنزل الله تعالى : **«إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ»** وفيه نزل **«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا»** يعني ابن الزبيري **«إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ»** بكسر الصاد ؛ أي يضحجون ؛ وسيأتي <sup>(١)</sup> .

الثانية — هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صيغة مخصوصة ، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها ؛ فهذا عبد الله بن الزبيري قد فهم **«ما»** في جاهليته جميع من عبد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء ، واللسن البغاء ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستغنى منها ، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح .

الثالثة — قراءة العامة بالصاد المهملة ؛ أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأ على ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما **«حَطَبُ جَهَنَّمَ»** بالطاء . وقرأ ابن عباس **«حَصَبُ»** بالصاد المعجمة ؛ قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكري أن الحصب في لغة أهل

(١) في تفسير آية ٥٧ من سورة « الزخرف » .

اليمن الخطب ، وكل ما هيئت به النار وأوقدتها به فهو حَضَبٌ ؛ ذكره الجوهري .  
 والموقد حَضَبٌ . وقال أبو عبيدة فى قوله تعالى : « حَضَبُ جَهَنَّمَ » كل ما ألقىته فى النار  
 فقد حصبته به . ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب  
 بلجهم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل :  
 إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت ؛ على ما تقدم فى « البقرة » وأن النار لا تكون على الأصنام  
 مذابا ولا عقوبة ؛ لأنها لم تذب ، ولكن تكون عذابا على من عبدها : أول شىء بالحسرة ،  
 ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يعذبون بها . وقيل : تحبى فتلصق بهم  
 زيادة فى تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت فى النار تبكىنا لعبادتهم .

الرابعة — قوله تعالى : « أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » أى فيها داخلون . والخطاب للمشركين  
 عبدة الأصنام ؛ أى أتم واردوها مع الأصنام . ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبدتها ؛  
 لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد ينجر عنها بكليات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل  
 فى هذا عيسى ولا عذري ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغير الآدميين . فلو أراد  
 ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوْهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾  
 لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : « لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوْهَا » أى لو كانت الأصنام آلهة لما ورد  
 عابدوها النار . وقيل : ما وردها العابدون والمعبودون ؛ ولهذا قال : « وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ » .  
 قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشیاطين ؛  
 فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها ؛ هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟  
 قولان : والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب . وقد تقدم فى « هود » . « وَهُمْ فِيهَا »

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثالثة .

لَا يَسْمَعُونَ) قيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئاً ؛ لأنهم يحشرون صماً ، كما قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » . وفي سماع الأشياء رُوح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار . وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية . وقيل : إذا قيل لهم « آخِسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُوا » يصيرون حينئذ صماً بكماً ، كما قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار في جهنم جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أن في النار من يعذب غيره .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَبَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : (( إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ )) أى الجنة (( أُولَٰئِكَ عَنْهَا )) أى عن النار (( مُبْعَدُونَ )) فعنى الكلام الاستثناء ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » هاهنا بمعنى « إلا » وليس في القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ » فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن عثمان منهم » .

قوله تعالى : (( لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً )) أى حس النار وحركة لها . والحسيس والحس الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحرورى لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً » فقال ابن عباس : أجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأُورِدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرُودًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالماً ، وأدخلنى الجنة فائزاً . وقال أبو عثمان النهدى :



على الصراط حيات تاسع أهل النار فيقولون : حَسَّ حَسَّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حَسَّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ؛ فالله أعلم . (وَهُمْ فِيهَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أى دأمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » .

قوله تعالى : (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ) وقرأ أبو جعفر وابن محيصن « لَا يَحْزَنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاى . الباكون بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفرع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبيرة والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة يوم القيامة فى كشيء من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفرع الأكبر رجل أم قوما محتسبا وهم له راضون ورجل أذن لقوم محتسبا ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه» . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلى الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يا بن أنحى ! من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفرع الأكبر ، سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . (وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتفونهم ويقولون لهم : (هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَذَا يَوْمُكُمْ » أى ويقولون لهم ؛ فخذف . « الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَاهُ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ) قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهرى « نَطْوِى » بتاء مضمومة « السَّمَاءُ » رفعا على ما لم يسم فاعله . مجاهد « يَطْوِى »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « نَطَوَى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة ؛ التقدير : الذى كنتم توعدهونه يوم نطوى السماء . أو يكون منصوباً بـ « نعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يحزنهم » أى لا يحزنهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى نطوى فيه السماء . أو على إضمار وأذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . « كَطَى السَّجِّلَ لِلْكِتَابِ »<sup>(١)</sup> قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى « على » . وعن ابن عباس أيضاً اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السَّجِّل . وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسدى : « السَّجِّل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السَّجَالَة وهى الكتابة ؛ وأصها من السَّجِّل وهو الدلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلواً ونزع دلواً ، ثم استعيرت فسميت المسكوبة والمراجعة مساجلة . وقد سَجَّلَ الحاكمُ تسجيلاً . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِدًا \* يَمَلَأُ الدَّلَوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ<sup>(٢)</sup>

ثم بنى هذا الاسم على فِعْلٍ مثل حِمَزٍ وَطِمَزٍ وَبِلَى . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَى السَّجِّلَ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعشى وطلحة « كَطَى السَّجِّلَ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والظن فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدَّرج الذى هو ضد النَّشر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتعمية والحجوب ؛ لأن الله تعالى يحجى ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإنفراد قراءة نافع . (٢) الكرب : جبل يشد على عراق الدلو ثم يلقى ثم يثاقل ليكون هو الذى يل الماء فلا يمتن الحبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِلْكِتَابِ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ويحيى وخلف : « لِلْكِتَابِ » . جمعاً ثم استأنف الكلام فقال : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » أى نحشرهم حفاة عراة غرلاً كما بدأوا فى البطون . وروى النسائي عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام — ثم قرأ — « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » « أخرجه مسلم ايضاً عن ابن عباس قال : قام فىنا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً » كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام » وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كنى الرجال فتبت منه ألحانهم وجسمانهم كما تنبت الأرض بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شئ ونفنيه كما كان أول مرة<sup>(١)</sup> وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى المسلك والفناء فلا تكون شيئاً . وقيل : نفى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، كقوله : « يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ » والقول الأول أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعِزُّوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . « وَعَدَّا » نصب على المصدر أى وعدنا وعدا « عَلَيْنَا » إنجازه والوفاء به أى من البعث والإعادة ، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كَانَ » للإخبار بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألوسى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زبرت أى كتبت وجمعه زُبر . وقال سعيد بن جبير : « الزبور » التوراة والإنجيل والقرآن . ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذى فى السماء ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعبي : « الزبور » زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على موسى . وقرأ حمزة « فِي الزُّبُورِ » بضم الزاى جمع زُبر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة « عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » بتسكين الياء . ﴿ إِنَّ فِي هَذَا ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعد والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ﴿ لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوري : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « عابدين » مطيعين . والعباد المتذلل الخاضع . قال القشيري : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ  
إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ  
عَذَابُنَا عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال :  
كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد ، ومن لم يؤمن  
به سلب مما لحق الأمم من الخسف والفرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .  
قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به .  
﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى متقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فاسلموا ؛ كقوله تعالى : « فَهَلْ  
أَنتُمْ مُتَّقُونَ » أى آتوها .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾  
أى أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ  
فَأَنذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً ، أى استويت أنت وهم فليس لفريق  
عهد ملتزم فى حق الفريق الآخر . وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلى على استواء فى العلم به ،  
ولم أظهر لأحد شيئاً كتمته عن غيره . ﴿ وَإِنْ أَذْرَى ﴾ « إن » نافية بمعنى « ما » أى وما أدرى .  
﴿ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى أجل يوم القيامة لا يدرى أحد لا نبى مرسل ولا ملك  
مقرب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾  
وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ  
وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى من الشك وهو المجازى  
عليه . ﴿ وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ ﴾ أى لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أعلم . ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ قيل : إلى أنقضاء المدة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية في منامه يلون الناس ، فخرج الحكم من عنده فأخبر بنى أمية بذلك ، فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ » ﴿ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ ختم السورة بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أى أحكم بينى وبين هؤلاء المكذبين وانصرفى عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أى أقض به . وقال أبو عبيدة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب أحكم بحكمك الحق . و« رب » في موضع نصب ، لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن « قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بضم الباء . وهذا لحن عند النحويين ؛ لا يجوز عندهم رجل أقبل ، حتى تقول يارجل أقبل أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطاحنة ويعقوب « قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال محمد ربى أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ الجندري « قُلْ رَبِّ أَحْكُم » على معنى أحكم الأمور بالحق . ﴿ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ ﴾ أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمى « عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ » بالياء على الخبر . الباقيون بالتاء على الخطاب .

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة نافع .



تم الجزء الحادى عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر وأوله : «سورة الحج»



كَمِّلَ طبع الجزء الحادى عشر من كتاب "الجامع الأحكام القرآن للقرطبي"  
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠  
(١٧ يولييه سنة ١٩٤١) م  
محمد نديم